

من هادي سيرة الأنفال

تأليف  
الشيخ محمد بن محمد البصري

الناشر : مكتبة دار الأرقم - الكويت - ص.ب . ٤٣٢٣



# من هادي بيوترة الألفان

تأليف  
الشيخ محمد بن أبي بصير



## بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

جاء في كتاب ( جامع بيان العلم وفضله ) لأبي عمر بن عبد البر - وأظن أن القول للمؤلف نفسه - : « ولم أر أضر على العلم من قول القائل : لم يترك الأول للآخر شيئاً » . وصدق أبو عمر رحمه الله . فإن هذه الكلمة توصل باب الجهد والاجتهاد ، وتقفل باب التجديد والإبداع ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذه الأمة بالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره ، ولا يزال في المسلمين من يشمر عن ساق الجد في فهم كتاب الله والغوص في بحاره يلتقط الدرر كما وصف عمر رضي الله عنه ابن عباس بقوله له : « غص يا غواص » ، وذلك لثاقب فهمه في كتاب الله ، ومن أعظم مامن الله به على المسلمين في السنين الأخيرة من الفهم في كتاب الله تفسيران عظيمان أولهما : « في ظلال القرآن » لسيد قطب رحمه الله وثانيهما « أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن » للعلامة الفاضل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

وكذلك كان الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله ممن يدعو إلى ( التربية القرآنية ) والعيش في جو القرآن ، جو الجهد والاجتهاد والتربية والعتاب ، وهذا لا يتحقق إلا بالجهاد الفعلي ، ولذلك كان يكثر من الحديث عن الجهاد وكيف تركه المسلمون حتى أصبحوا أمة خانعة ذليلة يستخف بها الطغاة ، ويخدعها أعداؤها وكان لا يفتأ يشرح و يفسر سورة الأنفال التي تتحدث عن معركة ( بدر ) ومنها يتحدث عن التربية القرآنية للأصحاب الكرام ، وعن تربية الأمة بالجهاد . ومنها يعرج على الآيات التي تتكلم عن غزوة أحد في سورة آل عمران ، والآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب . وكان يرى أن الأمة المسلمة تربت بالجهاد . وهذا هو سبب اهتمامه بسورة الأنفال .

وبعد وفاته رحمه الله قامت حركات جهادية في أنحاء من العالم الإسلامي تجاهد الشر والطواغيت ، الذين يتحكمون بالعباد ويفسدون في الأرض ، وأعتقد أنه كان يتمنى أن يرى هذا اليوم الذي يرى فيه الشباب وقد تقدموا للموت بصدور مفتوحة ، وأشواق إلى الجنة .

يقول رحمه الله عن المرحلة السابقة التي كان يحض فيها على الجهاد : « وإن كثيرين من أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر من أمثالي لا يحبون أن يسمعوا كلمة القتال ،

ولا يروق لهم أن يتحدث متحدث عن الجهاد ، ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم ، سمعت كثيرين من الأمائل يقولون : « أليس هناك موضوع غير الجهاد ؟ » .

ويقول أيضا : « إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها وهو موضوع الساعة » .

وكأنه ينظر بنور الله حين يقول : « والخلاصة إن الأمة لا ينقذها في مثل هذه الأيام إلا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين » .

والشيخ لا يتكلم عن الجهاد وأثره في تفجير طاقات الأمة فحسب وإنما يحقق و يوازن ويرجع على طريقة العلماء المحققين الذين يحبون الحقيقة و ينقون التراث الإسلامي مما علق به من روايات غير صحيحة ، أو آراء فاسدة من تأثير الفلاسفة المترجمة . ولذلك نراه يحقق بجرأة ورضانة علمية موضع سورة الأنفال ، حيث يذهب بعض العلماء إلى أن اقتران الأنفال وبراءة هو من اجتهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و ينقد هذه الرواية متناً وسنداً : متناً لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته عارض القرآن على جبريل مرتين ، فأين كان موضع سورة الأنفال وبراءة ؟ وسنداً لأنه في سنده مجهول و ينقل كلام الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على هذه الرواية : « ولا عبرة بعد هذا في هذا الموضع بتحسين الترمذي ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبي وإنما العبرة للحجة والدليل » . وهذا البحث نموذج حسن لما للأحاديث الضعيفة والواهية من أثر سييء في أساس الدين ومعانيه .

كما يحقق في موضوع اختلاف الصحابة في الغنائم و ينقد الرواية التي تقول بانقسام الصحابة إلى ثلاثة أقسام ، وأن القسم الذي حواها هو الذي استأثر بها ، هذه الرواية ينقدها متناً وسنداً : متناً لأن هذا ليس من أخلاق الصحابة ، وسنداً لأن هناك رواية أقوى وهي أن الصحابة انقسموا قسمين : الشيوخ والشباب وهذا نموذج لتنقية التفسير مما علق به .

ولما فسر الآية الثانية وتطرق إلى موضوع الإيمان أفاض في التعليق على موضوع الإيمان : زيادته ونقصه وأثره في النفس وحقق ذلك وربطه بأقوال المعاصرين ، وأقوال أساتذة علم النفس والتربية من الغربيين ، وأيد رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في بحثه وتعريفه للإيمان ؛

لأنه هو الرأي الصحيح الموافق للعقيدة الإسلامية العملية البسيطة ، وليس للعقيدة الذهنية المعقدة بمقد المرجئة والاعتزال وغيرهما من الفرق الشاذة .

هذه بعض التحقيقات القيمة ، ولكن صلب الموضوع هو الجهاد وكيف تربت الأمة من خلاله على الصبر والمصابرة ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى كان يرفعها من خلال المعارك والتعب والنصب ، وليس من خلال القراءة والحلقات فقط ، وهكذا يريدنا الشيخ (تربية قرآنية) ولعلها قد ظهرت الآن بوادرها لهذا الفهم القرآني ، ورحم الله الشيخ رحمة واسعة وجزاه الله خيرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد العبد





## بسم الله الرحمن الرحيم

### من هدي سورة الأنفال

#### تقدمة للسورة الكريمة

في موقعة القادسية قبل أن يأذن سعد بالقتال أرسل ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم وبحق عليهم في مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوور رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا في الناس فذكروهم وحرصوهم على القتال ( الطبري ٤٥/٣ ) .

وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها ( ابن الأثير ١٨١/٢ - ١٨٢ ) ( الطبري ٤٧/٣ ) . وعند فراغ القراء من قراءة هذه السورة كبر سعد فكبر الذين يلونه وكبر بعض الناس بتكبير بعض فاستعد الناس للقتال ثم ثنى سعد فأكمل الناس استعداداتهم ثم تلت فبرز أهل النجدة وأنشوا القتال ... ثم كبر سعد التكبير الرابعة إشارة لبدء الزحف العام ( الطبري ٤٧/٣ ) .

وانه ليجدر التأمل في صفات هؤلاء الذين أرسلهم سعد إلى الناس قبل أن يأذن بالقتال - الرأي والعقل والنجدة - وان هذا ليوضح جلياً مكانة ذوي الرأي والنجدة في ساعات البأس ، يدفعون الحذر ويقطعون التردد ويدفعون بالناس إلى الموت وإلى الشهادة ومن المؤسف أن أمثال هؤلاء الدعاة قد فقدوا وان وجد عدد يسير منهم فما يقومون بحق الله عليهم .

إن ألوف الألوف من المسلمين اليوم رغم هذه الظلمة الحالكة والحيرة الغالبة لو أتيج لهم من يدعوهم دعوة صادقة يتقدم بها صاحبها ليستقبل الموت بصدرة ونحره ، الوف الألوف مستعدة لتلبية النداء والسعي وراء الشهادة ولو تم ذلك لتم معه نصر الله .

إن الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام بضلالها وشروها مدينة لرجل واحد عجوز قبيء هو بطرس الراهب الذي أخذ يسير من عاصمة إلى عاصمة في بلاد أوربة يدعو

لانتزاع المسجد الأقصى من أيدي المسلمين . أفلا يوجد في المسلمين اليوم من يدعو صادقا إلى الاستجابة لله ولرسول الله لتخليص المسجد الأقصى من اليهود ؟

إن النصوص السابقة تشير إلى مكانة سورة الأنفال من كتاب الله في الدعوة إلى الجهاد ولاغرو فلقد نزلت على إثر بدر الكبرى التي فرق الله بها بين الحق والباطل وأراد الله بها نصرة دينه واعزاز جنده .

روى البخاري في صحيحه في كتاب التفسير عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر وفي روايات أخرى عن ابن عباس « تلك سورة بدر » .

### نظرة اجمالية في اغراض السورة الكريمة

المحور الذي تدور عليه آيات السورة الكريمة موضوع الجهاد والغرض الأساسي الذي تدعو إليه الثبات في مواطن البأس وعدم الفرار من وجه العدو .

والموضوعات التي تدور حولها السورة الكريمة تتلخص فيما يلي :

( عتاب للأصحاب رضوان الله عليهم اولا ) ( وتذكيرهم بما تم لهم في المعركة ثانيا ) ( وتذكيرهم بالحال التي كانوا عليها من قبل وما كان عليه المشركون من مكروكيد وعناد ثالثا ) ( ونداءات للأصحاب رضوان الله عليهم متكررة متتالية رابعا ) ( ثم توجيه للأصحاب يتصل بشئون الحرب وأمور القتال خامسا ) .

ولقد افتتحت السورة الكريمة بموضوع الأنفال وأشارت الى نوع من النزاع وقع بين بعض الأصحاب في موضوع الأنفال وضعت الآيات الكريمة في صيغة سؤال أجابت عنه ثم خلصت إلى ذكر صفات المؤمنين مشيرة إلى أن هذه الصفات هي التي يجب ان يتصف بها الأصحاب ، وانتهى ههنا موضوع العتاب الأول ووجدت الآيات الكريمة سبيلها لتسلكه إلى العتاب الثاني بتشبيه الموقف الأول بالموقف الثاني ذلك لأن الدافع واحد والضعف البشري هو العامل في الموقفين .

وامتزج العتاب في الموضوع الثاني بالتذكير بما وقع قبيل المعركة كراهة فريق للخروج وخوف فريق من الموت حتى أنهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون وجدال فريق مع الرسول عليه صلوات الله وسلامه في موضوع القتال .

وهنا تقارن الآيات الكريمة بين ما يريد هذا الانسان اذا خلى وضعفه وما يريد الله

منه يريد شهوات نفسه و يريد الله منه ان يربط في سبيل دعوة الحق .  
وبعد هذا التوجيه الكريم والعتاب الرحيم تأخذ الآيات الكريمة بالتذكير بالمن التي  
تمت في معركة بدر، الاستغاثة والاستجابة بالامداد بالملائكة ، والآيات من عند الله  
تسرى ، والاستجابة تبدأ بذكر الامداد بالملائكة وتختتم بأمرهم بتثبيت الذين آمنوا وضرب  
البنان ويختتم هذا كله بأن هذا هو شأن الكافرين أن يذوقوا العذاب في الدنيا بيد المؤمنين  
ولهم في الآخرة عذاب النار .

### النداءات الخمسة

كل هذا يتم في اربع عشرة آية وتطلع الآية الخامسة عشرة بنداء حاسم جازم  
للمؤمنين هو النتيجة الحتمية لكل ما سبق عدم التولي يوم الزحف .

و يعقب النداء الأول نداءات اربعة تؤكد مضمونه وتؤيده .

النداء الثاني امر بطاعة الله ورسوله وتحذير من الاعراض عنه

النداء الثالث امر بالاستجابة لله ورسوله .

والنداء الرابع نهي عن خيانة الله ورسوله .

والنداء الخامس تحريض على التقوى وذكر ثمرة من أعظم ثمراتها الفرقان و يتصل بكل  
نداء معانٍ تناسبه :

فالأمر بعدم الفرار من الزحف يناسبه أن يعلم المؤمن أن الأمر كله لله وان كل ما يتم  
في ملكه جل شأنه بتقديره وتدبيره فلم الخوف إذن ولم الفرار؟ قال تعالى « فلم تقتلوهم  
ولكن الله قتلهم » و يتصل بالموضوع ان يستيقن المؤمن بأن الله موهن كيد الكافرين .

والأمر بطاعة الله ورسوله يناسبه التنفير من حال الكافرين الذين غلفت قلوبهم الذين  
قالوا سمعنا وهم لا يسمعون الذين هم شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون .

والاستجابة لله ورسوله يناسبه التحذير من أمرين يحولان بين المرء والاستجابة لنداء  
الحق أحدهما داخلي حين يحال بين المرء وقلبه وثانيها خارجي حين تعم الفتنة في الأمة  
ويعظم شرها فلا يستطيع أن يقف أمامها ذورأى أو يكبح جماحها ذوعزيمة . و يناسب

الاستجابة لله ورسوله لما فيها من الحياة تذكير المؤمنين بحالهم من قبل إذ هم قليل مستضعفون في الأرض فأواهم الله جل شأنه بعد استجابتهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات .

ويناسب الأمر بعد الخيانة التذكير بفتنة الأموال والأولاد

ويناسب ذكر الفرقان الذي يكون للمؤمنين بسبب تقواهم تذكيرهم بما كانوا عليه من قبل وبما كان عليه المشركون من كيد ومكر وعناد :  
أ – ائتمارهم برسول الله عليه صلوات الله وسلامه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه .

ب – استهزاؤهم بآيات الله وقولهم « إن هذا إلا أساطير الأولين »

ج – عنادهم بأبشع صورة ( واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء )

ويتصل بالأمر الثالث أنهم يستحقون العذاب ولكن الله لا يعذبهم مادام الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم .

ويناسب ذكر الكافرين وعنادهم العود الى تطمين المؤمنين ، بأن الله محبط كيد الكافرين وبأن الأموال التي ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله ستكون حسرة عليهم ثم يغلبون .

وهنا مكان بيان سنة من سنن الله في خلقه لعباده وابتلائه إياهم فما الحياة الا فرصة تتاح للخبيث ليقدّم أسوأ ما عنده وللطيب ليبيدي أكرم خصاله وهذا الابتلاء « ليميز الله الخبيث من الطيب »

على أن باب الخير مفتوح غير مؤصد وليس بينه وبين هذا الانسان الا أن يستيقظ ضمير هذا الانسان وهنالك تفتح له صفحة جديدة و يولد ولادة جديدة ( ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف )

فاذا كانت الحياة صراعا بين الحق والباطل وإذا كان الشر دائبا على مغالبة الخير عاملا على إخفاء آثاره وطمس معالمه فليس البيان وحده كافيا في دفع الشر واجتثاث

اصله بل لا بد من قتال يواجه القتال ومناجزة تسبق المد وليس الغرض من القتال التشفّي ولا الانتقام ولكن الغرض كف الفتنة ودفع الأذى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »

وهكذا كانت هذه الآية الكريمة مسوغة للقتال وهكذا كان بعد دفع المؤمنين الى الثبات وتحريضهم على الوقوف أمام الأعداء كالأطواد بيان لمعنى القتال لدى المسلمين والغرض الدافع اليه . ومفهوم الآية الكريمة أن غير المسلمين اذا انكسرت شوكتهم وقطعت فتنتهم فلا مسوغ لقتالهم .

و يتصل بالقتال أمر هام جدا هو إحلال الغنيمة للمسلمين يقوون بها على الاستمرار فى قتال المشركين وقطع دابرهم .

و يتصل بأمر الغنيمة تشريع هام جدا هو أخذ الخمس من الغنيمة ليكون لحاجات المسلمين العامة ولأقرباء الرسول عليه صلوات الله وسلامه الذين لا يجوز لهم أن يتناولوا شيئا من مال الصدقة وليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم .

والآية التي شرعت هذا التشريع تستحث المسلمين للامتثال وتعود بهم الى التذكير بالموقعة التي كتب لهم فيها النصر وبحال أعدائهم من قبل وذكر الفرقان هنا كما ذكر من قبل تحريض المؤمنين على القتال ودعوتهم الى الثبات في ميادينه ويتبع القتال الانفاق في سبيل الله . وصورة الانفاق هنا التنازل عن خمس ماغنمه المسلمون من أعدائهم وكلا الأمرين القتال والانفاق من احكام الله وتشريعاته الهامة وقد وضع الحكم الأول في نداء اختفت به المهدات من قبله والمؤكدات من بعده واعتمد التمهيد والتأكيد على تذكير المؤمنين بما تم لهم في التجربة التي مروا بها وعرفوا فيها لطف الله ولسوا عنايته بهم وهنا في الآية الحادية والأربعين يفرض على المؤمنين قدر ليس باليسير يدعونه من الغنيمة لله ولرسوله .

وهنا ايضا تستثار معاني الايمان ثانية وتعود الآيات الكريمة الى التذكير بالموقعة وبحال الكافرين .

يُذَكَّرُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَوْقِعِهِمْ فِي الْمَعْرَكَةِ وَبِمَوْقِعِ أَعْدَائِهِمْ وَمَكَانِ الرُّكْبِ الَّذِينَ نَجَّوْا بِالْقَافِلَةِ ، واهتمام الآية الكريمة بذكر المكان فيه إشارة الى أنه كان للمكان الذى نزل فيه المسلمون والذى نزل فيه أعداؤهم دور فى كسب المعركة وقد دخلت العناية الالهية فنزل المطر فوطأ

للأقدام في أرض المسلمين وكان شرا على الكافرين .

وكان الاجتماع بين المؤمنين وقريش على غير ميعاد ، كان مفاجأة قدرتها رحمة الله لتكون عبرة وليقضي الله امرا كان مفعولا .

وكان مما رتبته لهذا اللقاء رؤيا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في منامه اذ رآهم قلة وتقليل المشركين في أعين المؤمنين قبل القتال وتقليل المؤمنين في أعين المشركين . يقول الزمخشري : « قد قللهم ( المؤمنين ) في أعينهم ( المشركين ) قبل اللقاء ثم كثّرهم بعده ليجترئوا عليهم ثم تفجّوهم الكثرة فيبهتوا وبهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم وذلك قوله تعالى « يرونهم مثلهم رأى العين » .

وهنا يستيقن المؤمنون ان الموقعة قد تمت بتدبير الله وأن نصرهم قد سَدَّدت خطواته قدرةُ الله فليزدادوا إيمانا بالله وتوكلا عليه وهنا يأتي النداء في الآية الخامسة والأربعين شبيها بالنداء الأول يدعو المؤمنين إلى الثبات أمام المشركين « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

ويلي النداء دعوة إلى الطاعة لله ورسوله كما كان الحال في النداء الأول اقترن النداء هنا بالأمر بالطاعة وبالنهى عن التنازع كما كان النهى في النداء الأول عن إعراض كإعراض المشركين « الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » .

واعقب النداء والأمر والنهي تحذير وتنفير من الوقوع في حال المشركين « الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس يصدون عن سبيل الله » .

ويناسب حال بطر المشركين وكبرهم التذكير بتزيين الشيطان لهم أعمالهم فاذا جد الجد تبرأ منهم وتركهم في الميدان يذوقون الموت بسيوف المسلمين .

ويناسب ذكر عون الله لأوليائه ونصرته للذين اتبعوا دينه التذكير بقول المنافقين « غر هؤلاء دينهم » واجابة هؤلاء الموجزة الحاسمة قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » .

ذكرت الآيات الكريمة قبل النداء الأول ضرب الملائكة للاعناق وللبنان وهنا تذكر الآيات الكريمة بالملائكة تتوفى الذين كفروا تضرب وجوههم وأدبارهم وتقول لهم ذوقوا

عذاب الحريق وكان السبب هناك مشاققة الله ورسوله والسبب هنا ما قدمت أيديهم .

وعقدت الآيات الكريمة شها بين مشركي قريش وآل فرعون والذين من قبلهم ووجه الشبه انهم « كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنبيهم » وخلصت الآيات بعد هذه النتيجة الواقعة إلى قانون اجتماعي ومبدأ إنساني هام جدا مآله أن ما يعتري المجتمعات من ارتفاع وهبوط منوط بما يطرأ على نفوسهم من تغيير وتبديل ونموذج لهذه القاعدة ما حل بآل فرعون حين كذبوا بآيات الله أهلكوا واغرقوا وتخلص الآيات الكريمة بعد كل هذا إلى مبدأ اجتماعي آخر يتمم المبدأ الأول ويفصل مجمله ذلك أن شر تغيير يطرأ على النفوس هو ذلك التغيير الذي ينقل النفوس من الايمان الى الكفر وتصبح تلك النفوس التي ملئت كفرا شر مخلوق يدب على وجه الأرض .

ولما كان محور الموضوع قتال هؤلاء اختارت الآيات الكريمة من صفات هؤلاء الذين هم شر الدواب صفة نقض العهد فوصفتهم بأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ثم وضعت لأمثال هؤلاء علاجا شبيها بمعالجة الجرح بالكي قال تعالى « فأما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

ووضعت في الوقت نفسه حكما شرعيا وقاعدة من قواعد الحرب « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » وعادت الآية تطمئن المؤمنين وتسخر بقوى الكافرين ومكرهم وانواع جهودهم وتطمئنهم بانهم المغلوبون

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون »

وهذه الآية قد تحمل بعض الناس على فهم الأمور فهما منحرفا جانبيا ومثل هؤلاء هم الكثرة الغالبة اليوم يحسبون أن المسلمين ينصرون ولوم يعدوا أكبر عدة يستطيعونها ليرهبوا أعداء الله وليس معنى الآية الكريمة إلا أن تكون قوة المسلمين الحربية أعظم قوة في العالم كله الى جانب كل اعداد يدخل في معنى القوة .

قال تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »

وهنا اذا انتهى المسلمون في اعداهم وقوتهم الى الذروة وخاف اعداؤهم بطشهم قالوا الى المهادنة وجنحوا الى المسالمة فحكم الله في مثل هذه الحال ان يقبل المسلمون مصالحتهم ويرضوا بمسالمتهم . يفعل ذلك المسلمون رغبة في الصلح وحقن الدماء وبرهاننا للناس

أجمعين بأنهم لا يحملون في قلوبهم حقدا ولا غيظا ولا حنقا على أهل الشر ودعاة الباطل بل كل ما يرمونه أن يكف هؤلاء عن فنتهم فاذا ألقوا السلاح وأعلنوا الاستسلام ألقى المسلمون سلاحهم ورضوا بصلحهم وهم يفعلون ذلك بعيون مفتحة وقلوب يقظة يعلمون أن دعاة الشر لا عهد لهم ، يضع المسلمون أسلحتهم ويرقبون ما يجيء من هؤلاء فان كانوا يريدون خدعة فالله من ورائهم « وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » وكأن الآية الكريمة تطلب من المؤمنين الحذر ولكنها في الوقت نفسه تطلب من المؤمن أن يكون موقفه موقف المطمئن إلى ربه الواثق بنصره أما المغالاة في الحذر التي تؤدي إلى المبالغة في الظلم بقتل الجماعات وبيث الذعر في النفوس وذلك مما يعانیه الظالم من شدة الخوف والامتلاء بالرعب كل ذلك يأباه الإسلام ولا يرضاه بل على القائد أن يطمئن دون أن يكون غافلا إلى معونة الله وتأييده بنصره وبالمؤمنين الذين ألف الإيمان بين قلوبهم .

وتؤكد الآية هذه الطمأنينة فتنادي النبي مطمئنة له ثانيا بان الله كافيه ( يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ) .

كانت الدعوة إلى الطمأنينة إلى نصر الله عند ذكر جنوح الأعداء إلى السلم وأنهم ربما أرادوا بذلك خدعة . وهذه الدعوة إلى الطمأنينة في مثل هذه الحال تفيد معنى كريماً أن المؤمن يقدم على معانسي النجدة والمروءة غير هياب ولا وجل مطمئناً إلى نصر الله واثقاً بعونه كل ذلك يتم حين يبدو من العدو انكسار وحين يظهر بمظهر الخاضع المستسلم وإن كان يضمر الغدر ويريد الشرف فيظهر أمره وتبدو خيائته وينبذ إليه عهده ، أما في الحال التي يرفع فيها الكفر عقيرته ويبيد من ناجذيه فليس له إلا السيف وهنا تعود الآيات إلى الحض على القتال .

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال »

والتحريض هنا يقترب بحكم يتصل بالحكم الذي كان في مطلع السورة وهو النهي عن الفرار في ساعة الزحف والحكم هنا يفصل الاجمال هناك فعدم الفرار في ساعة الزحف مقيد بمقابلة عدد من المسلمين الصابرين لعدد من المشركين يعدل عشرة أضعافهم ولكن شرط الصبر مفقود على الغالب فكان الحكم مقابلة المسلمين لمثلهم من المشركين هو المشروع .



يتصل بالموضوع كله قاعدة في القتال هامة : لقد كان من هدي الآيات السابقة أن يقبل المسلمون من المشركين ميلهم إلى المهادنة وجنوحهم الى المسالمة وذلك يدل على أن شوكتهم قد خضت وعزتهم قد كسرت فاذا كان هذا حكم الله في مثل هذه الحال فما الحكم حين يكون المشركون في عزة ومنعة وقوة . الحكم في مثل هذه الحال الا يجذوا لدى المسلمين هودة في أمرهم فلا يقبلون فداء من أسراهم بل تضرب أعناقهم .

« ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض »

والاثخان في الأرض المبالغة في القتل حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله .

وجه العتاب الى الرسول عليه الصلاة والسلام وذكرت القاعدة التي يجب أن تتبع واقترن العتاب بالعفو وجاء الحكم بأن ما أخذ من الأسرى حلال طيب مندرج في الآية التي أباحت الغنائم للمسلمين .

ولا يفوت الآيات الكريمة في مثل هذه الحال تطيب قلوب بعض الأسرى ورواية ابن اسحاق تجعل الآية الكريمة في العباس عم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه اذ قال يارسول الله قد كنت مسلما فقال عليه الصلاة والسلام : الله أعلم باسلامك فان يكن كما تقول فإن الله يجزيك .

قال تعالى « يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما اخذ منكم و يغفر لكم »

قال تعالى « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم » والذي يؤخذ من الآيات الكريمة انه كان في الأسرى من هو مؤمن كالعباس وكان فيهم قوم تكلموا بالاسلام ولم يمشوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . قال ابن العربي « ويشبه انهم ارادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين وقد بين الله الحقيقة لرسوله فقال « وان يريدوا خيانتك » .

سارت السورة الكريمة أشواطاً في دعوة المؤمنين الى الثبات في ميادين القتال وتحريضهم على ملاقات الأعداء بقلوب غير هيابة وحطت الرحال عند آيات تبين موالاته

المؤمنين بعضهم لبعض فالمهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض اما الذين آمنوا ولم يهاجروا فليس على المؤمنين من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . ولقد كان يدعو عليه الصلاة والسلام الذين يدخلون في الاسلام من القبائل ان يتحولوا من دارهم الى دار المهاجرين فان فعلوا ذلك كان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم وان ابوا واختاروا دارهم كانوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الفياء والغنيمة نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين .

فالآية دعوة للمسلمين الى الهجرة ليكثر سواد المسلمين و يظهر اجتماعهم واعانة بعضهم لبعض ولم يزل طلب الهجرة مطلوباً إلى أن انتهت بفتح مكة لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد فتح مكة .

واعادت الآيات الكريمة ذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا فهؤلاء في الآية الأولى بعضهم أولياء بعض وفي الآية التي تليها (اولئك هم المؤمنون حقا)

ويتبع هؤلاء في فصلهم الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا من بعد . وهكذا ختمت السورة الكريمة بذكر الهجرة والموالات بين المهاجرين والأنصار وموالات المسلمين بعضهم لبعض .

وذيلت آخر آية بذكر أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم .

وخلاصة ما سبق كله أن الموقعة ذكرت في السورة مرتين مهد للمرة الأولى بعتاب المؤمنين في موضوعين اولهما الأنفال ، وثانيها تردد من بعض المؤمنين في القتال ، ثم ذكر المؤمنين بالمن التي تمت في المعركة ثم كان نتيجة ذلك كله خمس نداءات تطلب الثبات في مواطن القتال وتؤكد ودُّكّر المؤمنون بعد ذلك بحال المشركين من قبل ثم ذكر الغرض من الابتلاء في الدنيا والغاية من قتال المشركين كف الفتنة ودفع الأذى .

وعرضت الآيات الكريمة للغنيمة ثانية وأن خمسها لله ولرسوله وكان الأمر بتقديم خمس الغنيمة تمهيداً لذكر الموقعة ثانية ولنداء يعقب ذكر الموقعة شبيه بالنداءات الأولى وكان

ذكر المشركين ثانية وذكر من صفاتهم الخروج بطراً وتزيين الشيطان لهم أعمالهم وأن شأنهم كشأن آل فرعون وان عاقبتهم الى العذاب وذكر من صفاتهم نقض العهد ووضع للمؤمنين عدة قواعد حربية .

١ - متى ينبذ المؤمنون عهد المشركين ، وامروا هنا امرا جازما باعداد العدة .

٢ - متى يجنح المسلمون للسلم وكيف ؟

٣ - تفصيل قاعدة الثبات وعدم الفرار .

٤ - ارهاب العدو والاثخان في الأرض .

وختمت السورة الكريمة بموالة المؤمنين بعضهم لبعض .

## موضع السورة من كتاب الله

قال الألوسي (١) :

« والظاهر أن وضعها هنا ( يعني وضع سورة الأنفال في مكانها من المصحف ) توفيقى وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيشة كسائر السور والى ذلك ذهب غير واحد .

وذكر الجلال السيوطي ان ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كما هو المرجح في سائر السور بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقد كان يظهر في رأي السيوطي بادية الرأي ان المناسب ايلاء الأعراف بيونس وهود لاشترك كل في اشتغالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصا أن الحديث ورد في فصل السبع الطوال وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ففي فصلها من الأعراف بسورتين فصل للنظير من سائر نظائره هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة الى الأعراف وبراءة »

وهكذا تورط السيوطي ووقع في هذا الذي وقع فيه كله كون السورة ليست بتوقيف من رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وانتقاده لوضعها في مكانها ، ثم يعود فيبين بان وضعها وان كان في الظاهر في غير مكانها ولكنه الصواب ، وبيانه مما فتح الله به عليه

تورط في كل هذا بسبب الحديث التالي :

يقول السيوطي وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضي الله عنه و يروى السيوطي حديثا عن ابن عباس اخرجه الترمذى واخرجه ابن حنبل في المسند عن ابن عباس قال قلت لعثمان : ما حملكم على ان عمدتم الى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المثين فقرنتم بينها ، ولم تكتبوا سطر البسمة ، ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على هذا ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، وكان اذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا .

وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها أو من غيرها ومن اجل ذلك قرنت بينها ولم اكتب البسمة ووضعتها في السبع الطوال . اخرجه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن ورواه الامام احمد والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

و يقول الأستاذ احمد محمد شاكر في تعليقه على هذا الحديث في مسند احمد : (١) « في اسناد هذا الحديث نظر كثير بل هو عندي ضعيف جدا ، بل هو حديث لا اصل له يدور اسناده في كل الروايات على « يزيد الفارسي » الذي رواه عن ابن عباس ، تفرد به عنه عوف ابن ابي جميلة الأعرابي ، وهو ثقة ، فقد رواه ابو داود (٢) والترمذي (٣) وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه الا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، رواه ايضا ابن ابي داود في كتاب المصاحف (٤) بثلاثة اسانيد والحاكم في المستدرک (٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٦) كلهم من طريق عوف عن يزيد الفارسي .

و يزيد الفارسي هذا اختلف فيه أهو يزيد بن هرمز ام غيره قال البخاري في

(١) ٣٩٩/١ (٢) ٢٨٨ - ٢٨٧ : ١ (٣) ١١٣ - ٤ (٤) ٣٢ - ٣١ (٥) ٢ - ٢٢١ ، ٤٢ : ٢ (٦)

التاريخ الكبير<sup>(١)</sup> قال لي علي : « قال عبد الرحمن يزيد الفارسي هو ابن هرمز قال فذكرته ليحيى فلم يعرفه قال وكان يكون مع الأمراء »

وفي تهذيب التهذيب<sup>(٢)</sup> : « قال ابن ابي حاتم : اختلفوا هل هو - يعني ابن هرمز - يزيد الفارسي أو غيره فقال ابن مهدي وأحمد هو ابن هرمز وأنكر يحيى ابن سعيد القطان أن يكونا واحداً وسمعت أبي يقول : يزيد ابن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسي هو سواه »

يقول احمد محمد شاكر عليه رحمة الله « فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً حتى شبه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو غيره ويذكره البخاري في الضعفاء .

يقول احمد محمد شاكر فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به وفي الحديث تشكيك في معرفة سور القرآن ، والثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور ، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه وحاشاه من ذلك .

فلا علينا اذا قلنا انه حديث ( لا اصل له ) تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث :

قال السيوطي في تدريب الراوي في الكلام على امارات الحديث الموضوع « ان يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية ، او السنة المتواترة او الاجماع القطعي »

وقال الحافظ بن حجر في النخبة : « ومنها ما يؤخذ من حال المروي كأن يكون مناقضاً لنص القرآن او السنة المتواترة او الاجماع القطعي »

وقال الخطيب<sup>(٣)</sup> « ولا يقبل خبر الواحد في منافية حكم العقل . وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة المعلومة ، والفعل الجاري مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به .

يقول احمد محمد شاكر : وكثيراً ما يضعف أئمة الحديث راوياً لانفراده برواية حديث منكر يخالف المعلوم من الدين بالضرورة أو يخالف المشهور من الروايات فأولى ان تضعف يزيد بن فارس هذا بروايته هذا الحديث منفرداً الى ان البخاري ذكره في الضعفاء ،

(١) ٣٦٧/٤/٢ (٢) ١١ : ٣٦٩ (٣) في الكفاية ٤٣٢

و ينقل عن يحيى القطان أنه كان يكون مع الأمراء ا . هـ  
و يؤيد ما ذهب اليه الأستاذ احمد محمد شاكر عليه رحمة الله ما ذكره ابن حجر في  
التهذيب قال : يزيد بن هرمز قيل إنه يزيد الفارسي والصحيح أنه غيره .

و يقول في التقريب يزيد بن هرمز المدني مولى بني ليث وهو غير زيد الفارسي على  
الصحيح وهو والد عبد الله ثقة من الثالثة .

و يترجم ابن حجر ليزيد الفارسي البصري في التقريب أيضا و يقول عنه مقبول من  
الرابعة . ( د - ت - س )

و يقول ابن حجر في تهذيب التهذيب :

يزيد الفارسي البصري روى عن ابن عباس وحكى عن عبيد الله بن زياد والحجاج  
ابن يوسف في أمر المصاحف وعنه مالك بن دينار وعبد الله بن فيروز وعون بن ربيعة  
الثقفي وعوف الأعرابي .

قال بعضهم إنه هو يزيد بن هرمز والصحيح أنه غيره قال علي بن المديني ذكرت  
ليحيى بن سعيد قول بن مهدي ابن يزيد الفارسي هو ابن هرمز فلم يعرفه وقال كان يقول  
عن الامراء قال ابن حجر وقال أبو هلال ثنا مالك بن دينار عن يزيد الفارسي كاتب  
عبيد الله بن زياد .

وقال ابو حاتم لا بأس به . وعبارة ابي حاتم في كتاب الجرح والتعديل هي ما يلي :  
وكذلك صاحب ابن عباس ( و يعني به يزيد الفارسي لا بأس به )

و ينقل الأستاذ أحمد شاكر ما ذكره السيد محمد رشيد رضا في تفسيره موجزا ونحن  
نجد من الفائدة ان ننقل كل ما نستطيع نقله عن هذا الحديث . قال السيد رشيد رضا في  
تفسيره (١) : ولأجل هذه الرواية ( يعني الحديث الذي سبق ذكر ما ذهب اليه البيهقي إلى  
أن ترتيب جميع السور توقيفي عن النبي صلى الله عليه وسلم الا الأنفال وبراءة وواقفه  
السيوطي )

---

(١) : ٩ ص ٥٨٥

و يرد السيد رشيد رضا هذا القول بأنه لا يعقل أن يرتب النبي صلى الله عليه وسلم جميع السور إلا الأنفال وبراءة .

وقد صح عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قرآته ؟

يقول « وهذا الحديث قال الترمذي حسن لا نعرفه الا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس و يزيد الفارسي هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره والصحيح انه غيره روى عن ابن عباس وحكي عن عبيد الله بن زياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف في أمر المصاحف وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه (١) وقال أبو حاتم لا بأس به . ا . هـ ملخصا من تهذيب التهذيب .

يقول السيد رشيد رضا فثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر .

ويقول الأستاذ محمد علي سلامة رحمه الله من افاضل علماء الأزهر في كتابه (٢) :  
« ان هذا الحديث غير صحيح لأن الترمذي الذي هو أحد من خرجه قال فيه انه حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد الفارسي عن ابن عباس و يزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديث الذي انفرد به في ترتيب القرآن .

يقول الشيخ احمد محمد شاكر بعد ان نقل عن السيد رشيد رضا ما سبق : وهذا يكاد يوافق ما ذهبنا اليه فلا عبرة بعد هذا كله في هذا الموضوع بتحسين الترمذي ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبي وإنما العبرة للحجة والدليل ، والحمد لله على التوفيق .

وبعد هذا البحث الذي لا ندعي له الكمال والاستيفاء نريد أن نخلص الى ان الذي نؤمن به من غير ريب أن الذي بين دفتي المصحف كتاب الله جل شأنه أنزله على

(١) : الذي جاء في تهذيب التهذيب انه لا يعرفه هو يحيى بن سعيد القطان كما نقلنا وليس يحيى بن معين

و يبدو ان السيد رشيد قد سهل في هذا .

(٢) : منهج الفرقان في علوم القرآن ص ١٣٦

نسبه لا مدخل للبشر في صفة من أوصافه ولا في حرف من حروفه ولا مجال للاجتهاد في ترتيب آياته ولا في ترتيب سورة بحيث أثبتت البسمة فانما أثبتت بأمر الله وحيث حذفت فانما وقع ذلك بأمر الله . وإنما الريب في مثل الرواية التي سبق ذكرها التي تحيط بها الشكوك وتحفها الأوهام ومن عجب أن ينطلي آخر مثل هذه الرواية على بعض العلماء كما مر لدى البيهقي والسيوطي ولعلها أخذت بتحسين من حسنها وتصحيح من صححها والعصمة من الخطأ لله وحده . والذي حسنها هو الترمذي ولكنه يشير الى ضعفها بقوله ، لا نعرفه الا من حديث يزيد الفارسي . والذي صححها هو الحاكم والذهبي .

والبحث نموذج حسن لما للأحاديث الضعيفة والواهية من أثر سيء في اسس الدين ومعانيه .

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول »

بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى يسألونك وجاء ما بعدها جوابا عن السؤال الذي توجه به الأصحاب رضوانه الله عليهم الى النبي صلى الله عليه وسلم بشأن الأنفال .

والأسئلة التي وجهت الى الرسول عليه صلوات الله وسلامه في القرآن مختلفة الأساليب حدد في بعضها المسؤل عنه وحددت جهة السؤال ولم يحدد شيء من ذلك في بعضها الآخر فالسؤال عن الشهر الحرام قتال فيه حدد فيه المسؤل عنه وبينت وجهته اما قوله تعالى يسألونك عن الخمر ، يسألونك عن اليتامى ، يسألونك عن المحيض فالمسؤل عنه في كل هذه الأسئلة غير محدد ولكن الجواب يحدده وبيئه من هذا النوع السؤال الذي نحن بصدد « يسألونك عن الأنفال » اذ يحتمل أن يكون سؤالاً عن الأنفال من جهة حل أكلها وجواز الانتفاع بها ومحتمل أن يكون سؤالاً عن كيفية قسمتها ومن ترجع اليه قسمتها ، ولكن الجواب الذي أتى من بعد يدل على المقصود ويوضح ان السؤال عنها من الجهة الثانية لا من الجهة الأولى وذلك لأن الجواب بكونها لله والرسول لا يدل على حلها ولا على حرمتها ولا يستفاد منه الحكم عليها بشيء من ذلك فلا يصلح أن يكون هذا القول جواباً لسؤال ما هو حكمها .

ثم ان قوله تعالى بعد ما سبق « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » يشعر بانه قد وقع منهم ما احتاجوا معه الى التنبيه إلى اصلاح ذات



بينهم والى تذكيرهم بتقوى الله وطاعته . وليس من شك في أن السؤال عن حل الأنفال أو حرمتها ليس مما ينافي التقوى ولا يؤدي السؤال عن ذلك الى الخروج من صلاح ذات البين أو الخروج من طاعة الله ورسوله بل لعله على عكس ذلك يؤكد التقوى وجمع الكلمة والحرص على الطاعة .

فالأمر بالتقوى وصلاح ذات البين واطاعة الله ورسوله لا يصلح ان يقع جوابا عن سؤال الحل والحرمة .

ويؤيد ما ذهبنا اليه الروايات التي تشير الى الاختلاف الذى وقع بين المسلمين في غنائم بدر .

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول »

قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : اختلف أهل التأويل في معنى الأنفال التي ذكرها الله في هذا الموضوع فقال بعضهم : هي الغنائم ، وقالوا معنى الكلام : يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها انت واصحابك يوم بدر ، لمن هي ؟ فقل هي لله ورسوله . ويسرد ابن جرير الطبري أسانيدَهُ الى عكرمة ومجاهد والضحاك وابن عباس وقتادة وعطاء بأن الأنفال هي الغنائم .

يقول الطبري :

وقال آخرون هي أنفال السرايا و يذكر سندا بذلك عن صالح بن حي انه قال بلغني أن الأنفال هي السرايا ثم يقول : وقال آخرون : ما شذ من المشركين الى المسلمين من عبد أو دابة وما أشبه ذلك و يروى هذا المعنى باسناد . وقال آخرون : النفل الخمس الذى جعله الله لأهل الخمس و يروى هذا القول باسنادِهِ الى مجاهد .

ثم يقول الطبري :

وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى الأنفال قول من قال : هي زيادات يزيدها الامام بعض الجيش أو جميعهم إما من سهمه على حقوقهم من القسمة واما ما وصل اليه بالنفل او ببعض أهبابه ، ترغيبا له وتحريضا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين ، أو صلاح أحد الفريقين وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من انه

الفرس والدرع وبخو ذلك ويدخل فيه ما قاله عطاء من ان ذلك ما عاد من المشركين الى المسلمين من عبد او فرس لأن ذلك امره الى الامام اذا لم يكن ما وصلوا اليه بغلبة وقهر، يدخل ما فيه اصلاح اهل الإسلام وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقهر.

واما قلنا اولى الأقوال بالصواب لأن النفل في كلام العرب انما هو الزيادة على الشيء يقال عنه نفلك كذا وانفلتت اذا زدتك . والأنفال جمع نفل ومنه قول لبيد ربيعة  
ان تقوى ربنا خير نفل      وبادن الله ريثي وعجل  
الى أن يقول .

الغنيمة هي ما أفاء الله على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر نفل منه منفل أو لم ينفل .

والنفل هو ما أعطيه المرء على البلاء والغناء عن الجيش على غير قسمة  
وينقل ابن كثير الأقوال التي ذكرها ابن جرير:  
قول ابن كثير في النفل : -

١ - فيقول : الأنفال : المغانم أو الغنائم .

٢ - يذكر اسنادا ويقول : هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينقله الامام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر الى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل .

٣ - القول الثالث يرويه ابن كثير عن مجاهد انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت يسألونك عن الأنفال .

٤ - القول الرابع عن عطاء بن أبي رباح ( يسألونك عن الأنفال ) قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابة او عبد او أمة أو متاع فهو نفل للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء .  
وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالضيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

٥ - وقال آخرون هي انفال السرايا عن علي بن صالح بن حيي قال بلغني في قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال » قال السرايا ومعنى هذا ما ينقله الامام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش .

## قول ابي عبيد في الأنفال : -

ويقول ابن كثير: قال أبو عبيد: والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا ان الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ومعنى الأنفال في كلام العرب كل احسان فعله فاعل تفضيلا من غير أن يجب ذلك عليه فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصهم الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل .

يقول ابن كثير: قلت شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت خسا لم يعطهن احد قبلي الحديث الى ان يقول : وأحلت لي الغنائم ولم يحل لأحد قبلي » .

ثم قال ابو عبيد : .ولهذا سمي ما جعل الامام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الاسلام والنكابة في العدو. (١) .

## قول الراغب

وقال الراغب : النفل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبادة عنه لاختلاف الاعتبار فإنه اذا اعتبر بكونه مظفورا به يقال غنيمة ، واذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينها من حيث العموم والخصوص فقال الغنيمة كل ما حصل مستغنا بتعب كان او يغير تعب وباستحقاق او بغير استحقاق وقبل الظفر كان او بعده والنفل ما يحصل للانسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفيء ، وقيل ما يحصل من المتاع قبل ان تقسم الغنائم . وعلى هذا حلوا قوله (يسألونك عن الأنفال) .

---

(١) جاء في الأعلام : القاسم بن سلام المروى الأزدي الحراعي ابو عبيد ( ١٥٧ - ٢٢٤ ) هـ من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه ، من أهل هراة ولد وتعلم بها ، وكان مؤدبا ورحل الى بغداد ، فولى القضاء بطرسوس ثمانى عشرة سنة - ٥٠٠ هـ وحج فتوفى بمكة .

## خلاصة الأقوال

من كل ما سبق يتلخص أن العلماء ذهبوا في معنى الأنفال التي وردت في هذه السورة مذاهب شتى يمكن ردها إلى أقوال ثلاثة :

القول الأول: الأنفال الغنائم وقد روي هذا عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وطائفة من الصحابة وهو قول جمهور العلماء ، قال البخاري في صحيحه قال ابن عباس الأنفال المغنم ويؤيده ما ورد في سبب نزول الآية من اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في غنائم بدر ويؤيد هذا اللغة كما ذكر الراغب أن النفل هو الغنيمة بعينها .  
والقول الثاني: هو الذي اختاره ابن جرير زيادة يزيدها الامام لفرد من أفراد الجيش أو لفرقة من الجيش لحسن بلائهم ولعظم غنائمهم وهذه الزيادة إضافة الى نصيب كل من الغنيمة العامة ، وهذه الزيادة أهي من الخمس الذي لرسول الله عليه صلوات الله أم هي من اصل الغنيمة قبل أن تخمس ام بعدها في كل هذا اختلاف العلماء سنعرض لهذه المباحث فيما يلي ان شاء الله .

و يدخل في هذا النوع ما يسموه بأنفال السرايا وهي ما ذكرها ابن كثير في القسم الخامس في تقسيمه .

ويؤيد هذا القول ، كما ذكر ابن كثير ، رواية سعد رضي الله عنه وسيأتي ذكرها .

القول الثالث : المراد بالأنفال في الآية الكريمة ما شذ من المشركين الى المسلمين من غير قتال وهذا هو الذي كما ذكر ابن كثير . ويبدو أن هذا القول بعيد لأن حكم الفيء مخالف لحكم الغنيمة ومدار الحديث ههنا على الغنائم وتوزعها أما حكم الفيء فقد جاء في سورة الحشر في قوله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

قال الأستاذ الشنقيطي (١) أكثر العلماء فرقوا بين الفيء والغنيمة فقالوا الفيء ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر كفيء بني النضير الذين نزلوا

(١) : في أضواء البيان (ج ٢ ص ٣٥٢) .

على حكم النبي صلى الله عليه وسلم لشدة الرعب الذى ألقاه الله في قلوبهم ورضي لهم  
صلى الله عليه وسلم أن يرتحلوا بما يحملون على الأبل غير السلاح .

وأما الغنيمة فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر .

وهذا التفریق يفهم من قوله « واعلموا انما غنمتم من شيء فإن الله خمسه وللرسول  
ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » مع قوله فما أوجفتم عليه من خيل ولا  
ركاب فإن قوله تعالى « فما أوجفتم عليه » الآية ظاهر في أنه يراد به الفرق بين ما أوجفوا  
عليه وما لم يوجفوا عليه . . .

وآية ( واعلموا انما غنمتم ) ذكر فيها حكم الغنيمة وآية ( وما أفاء الله على رسوله ) ذكر  
فيها حكم الفبي واشير لوجه الفرق بين المسألتين بقوله :  
« فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » اى فكيف يكون غنيمة لكم وأنتم لم تتعبوا  
فيه ولم تنتزعه بالقوة من مالكه » .

يقول الاستاذ الشنقيطي : وبعض العلماء يسوى بين الغنيمة والفبيء و يعزو هذا القول  
إلى قتادة ، ويقع قتادة رحمه الله بناء على تسويته هذه في إشكال الجمع بين الآيتين آية  
الأنفال وآية الحشر فلا يجد مخلصاً مما وقع فيه الا قوله إن آية الأنفال ناسخة لآية ( وما أفاء  
الله على رسوله ) .

يقول الشيخ الشنقيطي وهذا القول الذي ذهب إليه رحمه الله باطل بلا  
شك ... ١ هـ .

مما سبق يبدو جلياً استبعاد كون الأنفال ههنا بمعنى الفبيء و يؤيد ذلك كون آية  
الفبيء نزلت بعد وقعة بدر بشأن غنائم حصل عليها المسلمون بلا قتال وليس موضوع الفبيء  
وارداً ههنا مجال ولذلك لا نجد شيئاً من الروايات التى تتعلق بسبب نزول الآية الكريمة  
بذكر هذا المعنى .

وعلى هذا فالمراد بالأنفال دائرتين أمرين إما الغنائم مطلقا وإما الزيادة التي تعطى لمن لهم غناء كبير وبلاء حسن في الموقعة والأمران وإن بدا أنها موضوعان ولكن الواقع أنها مستداخلان يؤثر كل منهما في الآخر فالزيادة هي في الأصل جزء من الغنيمة فإذا عظم مقدارها صغر نصيب كل فرد مما بقي منها إلا أن تكون الزيادة من الخمس وهو رأى مرجوح في نظرها .

روى مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير باب الأنفال قال :

١ - حدثنا قتيبة بن سعيد (١) حدثنا أبو عوانة (٢) عن سماك عن مصعب (٣) ابن سعد عن أبيه قال أخذ أبي من الخمس سيفاً فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال هب لي هذا فأبى فأنزل الله عز وجل « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » .

٢ - حدثنا محمد بن المنثى وابن بشار (واللفظ لابن المنثى) قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : نزلت في أربع آيات (٤) أصبغت سيفاً فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم « ضعه من حيث أخذته » ثم قام فقال : نفلني يا رسول الله فقال ضعه فقام فقال يا رسول الله نفلني أجعل كمن لا غناء له فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ضعه من حيث أخذته » قال فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) .

٣ - حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب ، قالا : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا زهير حدثنا سماك بن حرب حدثني مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال : حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت : زعمت أن الله وصاك بالديك وأنا أمك وأنا أمرك بهذا .

قال : مكشفت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها

(١) : ثقة ثبت من العاشرة

(٢) : ثقة ثبت من السابعة

(٣) : كوفي صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بأخرة فكان يلحن (من الرابع)

(٤) : قال الشارح : لم يذكر هنا من الأربع الا هذه الواحدة . وقد ذكر مسلم الأربع بعد هذا في

كتاب الفضائل وهي : بر الوالدين ، وتحريم الخمر ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم ، وآية الأنفال .

فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهدك على أن تشرك بي ( ٣١ لقمان ١٥ ) وفيها : وصاحبها في الدنيا معروفا .

قال : وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فاذا فيها سيف فأخذته فأتيت به الرسول عليه الصلاة والسلام فقلت : نفلني هذا السيف فأنا من قد علمت حاله فقال « رده من حيث أخذته » فانطلقت حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتنى نفسي فرجعت اليه فقلت : أعطني قال : فأنزل الله عز وجل : يسألونك عن الأنفال ... الحديث ( ١ )

والحديث قد رواه الترمذي قال ( ج ٨ ص ٤٦٦ ) :  
حدثنا أبو كريب ( ٢ ) ، أخبرنا أبو بكر بن عياش ( ٣ ) ( مات سنة ١٩٤ ) وقد قارب المائة ) عن عاصم بن بهدلة ( ٤ ) عن مصعب بن سعد ( ٥ ) عن أبيه قال : « لما كان يوم بدر جثت بسيف فقلت يا رسول الله ان الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف ، فقال هذا ليس لي ولا لك فقلت عسى ان يعطى هذا من لا يبلي بلائي فجاءني الرسول فقال إنك سألتني وليس لي وانه قد صار لي وهولك قال فنزلت يسألونك عن الأنفال .. الآية » .

وفي هذه الرواية عاصم بن بهدلة يروي عن مصعب بن سعد فهي رواية تقوي الرواية السابقة رواية سماك . والحديث رواه أيضا أبو داود في سننه عن أبي بكر عن عاصم عن مصعب بن سعد عن أبيه .

يقول ابن كثير : رواه ابو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش

( ١ ) : صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٧

( ٢ ) : محمد بن العلاء بن كريب ابو كريب ثقة حافظ من العاشرة

( ٣ ) : ثقة عابد الا انه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح ( من السابعة )

( ٤ ) : عاصم بن بهدلة : قال عنه الحافظ بن حجر في التقریب : عاصم بن بهدلة الكوفي من السادسة

صدوق له أوهام ، حجة في القراءة وحديثه في الصحيحين مقرون ( ع )

( ٥ ) : ابو زرارة المدني ثقة من الثالثة ارسل عن عكرمة ابن أبي جهل ( ع )

به وقال الترمذي حسن صحيح وهكذا رواه ابو داود الطيالسي اخبرنا شعبة اخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت في أربع آيات ... الحديث .

سبب آخر في نزول الآية :

يقول ابن كثير «سبب آخر في نزول الآية»

قال الامام احمد حدثنا محمد بن سلمة عن ابن اسحاق (١) عن عبد الرحمن (٢) عن سليمان بن موسى (٣) عن مكحول (٤) عن أبي أمامة قال سألت عبادة عن الأنفال فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء يقول عن سواء .

وقال الامام احمد أيضا حدثنا معاوية عن عمر (٥) واخبرنا أبو اسحاق (٦) عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه واحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى اذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها

(١) : محمد بن اسحاق : صدوق يدلس ، امام المغازي ورمي بالتشيع والقدر مات سنة خمسين ومائة  
خت ٤ من صغار الخامسة )

(٢) : عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش : ابو الحارث المدني ، صدوق له اوهام من السابعة  
مات سنة ثلاث واربعين / بخ ٤

(٣) : سليمان بن موسى : الأموي الدمشقي الأشدق صدوق ، فقيه في حديثه بعض لين وخلط قبل موته  
بقليل من الخامسة / م ٤

(٤) : مكحول الشامي : ابو عبد الله ثقة كثير الارسال مشهور من الخامسة مات سنة بضع عشرة  
ومائة / م ٤

(٥) : ثقة من صغار التاسعة

(٦) : ابو اسحاق الفزاري ابراهيم بن محمد بن الحارث ثقة حافظ من الثامنة



فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم وقال الذين أهدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا ان يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت ( يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ) فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغار في العدو نفل الربع فإذا أقبل راجعا نفل الثلث وكان يكره الأنفال وروى الترمذي وابن ماجه من حديث سفیان الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه قال الترمذي هذا حديث صحيح ، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدرکه من حديث عبد الرحمن بن الحارث وقال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقال صاحب مجمع الزوائد رجال الطريقتين ثقات هكذا قال صاحب مجمع الزوائد ولكننا نجد في كلا السنتين رجلين وُصفا بالضعف أولهما سليمان بن موسى وقد قال عنه ابن حجر صدوق فقيه في حديثه بعض لين وخط قبل موته بقليل .

والثاني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش وقد قال فيه ابن حجر صدوق له أوهام وهذا التعبير أول درجات الجرح وهو يجعل الحديث ضعيفا .

والذي لا يطمئن اليه القلب في الرواية الثانية ما جاء فيها : ( قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ) فكيف يمكن أن يقول بعض أصحاب رسول الله مثل هذا القول : الغنيمة لنا لا يشركنا فيها مشارك وكيف يعقل أن يرى الذين جمعوا الغنائم أنهم أحق بالغنائم من الذين انطلقوا في أثر العدو يهزمون و يقتلون وكيف يرى أحد من هذين الفريقين بأنه أحق بالغنيمة من الذين أهدقوا برسول الله كيلا يصيب العدو منه غرة الواقع أن المتأمل يرى في الرواية فجاجة في الرأي لا تنسب إلى اصحاب رسول الله ولكنها تنسب إلى أحد الرواة الذي أراد أن يروي بالمعنى فأخطأ وعرض القصة على مستواه الذهني .

يقول المفسر جمال الدين القاسمي وقع عند الزمخشري ان المسلمين اختلفوا في غنائم بدر، لمن الحكم فيها للمهاجرين أم للأَنْصار أم لهم جميعا؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها

الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر بالزنجشري أبو السعود ، في سوجه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل ممل .

ولأدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها في صحاحهم ولا سننهم ، بل ولا أصحاب السير ، كإسحاق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين ان يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوها ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ولكن هو الرأي ( قاتله الله ) ونبذ كتب السنة ، والتقليد البحت ، الذي لا يهتم صاحبه بمقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ، ولا فحصها بالعقل . يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقاداً لها ، مصداقاً ما ينطق به فم غثا كان أو سمينا . اللهم نور بصيرتنا بفضلك .

والقاسمي يبدأ تفسيره الآية الكريمة بالروایتين السابقتين ولا يعلق عليها بشيء وقد جاء في الرواية قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب . ومن عجب أن ينكر القاسمي على الزنجشري قوله إن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر لمن الحكم فيها ويقول هل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ويتنازعوها ولايتها والرسول بين أظهرهم ولا ينكر على ما جاء في الرواية السابقة شيئاً ونحن نستبعد جدا هذا التصوير الذي صورته الرواية السابقة ونذهب كما ذكرنا إلى أن الراوي قد أخطأه التصوير الدقيق والوصف الصادق كما نلاحظ على الرواية التي ذكرها الحاكم الأمور التالية :

١ - اللفظ الذي ذكره الحاكم في المستدرک « كان الناس على ثلاث منازل ثلث يقاتل العدو وثلث يجمع المتاع و يأخذ الأسارى وثلث عند الخيمة يحرس رسول الله عليه الصلاة والسلام وهذه الصورة توهم أن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كان ملازماً لخيمته والرجال محققون به يخافون أن يصيب القوم منه غرة ولقد جاء في الروايات الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يسوي الصفوف بيده الشريفة ويحرض المسلمين على القتال ويقول لهم : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ويقول : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل مقبل غير مدبر إلا كانت له الجنة وعند البخاري فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر . يقول ابن حجر « وفي رواية أيوب عن عكرمة عن

ابن عباس قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدروع ويقول سيهزم الجمع « وقول علي رضي الله عنه « كنا اذا اشتد البأس واحمر الحدق اتقينا برسول الله عليه صلوات الله وسلامه فما يكون رجل اقرب إلى العدو منه » .

٢ - واللفظ الذي عند الحاكم في المستدرک :

« فأنترعها الله من ايدينا فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه على السواء لم يكن فيه يومئذ خمس فكان فيه تقوى الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وصلاح ذات البين » وقوله لم يكن فيه يومئذ خمس يعارض ما جاء في مسلم يقول ابن كثير: وفيما تقدم من كلامه ( كلام ابي عبيد الله القاسم بن سلام ) وهو قوله ان غنائم بدر لم تخمس نظرو ويرد عليه حديث علي بن ابي طالب في شارفيه اللذين حصلوا له من الخمس يوم بدر .

٣ - وقوله : فقسمه على السواء فيه نظر أيضا ففي الرواية الثانية ( عن فواق ) ولها تفسيران ذكرهما ابن الأثير وصاحب لسان العرب قال في اللسان عن فواق أن قسمها في قدر فواق ناقة وهو قدر ما بين الحلبتين من الراحة تضم فاؤه وتفتح وقيل أراد التفضيل في القسمة كأنه جعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائمهم يومئذ .

الرواية الراجعة في نظرنا :

وللحاكم في مستدركه والنسائي وابن جرير وابن مردويه من طرق وأبي داود واسناد ابي داود (١) حدثنا وهب بن بقية قال انا خالد عن داود عن عكرمة عن ابن عباس واسناد الحاكم حدثنا ابوبكر احمد بن اسحاق ثنا ابوالمثنى ثنا مسدد ثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود بن ابي هند يحدث عن عكرمة عن ابن عباس قال : « لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات فلما كانت المغائم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فانا كنا رداء لكم لو انكشفتم لفتم الينا فتنازعوا فأنزل الله تعالى ( يسألونك عن الأنفال إلى قوله واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ) .

هذه الرواية ترجح على الرواية السابقة لبقاء سندها وخلو رجاله من كل مطعن فرجال أبي داود أولهم وهب بن بقية ويقول عنه ابن حجر ثقة من العاشرة وهو من رجال

(١) : ج ٣ ص ١٠٢

مسلم وابي داود والنسائي ، مات سنة ٢٣٩ وثنانيم خالد وهو خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد الطحان الواسطي قال بشأنه عبد الله بن أحمد بن حنبل كان خالد الطحان ثقة وقال ابو حاتم ثقة صحيح الحديث ( مات سنة اثنتين وثمانين ومائة وكان مولده سنة عشر ومائة ) وهو من رجال الكتب الستة وداود ابن أبي هند القشيري البصري يقول عنه ابن حجر ثقة متقن ( كان يهيم بأخيه من الخامسة مات سنة اربعين ومائة ) وروى عنه البخاري تعليقا وروى عنه مسلم وأصحاب الكتب الأربعة وقد قال عبد الله بن احمد بن حنبل عن أبيه هو ثقة ثقة وسئل عنه مرة أخرى فقال مثل داود يسأل عنه وعكرمة ابن عبد الله مولى ابن عباس أصله بربري ثقة ثبت عالم بالتفسير ( لم يثبت تكذيبه عن ابن عمرو ولا يثبت عنه بدعة ) روى له أصحاب الكتب الستة ورجال الحاكم مسدد بن فرهد ثقة حافظ روى له البخاري ومسلم وابو داود والنسائي والمعتز بن سليمان ثقة روى له أصحاب الكتب الستة جميعا .

وهذا الحديث صحيح كما قال الحاكم وكما قال الذهبي وإسناده على شرط البخاري وإسناد ابي داود نقى حال من الشوائب أيضا وعلى هذا فالحديث على غاية من الصحة . ثم إن الصورة التي تعطيها هذه الرواية للخلاف الذي وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم لا مطمئن عليها إذ تذكر الرواية أن الرسول عليه صلوات الله دفع الشبان إلى الإقدام وقال من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا وعند الحاكم من فعل كذا وكذا أو أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا وهذا دفع للشبان معقول مألوف يجدون فيه منطلقا لطاقتهم وبجالا للتعبير عن الحيوية التي تشتمل عليها أجسامهم الفتية القوية والأرجحية التي تؤججها حماسة الشباب في نفوسهم .

بل إن إهمال الشبان في مثل هذه المواطن وعدم الاستفادة من قوتهم ورشاقتهم واستعدادهم للمغامرة يفوت غرضين أولهما فردي والثاني جماعي ويضيع فرصتين هامتين أولهما الانتفاع بما وهب الشباب مما يعود على غرض القتال نفسه ، فقد يكون سببا للنصر إقدام شاب كأن يقترب من جيش العدو ويكتشف ثغرة من الثغرات لديهم أو يقترب فينسف حصنا أو بارجة حربية ، وما تزال هذه الروح في الحروب الحديثة لها مكانتها وأثرها في إحراز النصر ، والثانية الدربة التي يكسبها هؤلاء في أعمالهم هذه وروح

المغامرة التي تنمولديهم في سبيل نصره جيشهم .

والمؤلم إيلاماً شديداً أن هذه الروح في هذه الأيام قد انتقلت الى اعدائنا وضمرت ضموراً شديداً في أبناء المسلمين .

وهذا المعنى هو الذي أيقظه محمد عليه الصلاة والسلام في نفوس شبان الصحابة ، دفعهم صلوات الله وسلامه عليه الى المغامرة وإلى القيام بأعمال قد تكون سبيل الفوز والغلبة وليس من شك بأن مثل هذه الأعمال يجب أن تكافأ ، ولا بد من أن يشعر الفدائي بأنه قد حاز رضا القائد وإعجابه وكانت علامة الرضا ما منحهم القائد عليه صلوات الله من زيادات ليست لأحد غيرهم ، إن الزيادة ههنا ليست ذات قيمة مادية فحسب ولكنها لها معنى أكبر من قيمتها المادية فالسيف الذي أخذه سعد بإذن رسول الله عليه صلوات الله ليس سيفاً فحسب ولكنه سيف له تاريخه وله ما يحيط به من معان .

إن الرواية تجمل ذكر الأفعال التي قام بها الشبان ولا تذكر تفصيلاً لها ويمكن أن يقدر الذهن نوع تلك الأعمال وخطرها في فوز الجيش الإسلامي أنها لم تكن أموراً اعتدلية ولا قيمة لها ولكنها كانت من وضع القائد الحكيم عليه صلوات الله واكتفى الرواة بأن يقولوا من فعل كذا وكذا أو أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا وإني لأقدر أنها كانت أعمالاً لها وزنها ولها ثقلها وربما كانت عاملاً هاماً من عوامل النصر .

وتقول الرواية فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات والرواية على إجمالها تتحدث عن طبيعة الشبان وطبيعة الشيوخ وطبيعة الشبان الخفة والنفرة والإسراع وطبيعة الشيوخ الثقائل والثبات وقد قام كل بواجبه .

ثم كان التنافس بين الشيوخ والشبان وهو أمر من واقع الحياة أن ينفس الشيوخ على الشبان بما وعدهم رسول الله صلوات الله عليه جزاءً على مقدرتهم الفائقة على الإقدام على أمور يعجز عنها الشيوخ وهنالك رواية يذكرها ابن كثير يأتي فيها على ذكر سعد بن عباد أنه قال : يا رسول الله إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وانه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قننا هذا المقام محافظة عليه مخافة أن يأتوك من ورائك فتشاجروا ونزل القرآن .

لعل الذي نفس على الشبان بمكافأتهم هو سعد بن عبادة رضي الله عنه وحده ولعل معه ثان وثالث ولعل مناقشة هادئة وقعت بين اثنين أحدهما يمثل الشيوخ وآخر يمثل الشبان أما ما تصوره الرواية الأولى من أن الأصحاب رضوان الله عليهم انقسموا إلى ثلاث فرق فذلك ما ياباه الفهم الصحيح والذوق السليم .

لقد كان الشبان على حق في مطالبتهم بما وعدهم رسول الله عليه صلوات الله ولا تشرب عليهم في أن يدركوا ثمرة ما قدموا من جهد فائق لا يقوى عليه كثيرون ولعل دافعهم المعنى قبل المادة كما ذكرنا وللشيخ بعض العذر في طلبهم المساواة بالشبان فلقد كانوا الردء وكانوا الذين هموا بظهور الشبان وفي مثل هذه الحالة يحق للذين هموا بالظهور أن يكونوا شركاء في الغنيمة .

قال صاحب كتاب عون المعبود عند شرح الرواية التي جاء فيها ( قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواء ) : « فيه دليل على أنه إذا انفردت من الجيش قطعة فنمت شيئاً كانت الغنيمة للجميع قال ابن عبد البر لا يختلف الفقهاء في ذلك إذا خرج الجيش جميعه ثم انفردت منه قطعة » . انتهى قول ابن عبد البر ، وليس المراد الجيش القاعد في بلاد الاسلام فإنه لا يشارك الجيش الخارج إلى بلاد العدو . وقال ابن دقيق العيد إن المنقطع عن الجيش الذي فيه الإمام ينفرد بما يغنمه قال وإنما قالوا هو بمشاركة الجيش لهم إذا كانوا قريباً منهم يلحقهم عونهم وغوثهم لو احتاجوا .

وإنما ذكرنا هذا لنخلص منه إلى أن للشيوخ بعض العذر فيما قالوا ( كنا ردهم لكم لو انهزمت لقتم إينا ) .

والحق أن المواقف تختلف والأعمال الفدائية تتفاوت فقد يكون في بعضها ما يقوم به الفدائي وحده لا يجدي في عمله معونة من وراءه كمن يدخل منفرداً في جيش العدو وليس من شك في أن من يقوم بعمل كهذا يستحق أن ينفرد بزيادة لا يشاركه فيها غيره . وهنا نقول إن الرسول الحكيم وضع الأمر موضعه وأعطى كل ذي حق حقه ، وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الشراح جنحوا إلى تفسير قول الراوي على فواق إلى التفضيل في القسمة فجعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائهم وبلائهم . قال صاحب عون المعبود ( لإيفاء الوعد وهذا أقرب ) وهذا الذي نجده إلى الحق أن يفي عليه الصلاة والسلام بما وعده .

هذه هي الخصومة التي وقعت بين بعض أفراد الصحابة في غزوة بدر وما ذكرنا يوضح أنها كانت تمثل وجهات في النظر ليس فيها مجافاة للحق ولكنها أمر يمكن أن يقع ومع ذلك فإن الآيات الكريمة لم ترض بشيء من النزاع بين الأصحاب وإن تضاعل أمر وتنزلت لترفع هذه النفوس إلى مكانتها ولتعيد إليها سكنتها ، لتعيد إليها الطمأنينة بإيمانها والرضا بما يقسم لها من غير جشع ولا طمع فلتنزع هذه النفوس عن التفكير بقسمة الغنائم ولتدع أمر ذلك إلى الله ربه ورسوله نبيها ، ولتعلم ان ذلك هو الذي يورث الخصومة وينبت الشقاق في جماعتها فلتحذر ذلك ولتحرص تلك النفوس على وحدة الكلمة وصلاح ذات البين فليس شيء أشد خطراً على الجماعة من تنازع أفرادها ووقوع التنافر بينهم ، ولهذا الجماعة شأن كبير ، ستصل راياتها بعد قليل إلى أقصى المسافات في مشارق الدنيا ومغاربها .

وليس من شك ان الرسول الحكيم عليه صلوات الله قد أنهى الخصومة بأسرع حين وقسم الغنائم بأسرع وقت ورضي كل بنصيبه وخرج المسلمون من هذه المعركة الهامة اليسيرة معركة التنازع فيما بينهم إخواناً متحابين .

يروى ابو داود في سننه عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدر في ثلثمائة وخمسة عشر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني حفاة فاحملهم اللهم إني عراة فاكسهم اللهم إني جياع فأشبعهم ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل الا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا .

### خلاصة القول في الروايات .

يتلخص مما سبق أن بعض الروايات التي ذكرنا فيها سبب نزول الآية الكريمة تذكر خصومة وبعضها تبالغ في ذكر الخصومة وبعضها لا تذكر خصومة ابداً .

فرواية ابي داود جاء فيها ما يلي :

« فلما فتح الله عليهم قالت المشيخة كنا رداء لكم لو انهزمت فتمم الينا فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى فأبى الفتيان وقالوا جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا فأنزل الله تعالى يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول الى قوله تعالى كما اخرجك ربك » .

وهكذا لم تزد الرواية على ذكر إباء الفتيان .

ورواية الحاكم لا تذكر خصومة ولا اباة ولفظها كما يلي: « فلما فتح الله عليهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم وقال الشيوخ انا كنا ردها لكم وكنا تحت الرايات فأنزل الله عز وجل يسألونك عن الأنفال الآية .

وقد تبين مما سبق ان هاتين الروایتين هما اعدل الروایات واقربها الى تصوير الواقع وقد رأينا أن رجال الروایتين من رجال الطبقة الأولى .

واما رواية احمد والترمذي فقد جاء فيها قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب والرواية الثانية تجمل فتقول : فينا اصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله من ايدينا فجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء .

وقد ذكرنا بشأن هاتين الروایتين ما ذكرنا .

اما الآية الكريمة فتمس الموضوع مسا رقيقا ولا تزيد ان تصف الذي وقع كله بأكثر من سؤال توجه به المسلمون الى رسول الله عليه صلوات الله ؛ وليس في السؤال حرج وليس فيه كبير إثم ، نعم قد يلجأ المتخاصمان الى السؤال لفك النزاع وانهاء الخصام وهما في هذا يحمدان لأنه نوع من التحكيم ووطن فيه كل جانب من المتخاصمين نفسه على الرضا بقبول الحكم فالقضية كما عرضها القرآن الكريم سؤال أخصى ما يكون فيه أنه أريد به فض النزاع وإنهاء الجدال وهو خير كل الخير ولا يمكن أن تتصور أن الخصومة التي وقعت خصومة عنيفة ولكنها كما ذكرنا لا تزيد عما صورته رواية ابي داود ولو كانت اعنف من ذلك لما فات الآيات القرآنية ذكر ذلك والتعليق عليه فلقد عودتنا الآيات الكريمة ان ترعى هذه النفوس رعاية تامة فلا تدع دقائق الأمور تمر دون ذكرها والتنبيه اليها .

كان ما وقع بين المسلمين من خلاف مصوراً في القرآن الكريم بسؤال ولكنه وإن كان سؤالاً فقد وقع في الجو الذي امتزج فيه وحي السماء والإمداد بالملائكة بلاستغاثة والخوف وتم النصر وبلغت النفوس أوجها من الايمان ، في مثل هذا الجو ما كان ينبغي أن يكون سؤال عن الأموال ولا نزاع ولو كان يسيراً في موضوع الأنفال ولذلك كانت التربية حازمة واللفتات قوية والمعاني التي طلبت إلى الفئة القليلة في منتهى السمو .



« قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

انها دفعة قوية جدا الى الصعود الى مراتب سامية جدا .

لقد لمست فريقا من المسلمين لمسة خفيفة من معاني الحرص على الجمع ذلك المعنى الغريزي لدى كل انسان فكانت الآيات الكريمة في مواطن الغيرة على هذه النفوس أن تصيها مثل هذه اللمسة فاثابت بها تنتزعها وتصدع بها إلى جو سامق عال رفيع يتنزه عن الدنيا وكل ما فيها .

لقد اخذنا برواية ابن عباس الواردة لدى ابي داود والحاكم في سبب نزول الآية الكريمة والسؤال الذي يرد بعد هذا انا قدمنا في اول الموضوع رواية مسلم وفيها قصة سعد رضي الله عنه والسيف الذي رغب ان يكون له خاصة دون غيره وقد جاء في تلك الرواية ان الآية نزلت في سعد رضي الله عنه كما نزلت فيه آيات اخرى .

فكيف يمكن الجمع بين الروایتين: رواية ابي داود تذكر ان السبب في نزول الآية طلب الشيوخ الا يستأثر الشبان بالنعيمه وإباء هؤلاء ورواية مسلم تذكر ان السبب في نزول الآية طلب سعد السيف من رسول الله وامتناعه عليه الصلاة والسلام من اعطائه اياه حتى نزلت الآية .

والجواب الذي نأخذ به في مثل هذا التعارض ما قاله ابن تيمية رحمه الله (١) .  
قال ابن تيمية رحمه الله :

قولهم انزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة ان تلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما نقول عني بهذه الآية كذا .

وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين ان احدهم اذا قال نزلت هذه الآية في كذا ، فإنه يريد بذلك انها تتضمن هذا الحكم لا ان هذا كان

(١) : انظر تفسير القاسمي ج ١ ص ٢٦ .

السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع أ. هـ .

وهكذا نرجح ان سياق الآيات الكريمة في جانب الرواية التي ذكرت ما وقع بين الشيوخ والشبان وطلب سعد للسيف قد وقع في غزوة بدر وقوله رضي الله عنه ان الآية الكريمة نزلت في شأنه يعني انه داخل في حكمها وليس بمستبعد ان تكون الآيات الكريمة قد نزلت أصالة لمشكلة الخلاف ولمشكلات اخرى كطلب سعد رضي الله عنه والله الموفق للصواب .

### هل الآية منسوخة

أ - القائلون بأنها منسوخة .

ب - ما الذي دعا الى القول بالنسخ .

ج - القائلون بأنها محكمة .

د - القول الذي نرجحه .

أ - القول بأنها منسوخة :

يقول القرطبي: ( ١ ) .

هذه الآية ( يعني قوله تعالى : « واعلموا ان ماغنمتم » ) ناسخة لأول السورة عند الجمهور . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على ان هذه الآية نزلت بعد قوله يسألونك عن الأنفال ، وان قوله يسألونك عن الأنفال نزلت في حين تشاجر اهل بدر في غنائم بدر على ما تقدم اول السورة قلت ( القرطبي ) ومما يدل على صحة هذا ما ذكره اسماعيل بن اسحاق ويذكر سنده الى ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله كذا ومن اسر أسيراً فله كذا ، وكانوا قتلوا سبعين واسروا سبعين فجاء ابو اليسر بن عمرو بأسيرين فقال يا رسول الله انك وعدتنا من قتل قتيلا فله كذا وقد جئت بأسيرين فقام سعد فقال يا رسول الله إنا لم يمنعنا زهادة في الاجر ولا جبن عن العدو ولكننا قنا هذا المقام خشية ان يعطف المشركون فإنك إن تعط هؤلاء فلا يبقى لاصحابك شيء قال وجعل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » فسلموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نزلت

(١) : ٨/٢ .

«واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة». (١)

وقال ابن جرير: (٢)

واختلفوا فيها: أمنسوخة هي ام غير منسوخة؟ فقال بعضهم هي منسوخة وقالوا نسخها قوله «واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول» وروى ابن جرير بسنده القول بالنسخ عن مجاهد وعكرمه والسدي.

قال الشيخ الشنقيطي حفظه الله: (٣)

«قال مقيده عفا الله عنه: جمهور العلماء على ان الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها» ويشير الى الروايات التي ذكرت الخلاف بين الأصحاب رضوان الله عليهم ثم يقول: «وعلى هذا القول الذى هو قول الجمهور، فالآية مشكلة مع قوله تعالى واعلموا ان ما غنمتم من شيء الآية».

واظهر الأقوال التي يزول بها الإشكال في الآية هو ما ذكره ابو عبيد ونسبه القرطبي في تفسيره لجمهور العلماء ان قوله تعالى: «واعلموا أن ما غنمتم». ناسخ لقوله «يسألونك عن الأنفال» ولا يشير الاستاذ الى وجه الإشكال ولعل الإشكال ماجاء في الرواية كما ذكرنا «فسلموا الغنيمة الى رسول الله» اى انهم فهموا من الآية أن الغنيمة اصبحت ملكاً لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه يتصرف بها كيف يشاء، ثم نسخ هذا الحكم بقوله تعالى «واعلموا أن ما غنمتم.....»

يدل على ذلك قوله: (٤) فالحاصل ان آية «واعلموا ان ما غنمتم.....» بينت ان ليس المراد قصر الغنائم على الرسول المذكور في أول السورة.

(١): النسخ هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي و يذكرون لوقوع النسخ شروطا اربعة اولها وجود التعارض بين الحكيم تعارضا حقيقيا بحيث لا يمكن الجمع بينها واعمالها معا والثاني كون الناسخ هو الله جل شأنه فلا بد من دليل شرعي يثبت معه النسخ والثالث ان المنسوخ لا بد وان يكون حكما شرعيا والرابع أنه لا بد ان يكون الناسخ متراجحاً في الزمن عن المنسوخ غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد .  
وهنا على قول القائلين ان الغنيمة سلمت لرسول الله ليتصرف بها بما يشاء ذلك معنى قوله الأنفال لله في رأيهم تم هذه الشروط .

(٢): ٣٨٠ / ١٣ . (٣): ٣٤٥ / ٢ . (٤): ٣٤٦ / ٢ .

والأستاذ الشنقيطي يرى ان قوله تعالى « واعلموا ان ماغنمتم .... » نزل قبل قسمة الغنائم وقد خست الغنائم بدليل ما ثبت في صحيح مسلم من حديث علي بن ابي طالب رضي الله عنه « كان لي شارف من نصيبي من المغنم » ومؤدى هذا إلى أن الزمن الذي سلمت الغنائم فيه الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأذن له بالتصرف فيها كان بين نزول الآيتين الكريميتين : ( يسألونك عن الأنفال ) ، ( واعلموا أن ما غنمتم ) وكان نزولها قبل قسمة الغنائم فالزمن بينها قصير جدا .

ب - ما الذي دعا الى القول بالنسخ ؟

يبدو ان الذى دعا الى القول بالنسخ امران اولهما الروايات التي ذكرت ان الأصحاب سلموا الغنيمة لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه وهذا ما اشار اليه القرطبي والثاني تفسير الانفال بالغنائم كلها وقوله تعالى : « لله .... وللرسول » أي ملك للرسول يتصرف بها كما يشاء .

وقد حمل هذا الفهم كثيرين على القول بالنسخ للتخلص من التعارض بين الآية الأولى حين تفهم هذا الفهم وبين قوله تعالى واعلموا ان ما غنمتم لاسيما وقد استخلص في ان الغنائم للرسول عليه صلوات الله وسلامه وليس قسمها بين الغانمين بواجب .

قال القرطبي ( ١ ) : وقد قيل : انها محكمة غير منسوخة وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليست مقسومة بين الغانمين ، وكذلك لمن بعده من الأئمة .

كذا حكاه المازرى عن كثير من اصحابنا رضي الله عنهم ، وأن للامام ان يخرجها عنهم .

واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين ، وكان ابو عبيد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة ومن على اهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فيئا ، ورأى بعض الناس ان هذا جائز للأئمة بعده .

قلت ( القرطبي ) وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى « واعلموا ان ماغنمتم من شيء فان لله خمسة » والأربعة اخماس للامام ان شاء حبسها وان شاء قسمها بين الغانمين وهذا

(١) : ٨ / ٢ .

ليس بشيء لما ذكرنا ولأن الله سبحانه اضاف الغنيمة للغانمين فقال « واعلموا ان ما غنمتم من شيء » ثم عين الخمس لمن سمي في كتابه ، وسكت عن اربعة الأحماس ، كما سكت عن الثلثين في قوله : وورثه أبواه فلأمه الثلث فكان للاب الثلثان اتفاقا وكذا الأربعة الأحماس للغانمين وإجماعاً ، على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والداودي والمازري ايضاً والقاضي عياض وابن العربي . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة ، وسيأتي بعضها . ويكون معنى قوله « يسألونك عن الأنفال ..... » ما ينقله الامام لمن شاء ولما يراه من المصلحة قبل القسمة (١) .

وقال الشيخ الشنقيطي حفظه الله (٢) :

« جاهير علماء المسلمين على أن اربعة أحماس الغنيمة للفقراء الذين غنموها ، وليس للامام ان يجعل تلك الغنيمة لغيرهم ... »

وخالف في ذلك بعض اهل العلم وهو قول كثير من المالكية ونقله عنهم المازري رحمه الله ايضاً قالوا للامام ان يصرف الغنيمة فيما يشاء من مصالح المسلمين ويمنع منها الغزاة الغانمين .

واحتجوا لذلك بأدلة منها قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال ... » قالوا الأنفال الغنائم كلها والآية محكمة لا منسوخة .

واحتجوا لذلك ايضاً بما وقع في فتح مكة وقصة حنين قالوا : انه صلى الله عليه وسلم فتح مكة عنوة بعشرة آلاف مقاتل ومنّ على اهلها فردها عليهم ولم يجعلها غنيمة ولم يقسمها على الجيش ، فلو كان قسم الأحماس الأربعة على الجيش واجبا لفعله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة . قالوا وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين اعطى منها عطايا عظيمة جدا ولم يعط الأنصار منها مع انهم من خيار المجاهدين الغازين معه صلى الله عليه وسلم .

يقول الشيخ الشنقيطي حفظه الله :

« وأجيب من جهة الجمهور عن هذه الاحتجاجات : فالجواب عن آية « يسألونك عن

(١) : فسر القرطبي الآية الكريمة في مطلع السورة (٧/٣٦١) بقوله « اي الى الله والى الرسول الحكيم

فيها والعمل بها بما يقرب من الله تعالى » وهذا التفسير هو الأرجح في رأينا .

(٢) : ٢/٣٥٤ .

الأنفال « هو ما قدمنا من انها منسوخة بقوله «واعلموا ان ما غنتم ..» ونسبه القرطبي لجمهور العلماء والجواب عما وقع في فتح مكة ان مكة ليست كغيرها من البلاد لأنها حرام بحرمته الله من يوم خلق السماوات والأرض الى يوم القيامة وانما احلت له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده، وما كان بهذه المثابة فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمه العظيمة .

واما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر، وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم استطاب نفوس الغزاة عن الغنيمة ليؤلف بها قلوب المؤلفه قلوبهم لأجل المصلحة العامة للاسلام والمسلمين ومن جملة ما قال لهم عليه الصلاة والسلام: « الا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى رحالكم، الى آخر كلامه فرضي القوم وطابت نفوسهم وقالوا رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا وهذا ثابت في الصحيح (١) .

ج - القائلون بأن الآية محكمة مجملة .

قال ابن جرير الطبري (٢) وقال آخرون هي محكمة وليست منسوخة وانما معنى ذلك: « قل الأنفال لله » وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة - وللرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيه » .

وقال صاحب الفتوحات الإلهية في شرحه على تفسير الجلالين: (٣) .

« قوله لله والرسول » هذا فيه نوع إجمال بينه ما سيأتي في قوله واعلموا أن ما غنتم من شيء الآية فهذه الآية محكمة على التحقيق لا منسوخة غاية الأمر أنها مبينة بما يأتي أهـ . فعلى هذا معنى قوله لله والرسول أنها لها من حيث القسمة وليس المراد أنها للرسول من حيث الاستقلال بالملك وعبارة أبي السعود قل الأنفال لله والرسول أي حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير ان يدخل فيه رأي احد

(١) : يقول القرطبي ههنا « وليس لغيره ان يقول هذا القول ، مع ان ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا والله اعلم » .

(٢) : ١٣ / ٣٨١ .

(٣) : ٢ / ٢٢٥ .

أ هـ . والقول بأنها منسوخة مبني على ان المراد من قوله هنا الله والرسول أن الرسول يختص بملكها يتصرف فيها كيف يشاء .» .

وقال السيد رشيد رضا في تفسيره :

« قل الأنفال لله والرسول أي قل لهم الأنفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء وهذا لا ينافي التفصيل الذي سيأتي في قوله تعالى واعلموا أن ما غنمتم ... فيكون التفصيل ناسخا للإجمال كما قال مجاهد وعكرمة والسدي فالصواب قول ابن زيد ان الآية محكمة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس .

وقال الدكتور مصطفى زيد : (١) .

والصحيح أن الآية الأولى أجملت الجواب عن سؤالهم فقلت الأنفال لله والرسول بمعنى حكم الأنفال لله يحكم فيها بما يشاء ويقسمها الرسول على ما حكم به الله ثم جاءت الآية الثانية ففصلت هذا الاجمال .

قول ابن جرير الطبري :

قال أبو جعفر : (٢) والصواب من القول في ذلك ان الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه صلى الله عليه وسلم ينقل من شاء فنقل القاتل السلب وجعل للجيش في البداية الربع وفي الرجعة الثلث بعد الخمس ونقل قوما بعد سهمانهم بعيرا بعيرا في بعض المغازي فجعل الله تعالى ذكره حكم الأنفال إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ينقل على ما يرى مما فيه صلاح المسلمين وعلى من بعده من الأئمة أن يستنوا لسنة في ذلك .

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ لا حتما لها مما ذكرت من المعنى الذي وصفت . وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ بحجة يجب التسليم لها ، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادث حكم بخلافه ينفيه من كل معانيه ، أو يأتي خبر يوجب الحجة أن أحدهما ناسخ الآخر» .

(١) : النسخ في القرآن الكريم ٦١٨ / ٢ .

(٢) : ٣٨١ / ١٣ .

ولقد فرس هذا ابن جرير الأنفال بالزيادات التي يزيدها الإمام بعض الجيش وهو المعنى الذي اختاره في معنى الأنفال .

### — الخلاصة :

والذي نرجحه أن الأنفال هي الغنائم وأن الآية محكمة بمجملتها جاء بيانها وتفصيلها في الآية الثانية وهي قوله تعالى : واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة .

### متى شرع الخمس ؟ أخست غنائم بدر؟

جاء في كتاب فرض الخمس عند البخاري (١) أن علياً قال « كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفاً من الخمس » . وقال ابن حجر في شرح الحديث : « قال ابن بطال : ظاهره أن الخمس شرع يوم بدر ولم يختلف أهل السير أن الخمس لم يكن يوم بدر ، وقد ذكر اسماعيل القاضي في غزوة بني قريظة أنه أول يوم فرض فيه الخمس . قال وقيل نزل بعد ذلك قال ولم يأت فيه بيان شاف وإنما جاء صريحاً في غنائم حنين . قال ابن بطال : إذا كان ذلك فيحتاج قول علي إلى تأويل . قال ويمكن أن يكون ما ذكر ابن اسحاق في سرية عبد الله بن جحش التي كانت في رجب قبل بدر بشهرين ، وإن ابن اسحاق قال : ذكر لي بعض آل جحش أن عبد الله قال لأصحابه إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس ، فعزل له الخمس وقسم سائر الغنيمة بين أصحابه قال فوقع رضا الله بذلك قال فيحمل قول علي « وكان قد أعطاني شارفاً من الخمس » أي من الذي حصل من سرية عبد الله بن جحش .

قلت ( ابن حجر ) ويعكر عليه ان في الرواية الآتية في المغازي « وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ » والعجب أن ابن بطال عزا هذه الرواية لأبي داود وجعلها شاهدة لما تأوله وغفل عن كونها في البخاري الذي شرحه وعن كون ظاهرها شاهداً عليه لاله ، ولم أقف على ما نقله عن السير صريحاً في أنه لم يكن في غنائم بدر خمس . والعجب أن يثبت في غنيمة السرية التي قبل بدر الخمس ويقول إن الله رضي بذلك وينفيه في يوم بدر مع أن الأنفال التي فيها التصريح

(١) : فتح الباري ٦ / ١٩٦



بفرض الخمس نزل غالبها في قصة بدر وقد جزم الداودي الشارح بأن آية الخمس نزلت يوم بدر. وقال السبكي نزلت الأنفال في بدر وغنائمها . والذي يظهر أن آية قسمة الغنيمة نزلت بعد تفرقة الغنائم لأن أهل السير نقلوا أنه قسمها على السواء واعطاها لمن شهد الواقعة او غاب لعذر تكريماً منه لأن الغنيمة كانت اولاً بنص سورة الأنفال للنبي صلى الله عليه وسلم قال : ولكن يعكر على ما قال أهل السير حديث علي يعني حديث الباب حيث قال . وأعطاني شارفاً من الخمس يومئذ فإنه ظاهر في أنه كان فيها خمس .

قلت ( ابن حجر ) ويحتمل أن تكون قسمة غنائم بدر على السواء بعد أن أخرج الخمس للنبي صلى الله عليه وسلم على ما تقدم من سرية عبد الله بن جحش وأفادت آية الأنفال وهي قوله تعالى ( واعلموا ان ما غنمتم ) الى آخرها بيان مصرف الخمس لا مشروعية أصل الخمس والله أعلم وأما ما نقله عن أهل السير فأخرجه ابن اسحاق بإسناد حسن يحتاج بمثله عن عبادة بن الصامت قال « فلما اختلفنا في الغنيمة وساءت أخلاقنا انتزعها الله منا فجعلها لرسوله فقسمها على الناس عن سواء » أي على سواء ساقه مطولاً وأخرجه أحمد والحاكم من طريقه وصححه ابن حبان من وجه ليس فيه ابن اسحاق .

وهكذا يرى ابن بطلال أن الغنائم في بدر لم تخمس ليساير في ذلك ما نقله عن أصحاب السير « ان الخمس لم يكن يوم بدر » وهو يرى أن سرية عبد الله بن جحش التي سبقته بدرًا بشهرين خمست غنائمها ، وهنا يعجب ابن حجر لصنيعه هذا يثبت الخمس في غنيمة السرية التي قبل بدر وينفيه فيها ، وينفي ابن حجر أن يكون ما نقله ابن بطلال عن أهل السير صريحاً في أنه لم يكن في غنائم بدر خمس .

و يرى ابن حجر سبباً أخرى للتوفيق هي أن غنائم بدر خمست على ما تقدم في سرية عبد الله بن جحش وأن نزول الآية الكريمة لم يكن لبيان الحكم بل لبيان مصارف الخمس .

و خبر تخميس غنائم سرية عبد الله بن جحش يرويه ابن اسحاق عن الزهري و يزيد ابن رومان عن عروة قال وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمتم الخمس وذلك قبل أن يفرض الله من الغنائم الخمس فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس الغنيمة وقسم سائرها

بين أصحابه وقال ابن القيم (١) : « قد عزلوا من ذلك الخمس وهو أول خمس كان في الإسلام » .

والذي يبدو أن الآية الكريمة نزلت يوم بدر كما ذهب إلى ذلك كثيرون سواء كان نزولها لإنشاء الحكم أم لتوثيقه وبيان مصارف الخمس من الغنائم والراجع أن غنائم بدر قد خمست تبعاً لما جاء في رواية البخاري .

### هل النفل من أصل الغنيمة ؟

قال الشوكاني (١) : « وقد اختلف العلماء هل هو (يعني النفل) من أصل الغنيمة أو من الخمس أو من خمس الخمس أو مما عدا الخمس على أقوال ، واختلفت الرواية عن الشافعي في ذلك فروى عنه أنه من أصل الغنيمة وروى عنه أنه من الخمس وروى عنه أنه من خمس الخمس والأصح عند الشافعية أنه من خمس الخمس .

وقال الاوزاعي (٢) وأحمد وأبو ثور وغيرهم النفل من أصل الغنيمة وإلى ذلك ذهب الهادية (٣) .

وقال مالك وطائفة لا نفل إلا من الخمس .

قال الخطابي أكثر ما روي من الأخبار يدل على ان النفل من أصل الغنيمة » .

وجاء في كتاب الروض النضير (٤) : .

قال علي عليه السلام « وإنما النفل قبل الغنيمة ، ولا نفل بعد الغنيمة » .

وقال الشارح (٥) : « وقوله : إنما النفل قبل الغنيمة أي قبل تسميتها وهو المختار

(١) : نيل الأوطار ٢٧٤ / ٧ .

(٢) : جاء هذا النفل الى آخر قول الخطابي في الفتح ٢٤ / ٦ .

(٣) : قال ابو عبيد في كتاب الأموال (٣٢٠) : واما الاوزاعي فان المعروف من رأيه انه كان لا يرى النفل من الخمس ويقول انما الخمس للاصناف التي سمي الله تبارك وتعالى في كتابه قال ابو عبيد وما يقوى قول الاوزاعي حديث عمر (في سواد العراق) قال ابو عبيد (واما عظم الآثار والسنن فعلى ان الخمس مفوض الى الامام ينفل منه من شاء .

(٤) : ٤ / ٦٤٨ .

(٥) : المصدر السابق ٤ / ٦٥٠

لمذهب الهادية ، وقال به الحسن البصري والأوزاعي وأحمد وأبو ثور وآخرون .

قال الخطابي (١) : أكثر ما روي من الأخبار في هذا الباب يدل على أن التنفيل من أصل الغنيمة و يؤيده ما رواه محمد بن اسحاق عن نافع عن ابن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى نجد ، فخرجت معها فأصبنا نعما كثيرا فنفلنا أميرنا بعيرا بعيرا لكل إنسان ثم قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم بيننا غنيمتنا فأصاب كل رجل منا اثني عشر بعيرا بعد الخمس ، وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي أعطانا أميرنا ولا عاب عليه ما صنع فكان لكل رجل منا ثلاثة عشر بعيرا ينفله فهو نص صريح على أن التنفيل كان من رأس الغنيمة وكذلك حديث حبيب بن مسلمة المتقدم وظاهره أنه كان ينفل بعد إخراج الخمس أي ينفل من أربعة أخماس ما يأتون به (٢) .

وذهب مالك وأبو حنيفة ، وهو قول سعيد بن المسيب وهو المختار عند اصحاب الشافعي أنه ينفل من خمس الخمس (٣) واحتجوا بما أخرجه مسلم عن ابن عمر قال نفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى نصيبنا من الخمس . فأصابني شارف (٤) ، ولما

---

(١) : حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان فقيه محدث من أهل بستان (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) له معالم السنن في شرح سنن أبي داود وكتب أخرى (٣١٤-٣٨٨) .

(٢) : قال الخطابي في معالم السنن ١٤/٥٥ « وقال غيرهم كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفلهم من الغنيمة التي يغنمونها كما نفل القاتل السلب من جملة الغنيمة » قال الخطابي « وعلى هذا دل أكثر ما روى من الأخبار في هذا الباب ، وبعد ذكر حديث ابن عمر يقول « قلت : أفى هذا بيان واضح ان النفل إنما اعطاهم إياهم من جملة الغنيمة لا من الخمس الذي هو سهمه ونصيبه » وبعد الحديث الذي جاء انه عليه الصلاة والسلام ينفل الثلث بعد الخمس قال : « فيشبه والله اعلم ان يكون الامران معا جائزين » .

(٣) : قال بدر الدين العيني في عمدة القارى ٧/١٦٤ والأصح عندنا انه يعني النفل من خمس الخمس وبه قال ابن المسيب ومالك وأبو حنيفة وآخرون ومن قال انه من اصل الغنيمة الحسن البصرى والأوزاعي وأحمد وأبو ثور وآخرون .

(٤) : صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ص ١٣٦٩ / ٣ .

روي عن مالك بن اوس بن الحدثان (١) أنه قال : ما ادركت الناس ينفلون إلا من الخمس . قال الشافعي أخبرنا مالك عن ابي الزناد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول كان الناس يعطون النفل من الخمس (٢) قال الشافعي وقول سعيد كما قال ان شاء الله «أ.هـ ما جاء في الروض النضير.

نقل الشوكاني عن ابن حجر ونقل صاحب الروض النضير أن قول أحمد النفل من أصل الغنيمة وكذا نقلا عن الأوزاعي مثل هذا وابن قدامة ينقل عنها قولاً ربما كان أدق يقول (٣):

قال أحمد : والنفل من أربعة أخماس الغنيمة ، هذا قول أنس بن مالك وفقهاء الشام منهم رجاء بن حيوة وعبادة بن نسي وعدي بن عدي ومكحول والقاسم بن عبد الرحمن ويزيد بن أبي مالك ويحيى بن جابر والأوزاعي وبه قال اسحاق وابوعبيد وقال أبو عبيد والناس اليوم على هذا « قال أحمد وكان سعيد بن المسيب ومالك بن انس يقولان » لا نفل من الخمس . فكيف خفي عليها هذا مع علمها .

قال ابن قدامة : « وقال أبو ثور وإنما النفل قبل الخمس ، واحتج من ذهب الى هذا بحديث ابن عمر الذي اوردناه » .

قال ابن قدامة (٤):

ولنا ما روى معن بن يزيد السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا نفل إلا بعد الخمس » رواه أبو داود وابن عبد البر وهذا صريح وحديث حبيب بن سلمة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفل الربع بعد الخمس والثلث بعد الخمس » وحديث جرير قال له عمر « ولك الثلث بعد الخمس » ولأن النبي صلى الله

(١): مالك بن اوس بن الحدثان مختلف في صحبته ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا ذكره ابن سعد في طبقة من ادرك النبي صلى الله عليه وسلم ورآه ولم يحفظ عنه شيئًا قال و يقولون انه ركب الخيل في الجاهلية قال وكان قديما ولكنه تأخر اسلامه وقال البخارى قال بعضهم له صحبة ولا تصح وقال ابو حاتم وابن معين لا تصح له صحبة .

(٢): ذكر ابن حجر في الفتح ٦/٢٤١ ثم قال « وظاهره اتفاق الصحابة على ذلك » .

(٣): المغني ٩/٢١٥ .

(٤): المغني ٩/٢١٦ .

عليه وسلم نفل الثلث ولا يتصور إخراجها من الخمس (١) ولأن الله تعالى قال (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه) يقتضي أن يكون الخمس خارجاً من الغنيمة كلها» (٢).

يقول ابن قدامة: «وأما حديث ابن عمر— بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش قبل نجد واتبعت سرية من الجيش فكان سهمان الجيش اثني عشر بعيراً ونفل أهل السرية بعيراً بعيراً فكانت سهمانهم ثلاثة عشر بعيراً» فهذا يمكن أن يكون نفلهم من أربعة أخماس الغنيمة دون بقية الجيش كما ينفل السرايا ويتعين حمل الخبر على هذا لأنه لو أعطى جميع الجيش لم يكن ذلك نفلاً وكان قد قسم لهم أكثر من أربعة الأقسام وهو خلاف الآية والأخبار».

أقول الحديث رواه البخاري (٣) بعنوان باب السرية التي قبل نجد عن ابن عمر رضي الله عنها قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية قبل نجد فكانت فيها فبلغت سهامنا اثني عشر بعيراً ونفلنا بعيراً بعيراً فرجعنا بثلاثة عشر بعيراً والظاهر في هذه الرواية أن أفراد السرية جميعاً كان نصيب كل منهم ثلاثة عشر بعيراً وليس في هذه الرواية ذكر لجيش انفصلت منه سرية يقول ابن حجر في شرح الحديث: قالوا: وكان أبو قتادة أميرها وكانوا خمسة وعشرين ويمكن أن نتصور الواقعة بأن أفراد السرية نفلهم أميرهم قبل أن يرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل أن تخمس الغنيمة ثم كان لهم بعد التخميس لكل اثنا عشر بعيراً ويستأنس لهذا بما جاء في بعض الروايات وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي أعطانا صاحبنا ولا عاب عليه ما صنع فكان لكل

(١): هذا رد على القائلين بأن النفل من الخمس.

(٢): يقول الشيخ الشنقيطي (٢/٣٩٨) والذي يسبق إلى الذهن أن ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عمر بلفظ «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان ينفل بعض ما يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش، والخمس في ذلك واجب كله» يدل على أن ذلك التنفيل من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو ما دل عليه حديث حبيب بن مسلمة المتقدم، وهو الظاهر المتبادر خلافاً لما قاله ابن حجر في الفتح من أنه محتمل لكل الأقوال المذكورة. ويقول أبو عبيد في (الإموال) والناس اليوم في المغنم على هذا: أنه لا نفل من جملة الغنيمة حتى تخمس.

(٣): فتح الباري ٥٦/٨.

رجل منا ثلاثة عشر بعيراً ينفله (رواه أبو داود) و يكون معنى النفل ما اخذه كل فرد زائدا على سهمه الذي يستحقه وهذا هو الفهم الذي فهمه الذين قالوا بجواز التنفيل من أصل الغنيمة أي قبل تخميسها ومنهم الخطابي كما ذكرنا .

على أن أبا عبيد يحتج بالحديث نفسه على أن النفل من الخمس فهو يذكّر الحديث ثم يقول (١) :

« فهذا النفل الذي ذكره بعد السهام ليس له وجه إلا أن يكون من الخمس » وكذلك يقول القرطبي (٢) « فاحتج بهذا من يقول : ان النفل انما يكون من جملة الخمس ، وبيانه أن هذه السرية لو نزلت على أن اهلها كانوا عشرة مثلاً أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين أخرج منها خمسا ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون قسمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بعيراً ، اثنا عشر بعيراً ثم أعطى القوم من الخمس بعيراً بعيراً ، لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة ، فاذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد » .

أقول : وهذا الذي يذكره القرطبي دليل يذكره ابن حجر عن ابن المنير أنه واقع وأنه جاء في بعض الروايات أن عدد السرية عشرة يقول ابن حجر (٣) : قال ابن المنير « وقد جاء أنهم كانوا عشرة ، وانهم غنموا مائة وخمسين بعيراً فخرج منها الخمس وهو ثلاثون وقسم عليهم البقية فحصل لكل واحد منهم اثنا عشر بعيراً ثم نفلوا بعيراً بعيراً فعلى هذا فقد نفلوا ثلث الخمس » ويحرص ابن حجر بعد إيراد هذا على نصر مذهبه القائل بأن النفل من خمس الخمس فيقول : « قلت : إن ثبت هذا لم يكن فيه رد للاحتمال الأخير (يعني خمس الخمس) لانه يحتمل ان يكون الذين نفلوا ستة من العشرة والله اعلم » أقول : وهذا من ركوب متن الشطط في سبيل نصره المذهب .

وابن حجر قد نقل في الصفحة نفسها قبل أسطر قول ابن بطال بان حديث ابن عمر يرد على القائلين بأن النفل من خمس الخمس . قال ابن بطال « لأنهم نفلوا نصف السدس وهو أكثر من خمس الخمس وهذا واضح » .

(١) : الاموال باب النفل من الخمس خاصة بعد ما يصير الى الامام ص ٣٢١

(٢) : الجامع لاحكام القرآن ٣٦٢ - ٣٦٣ / ٧ (٣) : فتح الباري ٦ / ٢٤٠

وقد اخذ الشيخ الشنقيطي بقول ابن بطال قال : « واعلم أن حديث عبد الله بن عمر المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية قبل نجد ... دليل واضح على بطلان قول من قال : « لا تنفيل إلا من خمس الخمس » لأن الحديث صريح في أنه نفلهم نصف السدس ، ولا شك أن نصف السدس أكثر من خمس الخمس فكيف يصح تنفيل الأكثر من الأقل ، وهو واضح كما ترى وأما غير ذلك من الأقوال . فالحديث محتمل له .

يعني أن الأقوال أربعة في النفل فهو إما من أصل الغنيمة أو من الخمس أو من خمس الخمس أو من أربعة الأخماس والحديث في رأي الشنقيطي يدل دلالة قطعية على نفي كون النفل من خمس الخمس للغنيمة كلها وهو محتمل لكونه من أصل الغنيمة قبل أن تخمس كاحتمال كونه من الغنيمة بعد ان خمست أي من أربعة الأخماس كاحتمال كونه من الخمس ، ثم يرجح الشيخ أنه من أربعة الأخماس بدلالة أحاديث أخرى سبق ذكرها .

ولنا ملاحظة يسيرة على الحساب الذي أورده ابن بطال وأقره الشنقيطي عليه تتلخص فيما يلي :

إذا اخذنا بقول القائلين إن النفل من خمس الخمس فالغنيمة قد خمست قبل أي توزيع وكان سهم كل فرد من أفرادها ١٢ بعيرا فإذا كان عددهم عشرة ( نفرض هذا فرضا لتسهيل الحساب ) كان سهمانهم جميعا ١٢٠ بعيرا وهذا  $5/4$  الغنيمة فالغنيمة كلها (١٥٠) بعيرا والنفل من خمس خمس الغنيمة كلها وهو هنا (٦) وقد فرضنا ان عدد أفراد السرية (١٠) فقد نفلت (١٠) ابعة وهذا العدد أكبر من خمس الخمس فكيف تعطى العشرة من الستة ؟ و يلاحظ ان العشرة هي  $15/1$  من الغنيمة كلها لا  $12/1$  كما قال ابن بطال :

وقد اوضح هذا ابن المنير قال ابن حجر (١) :

«وقد زاده ابن المنير أيضا فقال : لو فرضنا انهم كانوا مائة لكان قد حصل لهم ألف ومائتا بعير ويكون الخمس من الأصل ثلاثمائة بعير وخمسة ستون وقد نطق الحديث بأنهم نفلوا بعيرا بعيرا فتكون جملة ما نفلوا مائة بعير ، وإذا كان خمس الخمس ستين لم يف

(١) : ٦/٢٤٠ (فتح الباري) (٢) : ٢/٣٤٤ (٣) : ٤/١٣٢ (٤) : ٩/٢١٦

كله ببعير بعير لكل من المائة وهكذا كيفما فرضت العدد و يكون الحديث دليلا واضحا في الرد على من قالوا إن النفل من خمس الخمس قال الشيخ الشنقيطي (١) : « ومذهب أبي حنيفة أن للامام قبل احرار الغنيمة أن ينفل الربع أو الثلث أو أكثر أو أقل بعد الخمس وبعد احرار الغنيمة لا يجوز له التنفيل إلا من الخمس » .

وجاء في كتاب الاختيار (٢) ( من كتب الحنفية ) : « ويجوز التنفيل قبل احرار الغنيمة وقبل ان تضع الحرب أوزارها فيقول الامام : من قتل قتيلًا فله سلبه أو من أصاب شيئًا فله ربهه وبعد الاحراز ينفل من الخمس ... »

قال محمد : « وما روي أنه عليه الصلاة والسلام نفل بعد الاحراز انما كان من الخمس أو من الصفي ، فقلط بقوم فظنوا أن النفل يجوز بعد احرار الغنيمة وما قاله محمد صحيح لأنه لا يجوز تصرف الامام بعد الاحراز إلا في الخمس لما بينا ، ويجوز من الخمس لأنه لا حق للغنمين فيه » .

قال صاحب المغني (٣) : « وكلام أحمد في أن النفل من أربعة الأخماس عام لعموم الخبر فيه ويحتمل أن يحمل على القسمين الأولين من النفل ، فأما القسم الثالث وهو أن يقول من جاء بشيء فله كذا أو من جاء بعشرة رؤوس فله رأس منها فيحتمل أن يستحق ذلك من الغنيمة كلها لأنه ينزل منزلة الجعل فأشبهه السلب فانه غير محموس ، ويحتمل في القسم الثاني وهو زيادة بعض الغنمين على سهمه لغنائه أن يكون من خمس الخمس المعد للمصالح ، لأن عطية سلمة بن الأكوع سهم للفارس ز زيادة على سهمه انما كانت من اربعة الأخماس والله اعلم » .

ويقول ابن تيمية رحمه الله (٤) : وهذا النفل قال العلماء : إنه يكون الخمس لثلا يفضل بعض الغنمين على بعض والصحيح انه يجوز من أربعة الأخماس وإن كان فيه تفضيل بعضهم على بعض لمصلحة دينية لا لهوى النفس كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول فقهاء الشام وأبي حنيفة واحمد وغيرهم .

الخلاصة رأي مالك أن النفل من الخمس وأصح الأقوال عن الشافعي أن الامام لا

(١) : ٦ / ٢٤٠ (فتح الباري) (٢) : ٢ / ٣٤٤ (٣) : ٤ / ١٣٢ (٤) : ٩ / ٢١٦

(٥) : الفتاوى ٢٨ / ٢٧١



ينفل إلا من خمس الخمس ورأى الامام أحمد للامام ان ينفل الربع بعد الخمس في بدائه  
والثلث بعد الخمس في رجعتة ومذهب ابي حنيفة ان للامام قبل احرار الغنيمة أن ينفل  
الربع أو الثلث أو أكثر أو أقل بعد الخمس وبعد احرار الغنيمة لا يجوز له التنفيل الا من  
الخمس .

ويرجع الشيخ الشنقيطي أن النفل من الغنيمة بعد اخراج الخمس فهو من أربعة  
الأخماس كما صحح ذلك ابن تيمية عليه رحمة الله اخذ بالظاهر المتبادر من حديث ابن  
عمر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من  
السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش وزاد مسلم والخمس في ذلك واجب  
كله .

والذى نميل اليه ما ذهب إليه الشنقيطي حفظه الله ان الغالب على فعله عليه الصلاة  
والسلام التنفيل من الغنيمة بعد اخراج الخمس منها وقد تسامح عليه الصلاة والسلام  
فنفل بعض السرايا من أصل الغنيمة قبل ان تحمس وذلك هو الظاهر المتبادر في السرية  
التي كان فيها ابن عمر رضي الله عنه التي بعثت قبل نجد ومنها اخذ الخطابى الحكم فيما  
يسدو فقال اكثر ما روي من الأخبار يدل على ان النفل من أصل الغنيمة ، على انه قال  
« فيشبهه ان يكون الأمران معا جائزين » يعني من أصل الغنيمة ومن أربعة أخماسها »  
ولما كانت الروايات متضاربة على انه لا نفل الا بعد الخمس كما تدل عليه الآية الكريمة  
« واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة » كان الأحوط ان يقال ان التنفيل لا يكون  
الا بعد الخمس وحملت رواية ابن عمر في سرية قبل نجد على انها حالة استثنائية رضي  
فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعل الأمير واقره وجاء في الرواية « وما حاسبنا رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بالذي اعطانا اميرنا » ولم نجد رواية اخرى فيما ذكرنا من  
الروايات تبيح اعطاء النفل من أصل الغنيمة قبل أن تحمس (١) ولعله يؤخذ من رواية  
ابن عمر ان للامام ان يفعل ذلك اذا رأى فيه مصلحة كبرى وضرورة قصوى ، اما ان  
يعطي الامام من الخمس زيادة لبعض المقاتلين فأبي حرج في ذلك والخمس للامام له ان  
يتصرف فيه ولا ينافي هذا أن الأصل في النفل أن يعطى من أربعة الأخماس ولكننا لا

(١) : قال ابو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٢١) حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور قال سألت  
ابراهيم عن الامام يبعث السرية قال ان شاء خمس وان شاء نقلهم اياه كله .

(٢) : كتاب الأموال ص ٣٢١

نقول لا نفل الا من الخمس ولا نقول ايضا « بعد احراز الغنيمة لا يجوز للامام التنفيل الا من الخمس »

قال ابو عبيد (١) : وانما تكلمت العلماء في الخمس واستجازوا صرفه عن الأصناف المسماة في التنزيل الى غيرهم ، اذا كان هذا خيراً للاسلام واهله وارداً عليهم وكانت عامتهم الى ذلك الوجه أفقر ولهم اصلح من ان يفرق في الأصناف الخمسة فعند ذلك تكون الرخصة في النفل من الخمس و يكون حكمه الى الامام لأنه الناظر في مصلحتهم والقائم بأمرهم ، فأما على محاباة أو ميل إلى هوى فلا .

وهكذا يرى ابو عبيد أن الخمس لتحقيق مصالح المسلمين فحيثما وجدت المصلحة كان هنالك سبيل صرفه . وتقدير المصلحة يرجع الى نظر ثاقب وميزان دقيق . وهذا تحقيق معنى قوله عليه الصلاة والسلام « ما لي مما افاء الله عليكم الا الخمس . والخمس مردود فيكم » وليس الخمس هنا خمس رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكنه الخمس الذي يخص بيت مال المسلمين .

ويتلخص من كل هذا أن التنفيل أمره الى الامام يتصرف فيه بما يريه الله مما يستقيم به امر المسلمين و يصلح به حالهم فإذا وعد وقى بما وعد وان لم يعد ورأى ان يخص بعض المقاتلين بزيادة فله ان يفعل ذلك من اربعة اخماس الغنيمة او من خمس الخمس الذي جعله الله لله وللرسول .

### في تربية الآيات الكريمة

النفوس الكريمة اذا اصابتها مس الخطأ او ما يشبه الخطأ كان ذلك عاملاً في دفعها الى الخير ذلك ان النفوس التي ارفه احساسها وشحذ وجدانها ونما اعتبارها لذاتها في جانب الحق يؤلمها ايلاًما شديداً ان يبدو منها في ساعة من ساعات انفعالها ما ينزل بها عن المستوى الرفيع الذي وضعت نفسها فيه ومثل هذه النفوس لا تنسى خطأها أبداً ولكنه يؤرقها و يسدها ويجعلها تتقلب على عتاب الضمير وتتلظى بنار حسابه وكل ذلك ينشأ لديها يقظة غريبة و يباعد بينها وبين الفتور الذي تشعر به النفوس عادة إذا رضيت عن سعيها .

(١) : قال ابو عبيد في كتاب الأموال ( ص ٣٢١ ) حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور قال سألت ابراهيم عن الامام يعث السرية قال ان خمس وان شاء فقلهم اياه كله .

(٢) : كتاب الأموال ص ٣٢١

ومن الأمثلة السامية التي توضح هذا المعنى الصحابي الجليل ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، لقد قال كلمة وكانت كلمته موجهة الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وكان في الكلمة جرأة وصراحة نسي معها مقام رسول الله عليه صلوات الله ونسي معها انه بشر لا كسائر البشر ولكنه بشر يوحى اليه ونسي معها أنه قائد أمين خبير يعلم من الأمور ما لا يعلمه وما لا يجب أن يعلمه كل فرد من افراد جماعته .

لقد قال رسول الله عليه صلوات الله في غزوة بدر من لقي منكم العباس فلا يقتله والرسول لا يعرف محابة عليه الصلاة والسلام ولكنه يقدرها و يضعها في موضعها .

كان العباس مسلماً ولكنه كان يكتّم ايمانه فقد روى ابو رافع مولى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الاسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت فكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتّم إسلامه وكان ذا مال متفرق في قومه فخرج معهم إلى بدر وهو على ذلك (طبقات ابن سعد) (ج ٤ ص ١٠) . فلما كانت المعركة قال عليه الصلاة والسلام من لقي العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقتله وإنما أخرج مستكرها .

كانت كلمة النبي صلى الله عليه وسلم استثناء وكل استثناء في الميزان الظاهر خرق لقاعدة العدالة العامة التي لا تعرف ترجيحاً ولا تعرف تفريقاً . وما كان اصحاب رسول الله عليه صلوات الله ليمسكوا ألسنتهم عن حق يرونه وقلوبهم تنطوي على زغل او دخل ولكن الذي في قلوبهم كان يدعو على السنتهم وهكذا كانت اجابة ابي حذيفة رضي الله عنه لرسول الله اجابة الذي لا يعرف نفاقاً ولا يحسن مداراة ولا مواربة ولا يخفي ما في نفسه قال : نقتل آباءنا وابناءنا واخواننا وعشائرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لأجمنه بالسيف فوالله لقد نافق فهدأ رسول الله من حدة عمر وكلم أبا حذيفة الثائر بما أقنعه وندم أبو حذيفة على مقاله فكان يقول والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة فقتل يوم اليمامة شهيدا (طبقات ابن سعيد ج ٤ ص ١١) .

طلب أبو حذيفة الشهادة في كل مكان في أحد وفي حنين كما يثبت ثبات الراغبين

بالموت وفي المغازي كلها ، وفي اليمامة انكشف المسلمون أول الأمر وخرج خالد من معسكره وصاح بالمسلمين يا لآل أنصار والمهاجرين وثبت المسلمون واستشهد زيد بن الخطاب وحمل اللواء أبو حذيفة لواء المسلمين وصاح في اخوانه « يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال » واستشهد أبو حذيفة وغلب المسلمون وقتل مسيلمة الكذاب .

لقد عاش أبو حذيفة وهو يقول ما انا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا الا ان يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة حتى قتل يوم اليمامة شهيدا .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه من النماذج المرهفة شديدة الاحساس قال ابن عباس : قلت لعمر : مضر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح ، وفعل بك وفعل ، فقال لوددت أنني أنجم منه لا أجر ولا وزر ولما حضرته الوفاة قال : بالامارة تغبطوني ؟ فوالله لوددت أنني أنجو كفافا لا علي ولا لي (طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٥١) .

ولما أسلم رضي الله عنه كان همه أن يكفر المواقف الشديدة التي وقفها في إيذاء اصحاب رسول الله . اخرج ابن اسحاق عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لما أسلم عمر رضي الله عنه قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له جميع بن معمر الجمحي فغدا عليه ، قال عبد الله وعدوت أتبع أثره وانظر ما يفعل — وانا غلام اعقل كل ما رأيت — حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أنني أسلمت ودخلت في دين محمد صلى الله عليه وسلم قال فوالله ما راجعه حتى قام يجرداءه واتبعه عمر واتبعته انا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة ألا إن ابن الخطاب قد صبأ قال يقول عمر من خلفه كذب ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله الا الله وان محمدا رسول الله ، وثاروا اليه فما برحوا يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم قال وطلح ( أي أعيا ) وقاموا على رأسه وهو يقول افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله ان لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة (ضرب من برود اليمن) وقبص موسى حتى وقف عليهم فقال ما شأنكم فقالوا : صبأ عمر قال : فه رجل اختار لنفسه أمرا فما ذا تريدون أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا خلوا عن الرجل قال فوالله لكأنما كان ثوبا كشط عنه قال عبد الله فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة يا أبت من الذي زجر القوم

عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال ذلك أئبي بني العاص بن وائل السهمي . يقول ابن كثير في البداية (ج ٣ ص ٨٢) وهذا إسناد جيد قوي .

ومن أولئك الذين أرهف احساسهم فلا ينسون أيامهم الماضية وإن عفا الله عنها  
عكرمة بن أبي جهل :

وقف في اليرموك يقول : قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن وأفر منكم اليوم ... ثم نادى من يبايعني على الموت فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور وابنه عمر بن عكرمة في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا أمام فسطاط خالد ، وكان عكرمة يواجه الأسننة والرماح حتى جرحت صدره ووجهه فقبل له اتق الله وارفق بنفسك فقال كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها لها وأنا أستبقها الآن عن الله ورسوله لا والله لا أفعل ابدا .

يقول الدكتور علي سامي النشار<sup>(١)</sup> لقد كان في حياة عكرمة آية للناس آية الضمير المعذب المرهف فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن بالله أدرك بروحه التي تفيض إحساساً مقدار أخطائه فأراد أن يعفي على آثارها ما استطاع فصلى وصام وأنفق وجاهد ثم بعث نهرا من دمه ودم قومه كالأتي ( السيل ) ونام آخر الأمر مطمئنا طمأنينة الشهداء والصديقين . هكذا كان يخطيء أصحاب رسول الله وهكذا كانت خطيئاتهم تأتي بالمعجزات وهكذا كانت خطيئة أصحاب رسول الله حين تنازعوا على غنائم بدر إن كان هنالك خطيئة .

### قيمة التجارب في حياة الأمة

التجارب أئمن ما في الحياة لأنها تكون رصيد الفرد من الخبرة وذخيرته النفسية التي يقابل بها الشدائد و ينازل بها الخطوب .

ومن الخير أن تتلَوّن التجارب وتتنوع الحوادث و يتقلب المرء في احضان النعم تارة و يذوق مرارة العناء وشظف العيش تارة اخرى .

وتاريخ الأمة شبيه بتاريخ الفرد من حيث ان الأمة تقابل الساعات الحاسمة

(١) : شهدا الاسلام

بالرصيد الذي تكوّن لديها في أيامها الماضية وخبراتها السابقة وكلما تعددت تجارب الأمة وتنوعت كان ذلك أدعى إلى صلابة عود أبنائها وقوة شكيمتهم .

يوضح هذا المعنى أتم توضيح قوله تعالى « وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ويمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

ولقد تنوعت التجارب التي مرت بها الأمة الناشئة في عاصمة الدولة التي انشأها محمد بن عبد الله عليه صلوات الله : مر فريق المهاجرين بتجربة ترك الديار وهجر الأوطان وخروج الواحد منهم عن داره وماله في سبيل اللحاق برسول الله في دار هجرته ومر فريق الأنصار باستقبال إخوانهم ومشاطرتهم ديارهم وأموالهم واشترك هؤلاء وهؤلاء طعم الأخوة والتعاون في الصبر على البأساء والأواء . الشدة والحنة

ولم يمر عام وبعض عام على الجماعة الناشئة حتى مرت بتجربة حاسمة في يوم عظيم سماه القرآن الكريم يوم الفرقان وفي ذلك اليوم عرف المؤمنون نصر الله ومعونته معرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وغلبت الفئة الكثيرة وبعد عام آخر مرت الجماعة بتجربة من نوع آخر وكانت التجربة الثانية تجربة شديدة مريرة فوّت المسلمون فيها النصر بعد أن أدركوا النصر ووقعوا في شدائد تقطع فيها الأعناق وينوء بحملها الأبطال وخرجوا وقد صهرت التجربة نفوسهم بأثر عميق وعظة بالغة ، وتتابعت الدروس وتنوعت التجارب وانقضت عشر سنوات بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام ما تعادل في عمر الأمم بمئات السنين ولا آلافها ذلك انها حقبة من الزمن لامة مضيئة فذة في عمر التاريخ لا يمكن أن يقاس بها الحقب ولا يمكن أن تشبهها الأيام .

ولا نستطيع ان ندرك تلك العبر بكاملها ولا نستطيع ان نصل الى غاية شأوها ولكننا نجد لتدركنا نفحة من نفحات معانيها ، ولقد سجلت الآيات الكريمة هذه المعاني فامتزجت هذه الحياة التي قضاها اصحاب رسول الله عليه صلوات الله معاني الخلود إذ سجلت وبقيت آيات تتلى تتصل بسيرة محمد عليه صلوات الله وسلامه واصحاب محمد عليهم رضوان الله .

كانت التجربة الأولى التي مر بها الصحب الكرام تجربة النصر يدركه اصحاب بدر وهم قلة جياع عراة حفاة وكانت تجربة وطدت معاني الايمان في القلوب وادرك المؤمنون معها إدراكا عميقا قوة الحق وشدة وطأته وأيقنوا أن الله معهم وأن القوة بأيديهم بإذن الله وان المشركين مها عظم بأسهم لا قبل لهم بمن يؤيده الله بملائكته وجنده .

كل ذلك قد تم لثلاثمائة نفر يز يدون قليلا لو وزنوا بأهل الأرض جميعا لرجحوا عليهم هؤلاء هم اصحاب بدر الذين هم خير اصحاب رسول الله جميعا الذين قال فيهم رسول الله ما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على اصحاب بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وليس هؤلاء الثلاثمائة على درجة واحدة من الايمان وليسوا على درجة واحدة من فهم الأمور .

### قاعدة عامة في التربية القرآنية الحرص على سلامة الجماعة

ومن الطبيعي جدا ان يقع من بعضهم بعض هنات تنزل بهم عن المستوى الايماني العالي الرفيع ونزول افراد قلة يؤثر في مستوى الجماعة كله ذلك أن الجماعة كلها جسم واحد ، قلت مرة لطبيب انكليزي في انكلترا انكم تعالجون غير الانكليز المقيمين بين أظهركم مجانا وتقدمون لهم العلاج مجانا وتعنون بهم كما تعنون بالمواطنين تماما فما حملكم على ذلك ؟ قال : إنا نفعل ذلك لنحفظ انفسنا وابنائنا .

كانت كلمة ذات وقع عميق في نفسي ، لقد كان الاسلام أحرص من هؤلاء بمئات المرات منذ ١٤ قرنا على سلامة الجماعة وحفظها من الأفراد الذين يمكن أن يهبطوا بمستوى الجماعة ولو هبوطا يسيرا .

كانت تربية هؤلاء تربية تجمع بين القوة والحزم والبراعة التامة والأسلوب الهادئ الرصين الرفيق الحكيم وكان الغرض من هذه التربية شحن النفوس جميعا بشحنة ايمانية وجدانية ينجذب فيها الضعيف في الجو الذي ملئت ارجاؤه بالمعاني السامية وعبق فيه شذى الإيمان الرفيع فإذا بالجميع يحملون وجدانا واحدا و يشعرون شعورا واحدا ، وإذا بالضعيف يسير مع الركب تغشيه موجة الايمان الضافية .

لا يخاطب القرآن الكريم فردا من المؤمنين بخطيبته أو ضعفه ولكنه يخاطب المؤمنين جميعا حين تقع الهفوة من فرد أو جماعة يسيرة وهذا أسلوب من أروع الأساليب وأبلغها في التربية وأحكمها ، وفي هذا الأسلوب إشارة واضحة إلى أن الجماعة جسم واحد وكون الجماعة جسما واحدا له نتيجتان هامتان متقابلتان : فلدَى وجود خلية واحدة مريضة إما أن يغفل الجسم عن الخلية المريضة فإذا بمرضها يمتد الى جاراتها ويسري ويستفحل أمره وإما ان يكون الجسم يقظا يقظة تامة حساسا أشد الحساسية يدرك مرض الخلية فيمدها بالحال بالاسعاف والأعوان فتبرأ وتلحق بالركب .

حين تقول الآيات الكريمة يسألونك فليس المعنى ان السؤال وقع من الاصحاب الثلاثمائة ولكن الغالب أن السائل واحد يمثل نفسه أو يمثل جماعة يسيرة وحين تقول الآيات الكريمة يجادلونك فالأمر كذلك وقد صرحت ههنا الآيات ان الذين جادلوا كانوا فريقا من المؤمنين قال تعالى : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق » الى آخر الآية الكريمة .

وكانت التجربة الأولى التي مر بها أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وعليهم رضوان الله تجربة النصر يدركه أصحاب بدر وهم قلة وهم كما وصفهم القرآن ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة .

ولقد تنزلت سورة الأنفال أو سورة بدر على أثر غزوة بدر تربي أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه التربية التي يحتاجها موقف النصر والتربية في هذا الموقف تختلف عن التربية في مواقف أخرى كأحد وحنين والأحزاب ذلك أن كل مشهد من هذه المشاهد كان له طابعه وكانت له ميزاته .

وهناك ملاحظتان عامتان تنطبقان على المشاهد جميعها الأولى ما سبق ان ذكرناه من أن القرآن الكريم لا يخاطب فردا من المؤمنين بخطيبته أو ضعفه لكنه يوجه الخطاب الى الجماعة كلها وهي نظرة في منتهى السمو في الناحية الاجتماعية تؤكد وحدة الجماعة وكتلتها وتماسكها .

قال تعالى « و يوم حنين اذ أعجبتكم كثرتمكم » وجه الخطاب للجماعة كلها وقال



تعالى في احد « حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون »  
وقال تعالى في تبوك : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله  
اثاقلتم الى الأرض » وفي هذه الآيات كان الذين أعجبتم الكثرة نفريسير والذين فشدو  
وتنازعوا كذلك والذين اثاقلوا الى الأرض فريق من المؤمنين بدليل قوله تعالى ( من بعد  
ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ) .

### التربية عملية ميدانية :

والملاحظة الثانية ان التربية القرآنية كانت تربية علمية في ميدان الجهاد لم تنزل  
الآيات والأصحاب في قاعة محاضرات يستمعون كما يستمع شباننا وقلوبهم لاهية يختل  
سويداءها شغلها ومهامها خارج القاعات ، ولم تكن تنزل الآيات الكريمة والأصحاب  
في خلواتهم مشغولون بجهاد نفوسهم وتربيتها تربية سلبية انعزالية ولكن الآيات الكريمة  
تنزلت وقلوبهم منصهرة بحوادث المعركة وهي معركة موت واستشهاد ونصر وغلبة وبيع  
للأنفس في سبيل الله .

ان ساعة في مثل هذه المواقف تعدل عشرات السنين ومئات السنين في مواقف  
أخرى لا يطل فيها شبح الموت ولا يخيم سلطانه .  
إن التربية الحديثة تنادي بالتربية العملية ولكنها هذه التربية التي نتحدث عنها  
ليست تربية عملية فحسب ولكنها تربية والنفوس فيها قد بلغت ذروتها في بذل أقصى  
طاقاتها وأكبر استعداداتها .

ولقد انحرفت هذه الروح الأولى بعد القرون الأولى التي هي خير القرون ونمت لدى  
المسلمين مجاهدات ورياضات داخلها زيف كبير ومازجها انحراف غير يسير وفارقت  
المعاني الأولى التي رُبِّيَ فيها أصحاب رسول الله على حمل الرسالة وبث الدعوة والتأسي  
برسول الله عليه صلوات الله .

إن التربية الحقيقية هي تربية الجهاد في ميادين القتال ومنذ فارقت الأمة هذه  
التربية وعوضت عنها معاني أخرى فارقت الهدى الصحيح وفارقت قوتها وعزتها .

وبعد الملاحظتين السابقتين نقول : بدئت السورة الكريمة التي نزلت على اثر غزوة بدر بالعتاب وانتزعت المسلمين جميعا من المستوى العادي الى مستوى إيماني عالٍ سامق رفيع وكل ذلك لمهمة عالية يقوم هؤلاء الأصحاب و يقدمونها للإنسانية و يضربون مثلا خالدا لكل من اراد ان يلحق بهم من بعدهم ، كان له طابعه وكانت له ميزاته .

ان التربوية في بدر كانت تربية للجماعة حين يصيبها النصر ويمكن ان نلاحظ بأن الغرض ههنا الحفاظ على النصر ( اولا ) وصون الجماعة من غوائل الظفر ( ثانيا ) والاستفادة من موقف النصر ( ثالثا ) لدفع الجماعة دفعا قويا الى نصر يليه نصر من بعده نصر .

### غوائل النصر

أما غوائل النصر فالاغترار بالقوة وبطر النعمة والاغترار يؤدي الى الركون والاستسلام وفتور العزائم وكل هذا يؤدي الى ضياع الجماعة ضياعا تاما وإن نصرا كهذا النصر الذي يؤدي الى فتور العزائم خير منه الف مرة ضياع النصر .

ان المنتصرين في الحرب من شأنهم أن يملؤوا الدنيا عجباً وضجيجاً ومن شأن هؤلاء أن يكون نصرهم كاذباً سريع الذهاب .

والآيات الكريمة بعد بدر لا تذكر شجاعة المؤمنين ولا تصف إقدامهم ولا تشيد بمواقفهم بل لكأنني بالآيات بعد أحد تذكر عن بعض المؤمنين ما لم تذكره الآيات الكريمة بعد بدر وهذا يوحي بأن ما تم من البطولات في أحد لم يتم مثله في بدر قال تعالى في سورة آل عمران في الآيات التي تنزلت على اثر غزوة احد : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا اجر عظيم »

وهذه الآيات الكريمة تذكر بأولئك الذين باعوا انفسهم وهم محيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو المؤمنين ان يرجعوا اليه ليرأب الصدع وليعيد الى الصف وحدته وليجمع شمل الجماعة الممزقة : الرسول ثابت ثبات الجبال وهؤلاء الأبطال من حوله يفتدونه بصدورهم ونحوهم و يتساقطون حوله بعد أن يأتوا بما لا قبل للناس به وبثبات

هؤلاء صدت هجمات المشركين في احد وكتب الله السلامة لأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام .

لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدر ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً يحمل المؤمنين على الرجوع الى أنفسهم والاستحياء من ربهم وهناك نقاط أرسلت الآيات أضواءها عليها وبينت نواحي الضعف فيها بيانا جلياً قويا بتصوير ما في النفوس ووصفه وصفاً دقيقاً رائعاً تشاهد العين فيه الحركات والخلجات ، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجة الايمان التي يهفوا قلبه للوصول إليها .

ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم ويشعر الذوق السليم ههنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب ولكنه بتصوير ما في النفوس تصويراً يوقن معه العادي من الناس أنه ما كان لمؤمن صحيح الايمان ان يتصف بها ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الايمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أى إسفاف « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون »

ما ذكرت الآيات عتاباً ولكنها ذكرت واقعاً وكان ذكر الواقع ابلغ من كل عتاب . قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال » وفحوى الخطاب ما كان لهم ان يسألوا هذا السؤال . وقال تعالى : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون »

وهذا وصف بالغ الغاية في تصوير الجزع والرعب صورة أناس يساقون الى الموت سوقاً لا مفر منه وهم يرون الموت بأعينهم .

وقال تعالى : « وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم (١) » وهذا تصوير لضعف في النفوس .

ليس عجباً أن يغلب ثلاثمائة رجل على ضعفٍ وقلّة في الزاد والعتاد والأهبة ألف رجل هم من أشد الرجال قوة ومراساً ثم لا يذكر عملهم بشيء، وإن ذكر فيذكر فضل الله

(١) : والشوكة القوة وتطلق على كل حديد من السلاح .

يقول تعالى: « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وهذه الآية الكريمة تستل من المؤمنين كل رؤية للنفس وكل نزعة تريد أن تستعلي وتملاً الدنيا بقولها « فعلت وفعلت »

وهكذا يقدم المؤمن نفسه ودمه ويقدم أخاه وابنه ثم يتطامن خاشعاً خاضعاً لا يشمخ بأنفه ولا يسمح لنفسه بأن تشعر باستعلاء في الأرض أو كبر على الناس وهذه هي الإنسانية بأسمى معانيها وليس هذا لأحد إلا للمؤمن .

دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أي شعور بالاستعلاء وصرفت عن أنفسهم كل معنى من معاني الغرور وبسطت أمامهم نفوسهم أو نفوس فريق منهم وما بينها وبين الايمان الصحيح من درجات وإد جاء ذكر الثناء مصوراً بصورة المن والفضل بما انعم الله ليس ثناء مستقلاً ، الثناء عليهم ان الله منّ عليهم فاستجاب دعاءهم ونزل عليهم الماء ليظهرهم وأنزل الملائكة لتبتهم ، وجمع بينهم وبين عدوهم لأمر كبير دبره الله وقدره .

« وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » .

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم »

« وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم »

« اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام »

« اذ يوحى ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا »

ثناء عن طريق الاشارة

في الآيات ثناء بأن الله جل شأنه قد اختار هذه الصفوة لأمر عظيم فليس بدعاً أن تغلب المشركين وإن كثرت عددهم ، وليست هذه كل مهمتها ولكنها أعظم من ذلك بكثير مهمتها الدنيا بأسرها والناس جميعاً ، وكل هذا لا بد له من تربية قوية جدا تجلت في الآيات الكريمة بعتاب لتنزل بعض المؤمنين عن مرتبة الايمان الشامخة .

وثناء عن طريق الاشارة لا بصريح العبارة بل هو في الواقع بيان لمن الله وفضله جل شأنه وحسن تدبيره وعظيم لطفه وعنايته بهم ، وإعقاب ذلك كله نداءات متوالية ودفع

عظيم يحدو بهم الى السير بعيدا في مراقٍ لا يصعد اليها الا الخيار من الخيار من اصطفى الله .  
والأمر الثاني وحدة الجماعة وقوة تماسكها وولاية أفرادها بعضهم لبعض .

وقد قدمت الآيات الكريمة هذا الأمر وهو وحدة الجماعة ومهدت به لذكر الأمر الأول وكان أول ما طولب به الأفراد تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وقد طولبوا بهذا كله إن كانوا يحملون رسالة الايمان فرسالة الايمان تستلزم هذه المعاني استلزاما ضروريا. وقوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » سؤال لا يمكن ان يجيب المؤمن عنه الا بالاجاب اذ ليس من السهل ان يتخلى المؤمن عن ايمانه واذا أجاب فلا بد من ان يحمل اعباء هذا الايمان .

بدئت السورة الكريمة بالدعوة الى إصلاح ذات البين دعوة صريحة حاسمة وختمت السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض » والآية الكريمة في ختام السورة تقرر واقعا وفي تقرير هذا الواقع ابلغ اسلوب في فرضه والمطالبة بالتزامه ذلك ان تقرير هذا الواقع يدل على ان حمل رسالة في الجماعة متوقف على هذه الولاية فإن وجدت وجد الايمان وإن عدمت تعرضت هذه الرسالة لصدع كبير .

اما الموضوع الأول وهو حمل الرسالة فقد عاجلته الآيات الكريمة بعد الدعوة الى التقوى واصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وقد قرنت الآيات الكريمة بين الموضوعين وربطت بين السياقين وجعلت احدهما شبيها بالآخر إذ جاءت كاف التشبيه في الوسط تعلن مساواة احدهما للآخر قال تعالى « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون » . ثم انطلقت الآيات الكريمة في بناء حمل الرسالة في نفوس الاصحاب بناء راسخا كاملا .

يقول الشيخ شلتوت في تفسيره : « بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم في قسمتها وسؤالهم عنها فسأقت في ذلك أربع آيات عاجلت بها نفوس المؤمنين وتطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع الى المادة » .... الى ان يقول : « ولأهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة وان كان اختلافهم في قسمة الأنفال

متأخرا في الوجود عن اختلافهم في الخروج الى بدر وقتال الأعداء وقد عرفنا من ستة القرآن في ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها...»

على ان في موضوعنا هذا فائدة اخرى للبدء بمسألة الأنفال وهي المسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذي كفله الله للمؤمنين وليس من تربية النفوس ان نبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفرع والتردد امام وسائل العزة والشرف متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة فجاء البدء بالحديث عن الأنفال أشبه بما يقولون من « براعة المطلاع » التي تشوق السامع وتدفعه الى التحلي بالأوصاف المذكورة للمؤمنين حتى يفوزوا بالنصر والغلب .

ولا كذلك اذا بدئت بعلاج ثقلهم في الخروج الى الغزوة وانظر كيف يكون وقع المطلاع اذا جاء على هذا الوجه « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » .

ونوافق الشيخ رحمه الله على ما ذكر من عدم اهتمام القرآن بالترتيب الزمني والتربية الحديثة تعرف هذا الموضوع ولا تعطي الأهمية الكبرى في وضع المناهج وترتيبها للترتيب المنطقي ولكنها ترى اتباع ترتيب حيوي وذلك بالبدء من نقطة تحتل مركز الانتباه وتسيطر على اهتمام الأفراد وتوجه تفكيرهم .

وليس من عجب أن تهدي التربية الحديثة بعد قرون متطاولة الى بعض امور يسيرة في التوجيه ووسائل التربية سار على نهجها القرآن في عصور لم تكن تعرف ثقافة ولا علما ، على أن الفارق ما يزال كبيرا جدا لقد استعمل القرآن الوسائل الصحيحة لأشرف الغايات وأجلها وتربية هؤلاء مها دقت أساليبها ليست الا لخدمة مبادئ وصفوها من ديمقراطية أو اشتراكية وغيرها لا تنطوي إلا على دمار البشرية .

كانت النقطة الهامة التي كانت موضوع الأخذ والرد في المعسكر الاسلامي كيف توزع الغنائم بين المقاتلين أعطى الشبان ما وعدهم رسول الله ام يسوى بينهم وبين الشيوخ ومن الطبيعي أن افراد المعسكر جميعا شاركوا في الاهتمام في الموضوع وان كانت المناقشة دائرة بين قلة من الأفراد .

ومن هنا انطلقت الآيات الكريمة. فالموضوع كان موضوع الساعة بعد الموقعة والى جانب كونه موضوع الساعة كان من الأهمية بمكان ذلك أنه يهدد الجماعة ويهدد الظفر الذي أصابته الجماعة ولذا كان حرياً بأن ينال قسطه من الاهتمام ويُجَعَلَ مركز البحث وأول نقاطه ، وقد عالجته الآيات الكريمة معالجة قوية حاسمة ثم انتقلت الى الموضوع الثاني فأفاضت في معالجته .

كانت معالجة الغنائم سريعة ولكنها كانت بمنتهى القوة والحزم إذ أوضحت ان الموضوع موضوع ايمان فإما استمسك بالايمان واداء لشروطه واما اهمال وضياع لا يرضى بها المؤمن بحال ، ثم كانت معالجة ما وقع للمؤمنين من تردد في مقالة الموت واستجابة لله وللرسول وكانت معالجة ضافية تنوعت فيها الأساليب وتعددت الادلة وعرضت فيها خفايا النفوس وخلجات القلوب والأوضاع المختلفة والاحوال المتباينة حال المسلمين من قبل وحال المشركين مع رسول الله ومع المؤمنين وذكر ما امتن الله به على المؤمنين من اسباب النصر ثم نوذي المؤمنون نداءات قوية متنزلة من عل ألا يفروا من الموت اذا لاقوا الموت ، وبين الموضوعين جزء مشترك والتوجيه فيها مشترك والتداء واحد هو الايمان بالله ورسوله فهو يؤدي الى طاعة الله ورسوله والاستجابة لله ورسوله ، وهو يؤدي الى عدم تعلق العبد بالدنيا فما عند الله خير وأبقى ولن يضيع الله تباركت اسماؤه عبداً يعمل في سبيله لن يضيعه في الدنيا ولا في الآخرة ، وعدم الخوف من الموت لأن تقديم المؤمن نفسه في سبيله تعالى اعظم شرف له وهكذا يدور البحث حول الجهاد بالنفس والمال وتقديم الأموال والأنفس وقد بدأت الآيات بتربية الجهاد بالأموال وثنت بتربية الجهاد بالأنفس .

كان موضوع الغنائم بعد انتهاء المعركة موضوع الساعة ومن طبيعة النفوس بعد الظفر الذي لم تكن تحلم به والغلبة على العدو التي لم تكن تتوقع من طبيعة النفوس ان تدركها نشوة الظفر وان يكون لهذه النشوة شيء من الأثر باعتزازها بما صنعت واعجابها بما قدمت ولعل من آثار ذلك ونتائجه ما وقع بين الأصحاب من سؤال ونقاش .

وإنها لتجربة يمر بها الأصحاب رضوان الله عليهم لا بد من الاستفادة منها كان الذي حصل أثراً من آثار غريزة الحرص وغريزة الاستعلاء وكانت العوامل المساعدة له من نوعين احدهما الحاجة الملحة التي كانت تضع ثقلها على الأصحاب جميعاً وثانيها اعتزاز الفرد بما قدم من بلاء حسن .

وعلى الآيات الكريمة ان تصرف هذه الفرائض عن وجهتها وان تصعد بها فتبذلها برغباتها ورغبات اسمى منها .

الآيات الكريمة تذكر هذه النفوس بايمانها بالله رها وهنا تذوب الرغبات وتضمحل النزعات وتتضاءل الدنيا و يصغر الاعتزاز بكل شيء سوى الاعتزاز بما عند الله .

الأنفال لله ، والرسول ، يضعها حيث شاء و يوزعها كيف يشاء فأربحوا قلوبكم من العناء في التفكير فيها ، ووجهوا همكم لأمر أعلى وأكبر ، وجهوا همكم الى بناء الجماعة التي تنتمون اليها ليكون بناء قويا متماسكا يواجه الدهور و يواجه الناس جميعا إن تفكيركم وحده بالأنفال تنزل عن مرتبة الايمان الرفيعة التي يجب ان تتبوؤوها ( فاتقوا الله ) واعلموا ان مثل هذا التفكير يعرض ببيان جماعتكم بشيء من التصدع ( فاتقوا الله ) وانزعوا عن مثل هذا التفكير ( واصلحوا ذات بينكم ) .

وماذا فعلت هذه الآيات في قلوب اصحاب رسول الله ؟ لقد انتزعت بلا ريب كل حرص وكل خلاف وسمت بالقلوب الكريمة الى امر أجل وأعلى .

وكان من بعد هذه الآيات الكريمة وصف لما تم في المعركة من كراهية فريق من المؤمنين للقتال ، واستغاثة واستجابة وإمداد بالملائكة ونصر وكان من بعد ذلك نداءات من عند الله موجهة الى الذين قبلوا الاسلام ديننا وحملوا راية الايمان ودعوة الايمان وكانت نداءات متكررة كل نداء فيها يصدع الجبال .

ترى ماذا فعلت هذه النداءات في قلوب الأصحاب الكرام ؟ كانت نتيجة هذه التربيية ان هانت الدنيا وهانت الأموال وهانت النفوس وعز الايمان وعزت العقيدة وارتقت القلوب وتآخى المؤمنون .

**التقوى جماع الخير كله**

قال تعالى « فاتقوا الله »

كان اول ما دعى اليه الأصحاب رضوان الله عليهم بعد ان اعلموا بأن الانفال لله والرسول تقوى الله والتقوى جماع الخير كله وهي وصية الله في الأولين والآخرين والأمر بها شأن عام على السنة جميع الرسل وموجبات تقوى الله والخوف منه عامة في جميع الأمم



وبذلك التقت الرسل اولهم مع آخرهم على قوله تعالى أفلا تتقون ، فاتقوا الله واطيعون .  
ومعنى اتقاء الله تعالى اتقاء عذابه وعقابه وانما تضاف التقوى الى الله تعالى تعظيماً  
لأمر عذابه وعقابه .

ودفع عذاب الله باجتناب ما نهى وأتباع ما أمر وذلك يحصل بالخوف من العذاب  
ومن المعذب يقول السيد رشيد رضا : « ان العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه  
عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة وكل منها يتقى بتجنب أسبابه وهي نوعان : مخالفة  
دين الله وشرعه ، ومخالفة سننه في نظام خلقه الى ان يقول : وذلك مبين في كتاب الله  
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وافضل ما يستعان به على فهم الكتاب والسنة واتباعهما  
سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء  
الأمصار .

### شأن المؤمن ان يتقي الله حق تقاته

يقول ابن كثير عند قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » قال ابن ابي  
حاتم حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن عن سفيان وشعبة عن زبيد اليامي عن مرة  
عن عبد الله بن مسعود ( اتقوا الله حق تقاته قال ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى  
وان يشكر فلا يكفر) .

يقول ابن كثير وهذا اسناد صحيح موقوف (١)

يقول ابن كثير وقد روى الحديث ابن مردويه (٢) من حديث يونس بن عبد الأعلى  
عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زبيد عن مرة عن عبد الله قال : قال رسول الله  
(١) : اما رجال اسناده فهم محمد بن سنان الباهلي وهو ثقة ثبت ( خ د ق ت ) وشعبة بن الحجاج  
الحافظ المتقن كان الثوري يقول فيه امير المؤمنين في الحديث ( ع )

وزبيد اليامي ثقة عابد ( ع ) ومرة بن شراحيل الهمداني هو الذي يقال له مرة الطيب لصلاحه وهو  
ثقة عابد ( ع ) وهو الذي يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه  
يقول ابن كثير وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود وعمرو بن ميمون الأودي مشهور ثقة  
عابد ( ع ) . جاء في تفسير ابن كثير حدثنا عبد الرحمن بن سفيان وهذا خطأ وصوابه عبد الرحمن وهو ابن  
مهدى عن سفيان وهو الثوري

(٢) : الحافظ الثبت العلامة صاحب التفسير والتاريخ وعمل المستخرج على صحيح البخاري وكان قياً

صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى و يشكر فلا يكفر و يذكر فلا ينسى » (٣)

قال ابن كثير: ورواه الحاكم في مستدركه (٤) من حديث مسعر عن زيد عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا فذكره ثم قال صحيح (٥) على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال « والأظهر أنه موقوف والله اعلم » (٦).

بعرفة هذا الشأن بصيرا بالرجال طويل الباع مليح التصانيف ٣٢٣ - ٤١٠

(٣): وهذا الاسناد اسناد صحيح ايضا فيونس ثقة م س ق وعبد الله بن وهب صاحب مالك فقيه ثقة

حافظ عابد (ع) ومدار السند على زيد عن مرة ايضا

(٤): في كتاب التفسير ١٢ / ٢٩٤

(٥): ووافقه الذهبي

(٦): واقول: قد وافق الذهبي الحاكم في تصحيح الحديث وأنه على شرط الشيخين وأما قول ابن كثير « الأظهر انه موقوف » فالذى يبدو ان الذى حمله على ذلك ان مدار الحديث في كل رواياته على مرة بن شراحيل فهو الذى رواه عن عبد الله بن مسعود واكثر الرواة عنه وقد ذكرهم ابن جرير الطبرى قد روا الحديث موقوفا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

والفرق بعيد بين أن يكون الحديث من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام فهو من مشكاة النبوة وعلينا حينئذ أن نأخذ به على أنه شرع من عند الله معصوم من الخطأ وبين أن يكون من كلام الصحابي فهو فهم للصحابي رضي الله عنه لكلام النبوة ومعاني النبوة واذا ثبت ان قولنا من فهم الصحابي ورأيه واجتهاده فليس الأخذ به واجبا وليست العصمة له من الخطأ ثابتة ، وكان الإمام أحمد رحمه الله اذا وجد لبعض الصحابة فتوى لا يعرف له مخالف فيها لم يعدها إلى غيرها فإذا اختلف الصحابة تخير من اقوالهم ما كان اقربها الى الكتاب والسنة ولم يخرج عن اقوالهم . يقول ابن القيم في اعلام الموقعين (ج ١ ص ٨٠) . قال الشافعي رحمه الله في رسالته البغدادية التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني عن الصحابة رضوان الله عليهم .

أدوا الينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عاما وخاصا وعزما وارشادا وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا ، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمرنا استدرك به علم واستنبت به وآراؤهم لنا أحد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا....

اقول: الذى يبدو ان الذى حمل ابن كثير على قوله الأظهر وقف الحديث السابق على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن اكثر الرواة رواوا الحديث عن مرة بن شراحيل موقوفا على عبد الله بن مسعود

وقال القرطبي :

روى البخاري عن مرة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر وقال ابن عباس هو ألا يعصى طرفة عين ، وذكر المفسرون انه لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل « فاتقوا الله ما استطعتم » فنسخت هذه الآية ، عن قتادة والربيع وابن زيد يقول القرطبي : وقيل ان قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » بيان لهذه الآية والمعنى فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم يقول القرطبي وهذا أصوب لأن النسخ انما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى .

وقال ابن الجوزي (١) قال ابن عقيل ليست منسوخة لأن قوله ما استطعتم بيان لحق تقاته وأنه بحسب الطاقة فمن سمي بيان المراد نسخا فقد اخطأ ، وهذا في تحقيق الفقهاء تفسير مجمل وبيان مشكل . وذلك ان القوم ظنوا ان ذلك تكليف ما لا يطاق فأزال الله إشكالهم وبين أنه جل شأنه لم يرد بقوله تعالى ( حق تقاته ) تكليف ما ليس في الطاقة وقال ابن الجوزي في « عمدة العالم الراسخ والناسخ » في الآية قولان : أحد هما انها منسوخة والى هذا ذهب الربيع بن انس وابن زيد ومقاتل بن سليمان ومن نصر هذا القول قال : حق تقاته هو القيام له جل شأنه بجميع ما يستحقه من طاعته واجتناب معصيته قال وهذا امر يعجز الخلائق فكيف بالواحد فوجب ان تكون منسوخة وان يعلق الأمر بالاستطاعة .

والقول الثاني انها محكمة ومن نصر هذا القول قال حق تقاته هو اجتناب ما نهى عنه وامتنال ما امر به ولم ينه عن شيء ولا امر بشيء الا وهو داخل تحت الطاقة فقد فهم الأولون من الآية تكليف ما لا يطاق فحكوا بالنسخ ، وقد رد عليهم قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ويقول ابن جرير الطبري اختلف اهل التأويل في هذه الآية : اهي منسوخة ام

رضي الله عنه إلا الثوري عند ابن مردويه ومسعرا عند الحاكم فقد رواه الحديث كلاهما عن زيد عن مرة عن عبد الله مرفوعا إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه والثوري ومسعر ثقتان لا يتوقع منها الوهم وقد رواه الحديث مرفوعا فالأولى قبول روايتها وذلك هو مذهب المحدثين

(١) : انظر دليل الفالحين ١/٢٤١

لا ؟ فقال بعضهم هي محكمة غير منسوخة وعزا ذلك بإسناده الى ابن عباس وطاوس .

وقال آخرون هي منسوخة نسخها قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم »

وعزا هذا القول بسنده الى قتادة ثم الربيع بن انس ثم ابن زيد . ولم يقدم في ذلك رأيا . ويقول الشيخ احمد محمد شاكر رحمه الله في تعليقه :

ترك ابو جعفر رحمه الله ترجيح احد القولين على الآخر وكان حقا عليه ان يبينه وقد بينه ابو جعفر النحاس (١) في الناسخ والمنسوخ ( ٨٨ ، ٨٩ ) قال بعد ان ساق الأثر الذي جاء فيه عن عبد الله ( اتقوا الله حق تقاته ) قال « ان يطاع فلا يعصى و يذكر فلا ينسى و يشكر فلا يكفر » وبعد رواية قول قتادة في النسخ قال ابو جعفر : محال ان يقال هذا ناسخ ولا منسوخ الا على حيلة وذلك ان معنى نسخ الشيء إزالته والمجيء بضده فمحال ان يقال « اتقوا الله » منسوخ ولا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم مما فيه بيان الآية كما قرأ على احمد بن محمد بن الحجاج عن يحيى بن سليمان قال حدثنا ابو الأحوص قال حدثنا ابو اسحاق عن عمرو بن ميمون عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا (٢) أفلا ترى انه محال ان يقع في هذا نسخ ... قال ابو جعفر فكل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين ان يستعملوه ، ولا يقع فيه نسخ ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا » وكذا على المسلمين كما قال ابن مسعود « ان تطيعوا الله فلا تعصوه ، وتذكروه فلا تنسوه وان تشكروه فلا تكفروه ، وان تجاهد فيه حق جهاد »

واما قول قتاده مع محله من العلم انها نسخت فيجوز ان يكون معناه نزلت ( فاتقوا الله ما استطعتم ) بنسخه ( اتقوا الله حق تقاته ) وانها مثلها لأنه لا يكلف احدا الا طاقته .

(١) : ( ١٠٠ - ٣٣٨ هـ ) احمد بن محمد بن اسماعيل مفسر اديب له تفسير القرآن ، اعراب القرآن ، ناسخ القرآن ومنسوخه

(٢) : عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله الا يعذب من لا يشرك به شيئا قلت يا رسول الله افلا ابشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا . اخرجاه في الصحيحين .

قال القرطبي :

« وقد روى علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قال : قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته لم تنسخ ولكن حق تقاته ان يجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا بالقسط ولو على انفسكم وابنائكم ».

### من صفات المتقين الإيمان بالغيب

كان اول ما دعي اليه اصحاب رسول الله في التربية القرآنية بعد سؤالهم عن الأنفال « تقوى الله » وخير تعريف للمتقين ما جاء في كتاب الله فقد قال تعالى : « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب »

وقال تعالى « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »

فن صفات المتقين انهم يؤمنون بالغيب ومن صفاتهم انهم اذا ألمت بهم طائف من الشيطان ليحملهم بسوسته على معصية او لينزع بينهم لايقاع الخصومة والتفرقة تذكروا ان ذلك من عدوهم الشيطان واغوائه وتذكروا ما امر الله به في هذه الحال من الاستعاذة بالله والالتجاء اليه وتذكروا ايضا ما امر الله به وما نهى عنه وتذكروا وعد الله ووعيده ما وعد به المتقين وما توعد به العاصين وتذكروا عقابه جل شأنه وجزيل ثوابه .

يتذكر العبد المؤمن فاذا هو مبصر أى ذو بصيرة وعلم يربأ بنفسه ان يكون فريسة للشيطان أو يقع في بعض أحابيله ، وان الشيطان انما تأخذ وسوسته الغافلين عن انفسهم الذين لا يحاسبونها على خواطرها الغافلين عن ربه لا يراقبونه في اعمالهم .  
يقول السيد رشيد رضا في تفسيره الآية الكريمة :

« ولا شيء اقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب ومراقبته جل شأنه في السر والجهر ، واذا وجد الشيطان بالغفلة مدخلا الى قلب المؤمن المتقي لا يلبث ان يشعر به لأنه غريب عن نفسه ومتى شعر ذكر فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وان اصاب منه مرة قبل تذكره تاب من قريب » .

وهكذا وصف الله جل شأنه المتقين بأنهم يتذكرون والتعبير بإذا الفجائية يفيد سرعة رجوعهم الى الحق والى الخير وسرعة ادراكهم للموقف وما يحيط به وشعورهم بأنهم اشرفوا

على حافة الانزلاق ، وهذا الادراك للموقف يغير وضع المؤمن في الحال وتنقلب النفس التي كان الشيطان آخذاً باغوائها وتزين المحرم لها الى نفس يقظة تلوم صاحبها على ما كان منها وتنظر الى الأمر الذي اغريت به فتراه على حقيقته أسود كرهاً وتراه سبياً في شقائها فتسرع الى تجنبه لتنجو من الشر ولتنصرف بكل عزمها الى الخير .

هذا التذكر الذي وصفته الآية الكريمة ليس امرا يسيرا وليس بمقدور النفوس جميعا اذا تصدى الشيطان لاغوائها فأصغت اليه ان تعي امرها وتتذكر ربه ، فهناك نفوس شريرة عاتية لا تريد أن تتذكر ابدا بل هي تسخر من يذكرها ومما تذكر به وهذه هي النفوس الكافرة الفاجرة وهي شر من الدواب والبهائم وهناك نفوس كنفوس الأطفال لا تملك ان تدفع عنها سلطان الشهوة المسيطر عليها ومثل هذه النفوس لا تتذكر وحدها ابدا وهي بحاجة الى من يذكرها ويروضها ويذكرها .

وهناك النفوس المؤمنة الواعية المدركة التي مرت بها التجارب وحنكتها الدروس والمواعظ هذه تكون سريعة التذكر سريعة الفهم الى طاعة الله ورسوله وتتفاوت هذه النفوس في سرعة رجوعها الى الحق وفي نقاط الضعف لديها فبعضها مثلا سريع الفهم اذا دعت داعية الى الحرص على المال ولا يتذكر بالسرعة نفسها اذا دعت داعية شهوة جنسية وبعضها يتذكر في هذه وفي تلك ولكنه ينسى تمام النسيان اذا غضب أو مست كرامته ولا بد للمؤمن من ان يكون له بصيرة ينظر فيها الى نفسه والى اخطائه وعيوبه نظرة الباحث الناقد المحصن المنصف ولا بد له من معالجة نفسه بأنواع العلاج ، وتجربة الألم ووخز الضمير .

ومن كل هذا يتبين ان الموضوع يحتاج الى دربة والى خبرة فقد يقع من الشاب المؤمن ان يتعذر عليه في أول أمره غض بصره وصرفه عن النظر الى محرم ولكنه لا يزال اذا كان مؤمنا ، يؤذيه حاله ذلك ويؤلمه ، ولا يزال يبحث عن الأسباب التي توقعه في هذا المحرم حتى يستطيع ان يتغلب على الأمر المشكل تغلبا تاما ، وكثيرا ما يحتاج الشيطان بحيلة يسوغ فيها للمرء الوقوع في المنكر كأن يقول له انت تنظر الى هذه الفتاة لأن لك رغبة في خطبتها وفي مثل هذه الأحوال كثيرا ما ينجح الشيطان في اغوائه فينقله من فتاة الى فتاة وهنا يحتاج الموقف الى النظر الحصيف والرأي السديد وان يقول المرء لنفسه هذا اسلوب

ملتو والحزم ان تترك الطرق المتتوية وتطلب الحجة البيضاء والجادة الواضحة المستقيمة .

كل هذا يدل على أن التقوى ليست كما يظن الناس مظهر خاشع وسلوك متواضع ولكنها خبرة ودراسة ورعاية طويلة يسير بها العقل الحصيف الناقد ويقترن بها الوجدان النقي والارادة الحاسمة .

هنالك مواطن يلتبس فيها الأمر على المتقين أهى حلال ام حرام وهنالك مواطن يظنها الظان أنها وسائل الى الخير وهي محرمة والقاعدة المشهورة « الوسيلة تبرر الغاية » قاعدة خاطئة تنزل فيها الأقدام ويخدع المرء عن نفسه وقد قال عليه الصلاة والسلام ( من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ) . وهنا يحتاج المرء الى عقل حصيف ووجدان نقي وارادة نافذة فاذا تمت للمرء هذه كلها تمت له التقوى .

وهكذا تنقص تقوى المرء لنظره القاصر وضعف تقديره للأمر وكثيرا ما يكون هذا النظر القاصر بسبب غلبة الهوى ويكون العقل في هذه الحال مسخرا للهوى يدلي بالحجج التي يميلها الهوى ويكون عاجزا عن رؤية الحق أو على الأصح يكون عاجزا عن إظهار الحق لأن سيطرة الهوى غالبية ومعنى ذلك أن وجدان هذا الانسان قد اعتراه خلل واختلت فطرته النقية التي شأنها ان تميز الخير من الشر .

وقد يكون نقص التقوى لضعف الارادة وفشل العزيمة وهذه مردها ايضا الى غلبة الرغبات وتسلط الهوى .

وكل ما سبق يحتاج الى دراية ورعاية فالوجدان تزیده التربية وضوحا ونقاء وتزیده قدرة على التمييز بين الخير والشر وتزیده قدرة على التعلق بالخير والانصراف عن الشر وهذه التربية التي تربي هذا الوجدان لا يتم لها ذلك الا بتربية العقل وتدريبه على ادراك خفايا الأمور ودقائقها وكوامنها وكل ذلك يتم معه تربية الارادة .

وهكذا يظل المؤمن في علاج لنفسه وجهاد لرغباته واهوائه حتى ينتهي به الأمر الى ان تصبح التقوى مغروسة في نفسه وتصبح خلقا من اخلاقه وسجية من سجاياه ، وهنا يدرك ثمرة تقواه في ايامه كلها وهنا يرهف احساسه ويسمو وجدانه فيصبح سريع الادراك لمواطن الخير ولمواطن الشر خبيرا كل الخبرة بالتمييز بينها ويصبح طبعه الخير وهواه

مع الخير وكرهيته للشر ونفوره منه و يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

هذا المعنى جاء في قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا  
و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم »

قال ابن كثير: قال ابن عباس والسدى ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن  
حبيان فرقانا مخرجا زاد مجاهد في الدنيا والآخرة وفي رواية عن ابن عباس (فرقانا) نجاة  
وفي رواية عنه نصرا . وقال محمد بن اسحاق و (فرقانا) اى فصلا بين الحق والباطل .

يقول ابن كثير: وهذا التفسير من ابن اسحاق أعمُّ مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فان  
من اتقى الله بفعل اوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب  
نصره ونجاته ومخرجه من امور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبها وهو محوها ، وغفرها  
سترها عن الناس .

وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا  
تمشون به و يغفر لكم والله غفور رحيم »

الكفل : الحظ والثنية إما على حقيقتها او هي كناية عن المضاعفة .  
والنور هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة و يكشف الحق لقاصده .

### ثمرة التقوى

هذه ثمرة التقوى ونتيجتها في النفوس ملكة راسخة في النفس تستطيع بها الفصل  
بين الحق والباطل وتوفيق من الله لمعرفة الحق من الباطل ونور يبصرها بأوصاف الجاهلية  
وينقذها من عمى الجهالة والضلالة و يكشف لها الحق .

هذه ثمرة التقوى رؤية الحق حقا ورؤية الباطل باطلا ، وقد يحسب الناس ان ذلك  
امر يسير ومن ابصر ما عليه المسلمون اليوم من اعمال الجاهلية وهم مستهينون بها يحسبون  
أنها لا تضر العقيدة ولا تخالف الدين الصحيح ، من رأى ما عليه المسلمون من عدم تمييز  
بين الحق والباطل عرف قيمة هذا المعنى وجليل خطره .



لا يزال العبد يتقي و يروض نفسه على التقوى حتى يصل الى ثمرة التقوى وهي نور  
يميز فيه بين الحق والباطل و يرى فيه الحق حقا والباطل باطلا .

والمسلمون اليوم أصبح الحق الذي بأيديهم مما نزل الله شيها بالباطل بأعين الناس  
لعدم ادراكهم لحقائقه ومراميه وعدم تمييزهم بين صحيحه وزيفه .

التقوى هي ادراك دقيق ورأي حصيف ووجدان نقي يميز بين الخير والشر واردة خيرة

تلتزم جانب الحق وتعمل في سبيل الخير.

أمر المؤمنون بعد موقعة بدر بأن يتقوا الله وجعل ذلك ممهدا للأمر باصلاح ذات البين  
وأمر المؤمنون في آل عمران وقد نزلت في السنة الثالثة من الهجرة بأن يتقوا الله حق تقاته  
وان يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يفرقوا .

وأمر المؤمنون في سورة الحج بأن يجاهدوا في الله حق جهاده قال تعالى : « وجاهدوا  
في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم  
هو سماكم المسلمين من قبل » .

وكلمة ( حق الجهاد ) و ( حق التقاة ) اصلها جهادا حقا وتقاة حقا وقد أضيف الحق  
الى الجهاد للمبالغة وليدل التركيب على القيام بالجهاد بكل شروطه ومستلزماته على  
وجه التمام والكمال بقدر الطاقة ، ومثل كلمة حق ( كل ) و ( جد ) فيقال انت عالم كل  
عالم وجد عالم وحق عالم وكلها تفيد انه يجتمع فيه من الخلال ما تفرق في الكل وأن ما  
سواه باطل أو هزل .

وهكذا يأمرنا جل شأنه ان نبذل جهدنا ونستفرغ وسعنا في العمل في سبيله في  
الجهاد والتقوى (١) ، والايمان والجهاد والتقوى تلتقي هذه كلها في صعيد واحد فقد روى  
علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ( اتقوا الله حق تقاته ) ان تجاهدوا في  
الله حق جهاده ولا تأخذوا في الله لومة لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على انفسكم وآبائكم  
روى هذا الأثر ابن جرير الطبري ورواه أبو جعفر النحاس ورواية علي بن ابي طلحة  
عن ابن عباس من اجود الطرق .

(١) : غرض التربية أن تصل بالفرد إلى نتيجة يمكن الحصول عليها وأكبر ثمرة يمكن أن يقدمها ولا  
يتحقق ذلك إلا بالاعتدال وليس الغرض من أن يستفرغ المرء جهده أن يحجف بنفسه و ينهك قواه ولكن  
الغرض أن يستخرج بالدأب والتنظيم خير ما عنده وأكمل ما عنه

وابن عباس في هذا يبين ان حق التقاة هي الجهاد في الله حق الجهاد ومن ذلك الصدع بالحق والدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خشية ظلم ظالم أو بطش جائر .

امرنا الآيات الكريمة ان نستخرج طاقاتنا الدفينة وقوانا الكامنة لتبذل في سبيل الله ومن عجب ان يذهب بعض المفسرين من المتقدمين أو المتأخرين الى أن كلا الآيتين منسوخ بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم ولقد نقلنا قول القرطبي من قبل في ذلك .

وفي قوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) يقول القرطبي قال ابن عطية : قال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) .

### لا نسخ في الآيتين

يقول القرطبي ههنا ولا حاجة الى تقدير النسخ فان هذا هو المراد أول الحكم لأن حق جهاده ما ارتفع عنه الحرج يقول القرطبي وقال ابو جعفر النحاس وهذا مما لا يجوز ان يقع فيه نسخ لأنه واجب على الانسان .

ونحن مع ابي جعفر النحاس بان مثل قوله تعالى ( اتقوا الله حق تقاته ) وقوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) لا يجوز ان يقع فيه نسخ لأنه كما قال ابو جعفر من حق الله على عباده وهو مثل قوله عليه الصلاة والسلام أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

إن حقه تعالى أن نعبده وأن نجاهد في سبيله وان نبذل في كل ذلك غاية وسعنا وليس شيء من ذلك فوق حدود الطاقة وليس شيء من ذلك بالغ حد الحرج .

يرى ابو جعفر النحاس أن قوله تعالى ( فاتقوا الله ما استطعتم ) هي كقوله تعالى ( اتقوا الله حق تقاته ) وقد نزلت الآية الأولى بنسخها وهي مثلها بنسختها لا بنسخها .

ونحن نأخذ هنا ايضاً بقول النحاس بأن الآيتين تؤديان غرضاً واحداً ومعنى واحداً فقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم أي ما أطقتم وبلغ اليه جهدكم وطاقتكم وقال القاسمي أي جهدكم ووسعكم أي ابدلوا فيها استطاعتكم .

نقول حق الله تباركت اسماؤه ان نجاهد في سبيله ونبذل في ذلك أقصى طاقتنا

ونتقيه ونبذل في تقواه غاية وسعنا وهذا شأن المؤمن الذي آثر جانب الله جل شأنه على كل شيء سواه وأنا نشاهد ان إنساناً يتبع إنساناً ويفرق في حبه واتباعه فيلقي بنفسه في المهالك في سبيله و يغرم إنساناً بموضوع أو بحث علمي ويستغرق فيه فينسى نفسه وينسى مبتعه ويعيش لبحثه و يصبح ذلك همه الذي يشغله وتصبح تلك سعادته وتتضاءل الأمور جميعاً الى جانب همه ، والمؤمن تعلقه بالله ووجهته الى الله وهو حين يقوى ايمانه وتهيمن عقيدته على قلبه تهون الدنيا في نظره ويهون المال ويهون الولد وتهون نفسه عليه في سبيل خالقه ، وهنا تمحى العقبات وان كانت كالجبال ، وهنا تنطلق طاقات المؤمن فيقدم من الأعمال ما لا يستطيع أن يقوم به عشرة وعشرون بل مائة من الرجال ، ان استطاعة هذا الانسان مرنة ، وانه في الساعة التي يقول فيها ههنا ينتهي جهدي ربما دخل في الموضوع جديد فاذا الجهد غض والنشاط جديد ، توتر نفسي وانفعال حركي في سبيل حمل الرسالة (رب اشرح لي صدري) .

وإذا غلبت العقيدة على القلب اصبح المؤمن انساناً آخر واصبح لا يقف في وجهه شيء .

تثمر التقوى طاعة الله وذكر الله وشكر الله و يصبح التقي طائعاً لا يعصي ، ذاكراً لا ينسى ، شاكراً لا يكفر وتثمر التقوى الجهاد في سبيل الله فيجاهد المتقي في الله حق جهاده ولا تأخذه في الله لومة لائم و يقوم بالقسط ولو على نفسه وآبائه وابنائهم وتثمر التقوى التذكر عند الإشراف على خطيئة والنظر في الأمور نظرة مبصرة وذلك يؤدي الى الإقلاع عن الخطأ والرجوع الى مرضاة الله واكبر ثمراتها نور يقذف في قلب المتقي يميزه الحق من الباطل ويعرف به الخير من الشر .

وهكذا تدخل التقوى في مجالات الحياة كلها في حالة وجود الفرد وحده او مع اهله وبنسبه وفي حالة وجوده في عمله وقيامه بواجباته واتصاله باخوانه وفي إنصافه من نفسه وفي سعيه لوحدة الجماعة التي يعيش في كنفها .

ولقد كان ما وقع بعد موقعة بدر من مطالبة الشبان بما وعدهم رسول الله عليه صلوات الله ومعارضة بعض الشيوخ لذلك ، كان ما وقع مما يمكن ان يهدد الجماعة الناشئة الظافرة ولذلك بادرت الآية الكريمة الى تذكير المؤمنين بتقوى الله ، ولقد سمع المؤمنون الكثير عن

تقوى الله سمعوا كل ما سبق ذكره ، ففاؤوا الى امر الله والى طاعة الله . كان الأمر الأول تقوى الله وكان الثاني اصلاح ذات بينهم وكان الثالث اطاعة الله وقد رأينا أن طاعة الله ثمرة من ثمرات التقوى واصلاح ذات البين ثمرة لكل من التقوى والإطاعة ، فكان الغرض الأساسي من الآيات الكريمة هو لفت المؤمنين إلى مكانة جمع الكلمة ووحدة الجماعة باصلاح ذات بينها .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال هو الهتاف بتقوى الله . ان التقوى زمام هذه القلوب الذي يمكن ان تقاد منه طائفة ذلولة في يسر وفي هودة ... وهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب الى اصلاح ذات بينها : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وهذا الزمام يقودها الى طاعة الله ورسوله .

« واطيعوا الله ورسوله » « ان كنتم مؤمنين » :

و يقول ايضا : « فلا بد للايمان من صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده و يترجم عن حقيقته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » . انتهى قوله

والتحلي هو التزين بالقول والمعنى ان الايمان ليس بالقول الذي تظهره بلسانك فحسب ولكن يجب ان تتبعه معرفة القلب (١) .

واصلاح ذات البين معناه اصلاح الأحوال التي بين افراد الجماعة واصرحها السير بها على ما يحب الله و يرضاه من وفاق وتعاون ومواساة وحب وإيثار وكل ذلك يستلزم الإعراض عن الأهواء والأغراض والشهوات الفردية .

وذات البين هي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الاسلام

---

(١) : جاء في فيض القدير الحديث يقول العلائي في حديث منكر تفرد به عبد السلام بن صالح العابد قال قال النسائي عنه متروك وقال ابن علي مجمع على ضعفه يقول العلائي لقد روى معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو صحيح . أ - هـ ، والحديث ليس من حديث رسول الله عليه صلوات الله ولكنه من قول الحسن البصري .

والبين يطلق في اللغة على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين كما قال تعالى  
«لقد تقطع بينكم» (١) وهذه الرابطة تسمى ذات البين .

وقد امرنا باصلاح ذات البين في كتاب الله وفي سنة رسوله فهو واجب شرعي  
توقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها .

وقد امر الله باصلاح ذات البين في مواطن كثيرة في الأسرة بين الزوجين قال تعالى  
«وان خفتم شقاق بينها فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق  
الله بينهما ان الله كان علما خبيرا» .

وامر جل شأنه باصلاح ذات البين في الجماعة المؤمنة اذا وقع نزاع بين طائفتين فيها  
وبيتن جل شأنه بانه لا بد من فض النزاع ولو ادى الأمر الى قتال الفئة الباغية قال الله  
تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينها فإن بغت إحداها على الأخرى  
فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينها بالعدل واقسطوا ان الله  
يحب المنقسطين انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» .

ومن العوامل الهامة في اصلاح ذات البين اليوم تربية الأبناء تربية اسلامية صحيحة  
لينشئوا على الايمان والتقوى فهما العامل الأساسي في جمع القلوب وربطها والتأليف  
بينها ، لقد علم الباحثون الاجتماعيون انه لا شيء يؤلف بين القلوب مثل العقيدة والايان  
بالله ، فلقد وصفوا العقيدة بأن صاحبها لا يهدأ ولا يعرف استقرارا حتى يؤمن الناس جميع  
بعقيدته قال تعالى : « لو انفقنا ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف  
بينهم» .

وما ألف بينهم إلا عبادة الله وحده والمؤسف جدا أن معاني الاسلام اليوم في البلاد  
الاسلامية كلها ذاوية باهتة والدعوات الدخيلة المعادية القائمة على عبادة غير الله يجد  
دعاتها مرتعا خصبا في الديار الاسلامية لان حراسها غافلون ، ويستل ابناء الاسلام من

---

(١) قال صاحب اللسان البين في كلام العرب جاء عنى وجهين : يكون البين الفرقة ويكون وص  
وهو من الأضداد ، وفي التنزيل العزيز لقد تقطع بينكم وضم عنكم م كنه ترعمون قرئ بينكم بالرفع  
والنصب فالرفع على الفعل اى تقطع وصلكم والنصب على الحذف يريد ما بينكم . قال ابن سيده : من  
قرأ بالنصب احتمال احدهما أن يكون الفاعل مضمري لقد تقطع الأمر أو العقد أو الود بينكم .

دعوة الاسلام و يصبحون معادين لتعاليمه مناوئين لمبادئه وتتصدع وحدة الأمة و يتمزق شملها .

وعد الله القائمين بالإصلاح بالأجر العظيم ، قال تعالى : « لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

وسكوت الأمة عن الاصلاح وهي قادرة عليه اشد إثما واعظم ذنبا من ذنب المفسدين انفسهم فيما يجره على الأمة من ويلات ولذلك قيل بحق « الساكت عن الحق شيطان اخرس » .

وقوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » معناه ان كنتم مؤمنين امثلوا الأوامر الثلاثة لأن الايمان يقتضي ذلك كله و يستلزمه فلا بد من تقوى ولا بد من طاعة ولا بد من اصلاح ذات البين .

فإن وقع بعد الذي سبق في نفس سائل الأليمان هذا السلطان على النفوس قيل له : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فقوله تعالى « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » جملة مستأنفة جيء بها لبيان حال المؤمنين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » .

وقونه تعالى « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » كالدليل بالنسبة للدعوى أما الدعوى فهي أن من مستلزمات الايمان التقوى والطاعة والاصلاح والدليل على ذلك ان المؤمن اذا ذكر الله ، وذكر عظمته التي لا تحُد وقدرته التي تعجز المعقول عن إدراك مدى سلطانها اقشعر جلده ووجل قلبه وفاضت عيناه خوفا ورهبا وخشية وخشوعا وحببا ورجاء وكان من شأنه أنه أسرع ما يكون في طاعة الله والاستجابة اليه ، وهذا الوصف في الآية التالية إما مساو للوصف الأول بمعنى ان الذي يوجل قلبه اذا ذكر الله هو متق مطيع مصلح بالضرورة وبالأولى .

والذى نميل الى الأخذ به أن درجة وجل القلوب عند ذكر الله لا يبلغها الا القلة من

المؤمنين وهكذا ارتقت الآيات القرآنية درجة بعد درجة ومن هؤلاء الذين توجه قلوبهم الذين ذكروهم عليه صلوات الله بقوله فيمن يظلمهم الله في ظنه يوم لا ظل الا ظنه وجاء فيه وعين حرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ولفظ الصحيحين ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (١) وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام عينا لا تمسها النار ابدأ عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله (٢) .

والتقوى درجات وفي اعلاها ما روي عن انس ان يطاع الله فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وهذه تستلزم ما روي عن ابن عباس ان يجاهد العبد في الله حق جهاده وألا يخشى في الحق لومة لائم وان يقسط من نفسه وآبائه وابنائهم .

والايمان درجات ايضا واعلاها ما ذكر الله جل شأنه من وجل القلوب عند ذكره وما تلا ذلك من الصفات التي جاءت في الآية الكريمة واعلى درجات الايمان تلتقي بأعلى درجات التقوى والذي دفع اليه اصحاب رسول الله عليه صلوات الله هذه المنازل الرفيعة فهم الرعيل الأول وهم القدوة للمؤمنين وهم الحجة على من يأتي بعدهم وهم السابقون الى حمل هذه الدعوة والسير بها الى الدنيا بأسرها والى الناس جميعا .

وان على من يريد حمل الدعوة واقتفاء اثر الرسل الكرام والتأسي بأصحاب رسول الله عليه صلوات الله ان يتطلع الى هذه الدرجات ويحدهم لبلوغها .

وهذه الدرجة التي ذكر الله بها اصحاب رسوله في المناسبة الطيبة في ميدان الجهاد والمؤمنون قد سخوا بأرواحهم وباعوا نفوسهم وما تزال افئدتهم منصهرة بأهوال المعركة وقد شهدت معونة الله ولطفه ونصره ، المؤمنون في هذه الحال وقلوبهم متفتحة لما يأتي من عند الله وصدورهم منسرحة ترقب وحي الله في هذه الحال تنزل الآيات فتأمر بالتقوى وتأمروا بالطاعة وتأمروا باصلاح ذات البين وتناديهم بأن درجات الايمان عالية رفيعة وتقول لهم لا يستحق اسم المؤمنين الا الذي يوجل قلبه لذكر الله .

انها لتربية عظيمة وانه لإعداد إلى أمر عظيم .

---

(١) الحديث اورده البيهقي في الأسماء عن ابي هريرة ورمز السيوطي لحسنه في جامعه الصغير .  
(٢) رواه النسائي والضياء المقدسي عن انس رضي الله عنه وعزاه الهيثمي لأبي يعلى وقال المنذرى رجاله ثقات .

دعت الآيات الكريمة اصحاب رسول الله الى درجة رفيعة من الايمان جاءت في كتاب الله في مناسبة اخرى في سورة الحج عند قوله تعالى « وبشر المحبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون » .

والمحبتون المتواضعون الخاشعون المطمئنون بأمر الله عز وجل الذين يخافون معصيته ويحذرون مخالفته الذين توجه قلوبهم عند ذكره جل شأنه لقوة اليقين في قلوبهم وغلبة مراقبة الله عليهم حتى كأنهم بين يديه جل شأنه يصدق عليهم وصف رسول الله عليه صلوات الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرونه .

ولفظة الإخبات مأخوذة من طمأنينة الأرض قال في اللسان وقال ابن الأعرابي الخبت ما اطمأن من الأرض واتسع (١) والمحبتون الذين سكنت جوارحهم واطمأنت قلوبهم ولم يزدتهم عزة الغلبة ولم تسكرهم نشوة الظفر ولكنهم في الأحوال التي يطر فيها الناس وتغرمهم كبرياؤهم يذكرون الله فتتطامن نفوسهم فان كانوا في عزة وغلبة تواضعوا لله ولم يظلموا احدا من عباد الله وان كانوا في شدة وعسر ذكروا الله وذكروا لطفه وعونه فاطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم .

والوجل هو استشعار الخوف كما قال الراغب في مفرداته ومعنى استشعار الخوف الشعور به بالفعل فالوجل على هذا أخص من الخوف لأن الخوف توقع أمر مؤلم قد يقع بالفعل وقد لا يقع وقد يصحبه الشعور بالألم والنزع وقد يفارقه لاحتمال عدم وقوعه أو للاعتقاد ببعده أجله .

وسبب الوجل الخوف من العاقبة المجهولة وقد يكون من الاجلال المهابة وهكذا يكون ذكر الله هو ذكر القلب لعظمته جل جلاله وسلطانه أو تذكر وعده ووعيده ومحاسبه لخالقه وإدانتهم وغير ذلك من صفاته وافعاله جل شأنه .

وافضل ما يورث الخشية ترتيب القرآن بتدبر وامعان قال تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

(١) قال تعالى فتخبت له قلوبهم فسره ثعلب بأنه التواضع ، وفي الحديث : واجعلني لك محبتا أي خاشعا مطيعا وفي حديث ابن عباس فيجعلها محبة منيية .



وقال تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد » .

وقال تعالى : « واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .  
وليس سبب الوجل الخوف من العقاب فحسب بل قد يكون الوجل من عظمة الله وعظيم سلطانه .

يقول السيد رشيد رضا : « قد يقول المؤمن في صلاة التهجد في خلوته ( الله اكبر ) مستحضرا لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض و يقشعر جلده فمن خص الذكر هنا بالوعيد فقد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون الا من خوف العذاب وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني اسمائه وصفاته ولم يقرأ قوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » ولم يعلم ان من عباد الله من يخضع قلبه و يفيض دمه لذكر اسماء الله في آخر سورة الحشر « هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ... الخ » ولا نجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء .

وقال صاحب هداية الباري في حال اوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله تعالى وفي حال اوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق اليه .

اخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وابو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن ام الدرداء قالت انما الوجل في القلب كاحتراق سعفة (١) يا شهر بن حوشب ، اما تجد له قشعيرة ؟ قلت بلى قالت فادع الله عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك .

واخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال قال فلان اني لأعلم متى يستجاب لي . قالوا ومن اين لك ؟ قال اذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عيني فذلك حين يستجاب لي (٢) .

(١) السعفة : ورق جر يد النخل اذا يبس .

(٢) وثابت بن البناني ثقة عابد روى له اصحاب الكتب الستة وهو من التابعين .

واخرج الحكيم الترمذي ايضا عن عائشة قالت ما الوجمل في قلب المؤمن الا كضرمة السعفة فاذا وجل احدكم فليدع عند ذلك (١) واخرج ابن ابي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ عن السدي في الآية قال : هو الرجل يريد ان يظلم اويهم بمعصية فيقال له اتق الله فيوجل قلبه .

وذكر ابن جرير اسنادا من طريق علي (٢) (اي علي بن ابي طلحة) عن ابن عباس قوله تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال : « المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند اداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة اموالهم . فاخبر الله سبحانه انهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فأدوا فرائضه . « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » يقول تصديقا — « وعلى ربه يتوكلون » يقول لا يرجون غيره .

(١) يلفت النظر ان الرواية الأولى التي ذكرناها عن ام الدرداء جاء في نهايتها قالت فادع الله عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك ويروها ابن جرير بعينها عن ابي الدرداء وفي نهايتها : اذا وجدت ذلك في القلب فادع الله فان الدعاء يذهب بذلك وكذلك رواية ابن كثير عن ام الدرداء .

والاسناد الذي يذكره ابن جرير لم يعلق عليه الشيخ احمد محمد شاكر وقد اورد الزمخشري الأثر ايضا عن ام الدرداء : الوجمل في القلب كاحترق السعفة اما تجده له شعريرة قال بلى قالت فادع الله فان الدعاء يذهب ولم يعلق عليه ابن حجر بشيء ايضا في تحريجه .

وفي الاسناد شهر بن حوشب وقد قال فيه ابن حجر صدوق كثير الارسال والأوهام روى له البخاري في الادب المفرد ولم يخرج له في صحيحه وروى له مسلم واصحاب الكتب الأربعة ، وهذا الوصف الذي ذكره ابن حجر هو نوع من الجرح يضعف الحديث الذي يرويه اذا تفرد به ، وجميع الذين ذكرنا اوردوا الحديث من طريق شهر بن حوشب عن ام الدرداء او ابي الدرداء .

(٢) وعلي بن ابي طلحة هو الذي يروي عن ابن عباس يقول بشأنه ابن حجر في التقريب ارسل عن ابن عباس ولم يره وهو صدوق يخطئ روى له مسلم وابوداود والنسائي وابن ماجه .

ويقول السيوطي في الاتقان : ورد عن ابن عباس في التفسير مالا يحصى كثرة بروايات وطرق مختلفة فمن جيدها طريق علي بن ابي طلحة الهاشمي عنه قال احمد بن حنبل « بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن ابي طلحة ، لورجل رجل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا » اسنده جعفر النحاس .

ويقول صاحب مناهل العرفان : قال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند ابي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية ابن ابي صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد اعتمد عليها البخاري في

قال تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

بحث المفسرون لم جاز وصف القلوب ههنا بالوجل ووصفت بالطمأنينة في قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » اذ جعلت الآية الأولى وجل القلوب عند ذكر الله وجعلت الآية الثانية ذكر الله سببا في طمأنينة القلوب . واجابوا بأن الطمأنينة عند ذكر نعمة جل شأنه والوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه واجابوا بأن الطمأنينة عند ذكر الوعد والوجل عند ذكر الوعيد واجابوا بأن القلوب تطمئن لمعرفة توحيده ووعده ووعيده فعند ذلك توجه لأوامره ونواهيه خوف التقصير في الواجبات والإقدام على المعاصي .

وقال السيد رشيد رضا ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالايان بالله تعالى والثقة بما عنده .

وقال الألوسي : والاطمئنان المذكور في قوله سبحانه وتعالى ( الا بذكر الله تطمئن القلوب ) لا ينافي الوجمل والخوف لأنه عبارة عن تلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجامع الخوف .

صحيحه كثيرا فيما يعلق عن ابن عباس يقول ابن حجر : وقال قوم : لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير وانما اخذه عن مجاهد او سعيد بن جبير ثم قال ابن حجر بعد ان عرفت الوسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك . اهـ .

ويقول ابن حجر في تهذيب التهذيب :

نقل البخاري من تفسيره ( اى تفسير علي بن ابي طلحة ) رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيء كثيرا في التراجم وغيرها ولكنه لا يسميه يقول قال ابن عباس او يذكر عن ابن عباس . اهـ ويمكن ان نقول من ذكر البخاري هذه الروايات في صحيحه وذكرها معلقة دون ذكر اسنادها كاملا ان اسنادها ليس على شرطه فلا يذكره وما ذكره بصيغة الجزم كأن يقول قال ابن عباس فهو صحيح عنده ولو لم يكن على شرطه والذي في سنده ضعف او انقطاع لا يجوز به .

يقول ابن حجر في هدى الساري : وانما يورد البخاري ما يورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة ومن تفسيرهم لكثير من الآيات على طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب مع المسائل التي فيها الخلاف بين الائمة .

وهكذا علق قوم الطمأنينة بذكر النعم والوجل بذكر العقاب وعلقها آخرون بذكر وعده جل شأنه وجعلوا الوجل لذكر وعيده وقال فريق ثالث الطمأنينة بمعرفة توحيده ووعده ووعيده والوجل في خوف التقصير في ما يجب له جل شأنه .

والرأي الثالث يختلف عن سابقه ويتفق مع رأي السيد رشيد رضا والآلوسي إذ يجعل صفاته جل شأنه كلها مدعاة للطمأنينة وخوف التقصير سببا في الوجل وقد جعل الرأيان الأولان بعض صفاته جل شأنه سببا في الطمأنينة وبعضها سببا في الوجل والذي يبدو ان صفات الله جل شأنه كلها مما يحمل العبد على الطمأنينة ولكن الخوف كل الخوف من تقصيره هو في حق سيده ولذا كان القول الثالث أجمع مع عدم منافاته لسابقه ذلك ان للانسان حالات كثيرة تختلف من آن لآن ومن شخص لآخر فقد يكون ذكر المن والنعم واللفظ بالإنسان جنينا ثم رضيعا ثم غلاما ثم يافعا قد يكون ذلك سببا في هدوء نفسه وطمأنينة قلبه كما ذكر الله جل شأنه موسى عليه السلام حين قال له ( اذهب الى فرعون انه طغى ) ذكره جل شأنه كيف نجاه من فرعون بالقائه في اليم وهو رضيع لا يقوى أن يدفع عن نفسه أذى بعوضة وليس اليم وسيلة للنجاة وكانت نجاته على يد عدوه فرعون نفسه وربى في بيته اليس في هذا ما يحير العقول ويطمئن القلوب ؟

قال تعالى : ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا الى امك ما يوحى ان اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له والقيت عليك حبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن .

كل هذا ليطمئن موسى عليه صلوات الله ان الذي حفظه من فرعون حين كان رضيعا لا حول له ولا طول الذي اصطنعه لنفسه جل شأنه قين بأن ينصره على فرعون حين يرسله اليه ليحطم كبر ياءه ويذهب بجبروته .

وهكذا كان تذكر من الله وسابغ إنعامه وخفي لطفه كل ذلك باعث للطمأنينة العميقة في النفوس

تذكر نعم الله وسابق فضله عظيم لطفه في ساعات الاخطار يتنزل بالسكينة ويذهب بالخوف من المهالك .

ولكن تذكر نعم الله نفسها وعظيم هنئه في حالة الشعور بالتقصير أو الإثم يزيد في ألم المرء وحسرتة على ما فرط في جنب الله .

والغالب في تذكر وعد الله ان يكون سببا للطمأنينة ولكنه قد يكون في كثير من الأحوال بالنسبة لكثيرين سببا لأشد أنواع الوجل اذ يجد المرء نفسه بعيدا عن الصفات التي ذكرت بشأن الذين وعدهم الله .

وهكذا كانت حالة الطمأنينة والرجاء او الخوف والاشفاق نتيجة لحالة المرء النفسية ونظرتة إلى نفسه وإلى خالقه جل شأنه .

وموقف هذا الانسان في ضآلته وصغر شأنه في جانب الله جل شأنه مع ما أنعم عليه من رأي وعقل وما أودع فيه من قوة وحكمة كل ذلك يجعله في خشية من الله ووجل منه مقترنين بأمل ورجاء وأمن وسكينة .

### الخوف والرجاء مقترنان

والمؤمن لا يخلو قلبه من الأمرين معا وإن غلب احدهما حيناً وغلب الآخر حيناً آخر ..

وان الخوف من الله والوجل من عقابه واستشعار عظمتة جل شأنه كل ذلك يؤدي بالنهاية الى الطمأنينة الى رحمة والرضا بقضائه وتفويض الأمر اليه .

وهذا الوجل من الله عند الإشراف على ذنب أو الإقدام على مخالفة أو الشعور بالتقصير في جانب الله وعند تذكر المرء نعم الله وما تقلب فيه من لطف الله وحسن تدبيره وتقديره مما يزيد المأ لتقصيره وشعورا بتعظيمه جل شأنه وكل ذلك مهما امتد ينتهي لدى المؤمن إلى برد الراحة وطمأنينة اليقين .

إن العامل الأساسي في خشية الله الشعور بعظمة الله فكلما ازداد المرء معرفة بدقائق صنعه جل شأنه في خلقه وازداد معرفة بعجائب تدبيره ازداد تعظيماً لله وخشية له وازداد في الوقت نفسه ثقة به جل شأنه وطمأنينة وأسلم نفسه اليه ووجه وجهه إليه وفوض أمره اليه .

والرسول عليه الصلاة والسلام أشد الناس خشية لله وأشدهم تقوى له وأكملهم معرفة

بربه جل شأنه وأعظم الناس ثقة به وطمأنينة إليه جل شأنه وخشيته عليه صلوات الله  
لربه موازية تمام الموازة لثقتة به تباركت أسماؤه ، ومن هنا يمكن أن نقول أن اشد  
الناس وجلا من الله وهيبة منهم أشدهم طمأنينة الى رحمته وثقة بعفوه ورحمته والمنافق بعيد  
من خشية الله بعيد من الثقة به والطمأنينة إليه .

فبين الصفتين تلازم ويمكن أن تعتبر إحداهن مقياسا للأخرى

ويلاحظ أيضا أن طمأنينة المؤمن حين يفزع الناس ووجهه حين يطمثون إلى غفلتهم  
وانصرافهم إلى لهوهم ودياهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « لو تعلمون ما أعلم  
لبكيتكم كثيراً ولضحكتكم قليلاً ولخرجتم إلى الصدقات تجأرون إلى الله تعالى لا تدرن  
تنجون أو لا تنجون » (١) .

خشية الله والوجل منه مصدرهما معرفة الله واستشعار عظمتة جل شأنه والطمأنينة إليه  
معرفة تباركت أسماؤه والثقة بسعة رحمته وعمم فضله وكلا الوصفين منشؤهما الإيمان بالله  
ومعرفة توحيده ولا يمكن أن يتصف العبد المؤمن بأحد هما دون الآخر محال ذلك فإذا فقد  
العبد الرجاء بالله وانقطع أمله به فذلك جهل بالله جل شأنه وبصفاته وذلك من ظن السوء  
بالله سبحانه قال تعالى « إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون » ومن اغتر بعمله  
ورضي عن نفسه وأمن نفسه مكر الله كان ذلك غاية الجهل بالله وبصفاته قال تعالى « فأمنا  
مكر الله فلا يؤمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » قال الزمخشري : فعلى العاقل أن يكون  
في خوف من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة .

وعن الربيع بن خيثم<sup>(٤)</sup> أن ابنته قالت مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام قال يا  
بنتاه إن أباك يخاف البيات . أراد قوله ( ان يأتهم بأسناً بياتاً ) اهـ وهذا يذكر

(١) : الصدقات بضمين جمع صعيد كطريق وزنا ومعنى تجأرون ترفعون اصواتكم بالاستغاثة

الحديث رواه الطبراني والحاكم في الرقاق عن أبي الدرداء قال الحاكم صحيح وقره الذهبي وقال  
المهشمي رواه الطبراني من طريق ابنة ابي الدرداء عن ابيها ولم اعرفها وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٢) الربيع بن خيثم ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب : قال ابن حبان في الثقات اخباره في الزهد  
والعبادة اشهر من ان يحتاج الى الاغراق في ذكره . وروى احمد في الزهد عن ابن مسعود انه كان يقول  
للربيع والله لوراك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك وذكر هذا القول المزى وزاد وما رأيتك الا  
ذكرت المحبتين . نقل ابن جرير انه شهد مع علي صفيين . وقال الشعبي كان الربيع اشد اصحاب ابن  
مسعود ورعا .

بقوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع كأن شيئا يقضها و يؤلمها فتباعد بين صاحبها وبين النوم .

وقال الحسن البصرى المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

والأصل في الخوف من الله كما ذكرنا شعور العبد بتقصيره البالغ في حق سيده ، وهذا التقصير لا يستطيع عبد أن يدعي أنه خال منه وهذا هو الابتلاء الذي خلقت الحياة من اجله فاذا ظن عبد أن الله لن يعذبه فنشأ ذلك كبره واغتراره بنفسه وعدم رؤية النقص الذي ركب فيه وهذا من عظام الأمور ولذا كان الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية وهو الاسترسال في المعاصي اتكالا على عفو الله .

وقال الحنفية إنه كفر كاليأس لقوله تعالى (إنه لا يبيس من روح الله الا القوم الكافرون . يوسف : ٨٧) ( فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . الأعراف : ٩٩ )

وقد جاء في تفسير القاسمي : من كان آمنه لاعتقاد أن لا مكر كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه فينبغي أن يكون كل منها كافرا عند الشافعية ايضا ويحمل عليه نص القرآن .

ويلاحظ في تركيب الآيتين الكريميتين افتراق وتمايز يؤدي إلى اختلاف في المعنى لايفوت إدراكه مبتدئا مثلى ففي آية الأنفال قال تعالى « اذا ذكر الله » وفي آية الرعد « ألا بذكر الله » وقد جاء ذكر الله في الأولى «بيننا للمجهول يوحى بأن ذكر الله مصدره غير الذي وقع منه الوجمل والغالب في هذا أن يكون الذى أصابه الوجمل عند ذكر الله في شيء من الغفلة والنسيان قبله وذلك لانشغال القلب بأمر من أمور الدنيا أو المعاش أو المصالح واستغراقه في ذلك ، وفي تلك الحال جاءه النذير فذكره أخ بالله وهذا هو الغالب أو طرأ على قلبه طارئ أنقذه من استغراقه وذكره بالله وهنا حين يشعر ببعده من الله وغفلته عنه جل شأنه يستيقظ ضميره و يتنبه فؤاده فيوجل قلبه فإذا اغرورقت عيناه واستغرق قلبه بتذكر الله عادت إليه السكينة والطمأنينة .

أما قوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فهو يدل على أن ذكر الله جل شأنه سبب

فى الطمأنينة فإذا وقع الذكر وسيطر على القلب فلا بد من طمأنينة كان الذاكر فى آية الأنفال مجهولا وهو على الغالب إنسان آخر ذكر بالله فلما ذكر الغافل وجل قلبه أول الأمر ثم هيمن ذكر الله وخشيته على قلبه وهناك تنزل السكينة وتعود الطمأنينة .

وعلى هذا فذكر الله اصل فى الطمأنينة إذا تم فى النفس تمت . والخشية والطمأنينة امران متلازمان لا يخلو منها المؤمن .

قال تعالى : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» وقال تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب .

هذا الإنسان فى الكون الكبير الذى يملأ نفس المتأمل دهشة وإكبارا الذى تحيط به العجائب وتكتنفه المجاهيل إما أن يرى نفسه ذرة من ذراته خاضعا لأنظمتة مسيرا بالقدرة العظيمة التى تدبره مرتبطا بجزئياته وأجزائه وبه جميعه خاضعا للاله المدبر الذى خلقه وأبدعه وعلم مبدأه وغايته وقدر نهايته ومصيره وإما أن يرى نفسه وحيدا فريدا لا ارادة فوق إرادته ولا قدرة تنازع قدرته لا يعلم لهذا الكون مبدأ ولا يعرف له مصيرا ويرى أنه خرج من العدم وسار فى فلك هذا العالم دورة محدودة وسيعود الى الفناء والى العدم .

هذا الإنسان الثانى إنسان ناشز عن فطرة الإنسان وما جبل عليه الإنسان قد غلبت عليه شقوته ولعبت به أهوائه وتسلط عليه شيطانه ، ومثل هذا الإنسان لا يعرف طمأنينة ولذلك لا يجد مخلصا لنفسه الا بأن يلقي نفسه فى أحضان شهواته تصرفه كما تشاء فقد يعيش خليعا ماجنا وقد يعيث فى الارض فسادا وهو على أى حال حاقدمغناظ جائر فإذا عصفت به نكبة أو ألمت به كارثة لم يجد فى نفسه ذرة من ايمان يقابل بها الشدائد او يصمد بها للكوارث بل ينهار ويتداعى وتتساقط اركانه ولا يجد له مخلصا الا فى الانتحار والموت .

هذه الطمأنينة عند الشدائد والسكينة عند النوازل لا يعرفها الا المؤمنون قال تعالى «فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها» وقال تعالى «هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم» والسكينة هى السكون والطمأنينة قال ابن عباس كل سكينه فى القرآن هى الطمأنينة الا التى فى البقرة وهى قوله تعالى «فيه سكينه من ربكم وبقيه» .



يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

« وليس أشقى على وجه الأرض من يجرمون طمأنينة الأئمن الى الله ليس اشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه وتربط ما حوله في الله خالق الكون . ليس اشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء ولم يذهب ؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة ؟ ليس اشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود ليس اشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا في فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا الى الله مطمئنا الى حماه ، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد ... ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها الا المطمئنون بالله : « الا بذكر الله تطمئن القلوب » . ١٠ هـ

والاله جل جلاله الذي تطمئن القلوب لذكره هو الذي تخشع القلوب لعظمته وتوجل لذكره وهو الذي يُحشى ويرجى وهو الذي يرهب جانبه ويؤمل بره وفضله .

وهكذا تلتقي الآيتان الكريمتان وتتعانقان وتكمل احداهن الأخرى باحداهن تمثل المؤمن في حالة غلبة الطمأنينة على قلبه وفي ظننا ان الأولى تنتهي الى الثانية كما ذكرنا من غير ان يخلو القلب من خشية ورهبة .

يقول القرطبي : في قوله تعالى « وتطمئن قلوبهم بذكر الله » هذا يرجع الى كمال المعرفة وثقة القلب . والوجل الفرع من عذاب الله فلا تناقض .

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربه ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » . أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين الى الله وإن كانوا يخافون الله ، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته ويستطرد القرطبي ههنا فيذكر حال الذين يزعمون أنهم يذكرون الله وهم يرقصون ويصرخون يقول : لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام ( ارذال

(الناس) من الزعيق والزئير فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم ان ذلك وجد وخضوع : لم تبلغ ان تساوي حال الرسول ولا حال اصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ولذلك وصف الله احوال اهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال « واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعيينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقهم . روى مسلم بن مالك ان الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة (١) فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا فلما سمع ذلك القوم أرموا (سكتوا) ورهبوا ان يكون بين يدي امر قد حضر قال أنس فجعلت التفت يمينا وشمالا فاذا كل انسان لاف رأسه في ثوبه يبكي وذكر الحديث .

وروى الترمذي وصححه عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة زرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ( الحديث ) ولم يقل زعقنا ولا رقصنا ولا زفنا (٢) ولا قنا .  
زيادة الايمان

قال تعالى « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا »

المراد بالآيات الآيات المنزلة على خاتم الأنبياء عليه صلوات الله وسلامه ، ومعنى زادتهم ايمانا أي يقينا في الاذعان وقوة في الاطمئنان وسعة في العرفان ، ونشاطا في الاعمال قال هذا السيد رشيد رضا في تفسيره وهذا القول مبني على اعتقاده بأن الايمان اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان وقد عرفه بعد ذكر ما سبق فقال ويطلق الايمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه .

ومن باب الآية الكريمة قوله تعالى : « ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا» .

والذين اوتوا العلم هم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد

(١) : أي أكثروا عليه . واحضى في السؤال والخف كلاهما بمعنى الخ .

(٢) : رقصنا واصد . دفع الشديد والضرب بالرجل كما يفعل الرقص .

آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم انه النبي العربي الموعود في كتبهم فاذا تلى عليهم خروا سجدا وسبحوا لله تعظيماً لأمره ولا تجازاه ما وعد في الكتب المنزلة وبشره من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد في قوله «إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا» .

وهؤلاء الذين اوتوا العلم حين سمعوا آيات الله تتلى خروا مرتين خروا في المرة الأولى ساجدين وفي المرة الثانية باكين .

وروى الترمذي والنسائي عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم (١) .

(١) رواه الترمذي قال حدثنا هناد اخبرنا عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن محمد بن عبد الرحمن عن عيسى بن طلحة عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار....

وعبد الرحمن بن عبد الله المسعودي قال بشأه ابن حجر في التقریب صدوق اختلط قبل موته وصابطه ان من سمع منه ببغداد فبعد الاختلاط وبقية رجاله ثقات وعبد الله بن المبارك ثقة ثبت فتيه عالم جواد مجاهد جمعت فيه خصال الخير من المستبعد جدا ان يروى عن عبد الرحمن في حال اختلاطه وقد قال الترمذي هذا حديث صحيح وللحديث شواهد يقول الترمذي وفي الباب عن ابي ربحانة وابن عباس اما حديث ابي ربحانة فقد اخرجه احمد مرفوعا : حرمت النار على عين دمعت او بكت من خشية الله وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله وذكر عينا ثالثة واخرجه النسائي والحاكم وقال الحاكم صحيح الاسناد واقره الذهبي وقال على شرط مسلم .

ورواه البيهقي عن ابي ربحانة رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأوفى بنا على شرف (مكان عال) فأصابنا برد شديد حتى كان احدنا يخفر الحفير ثم يدخل فيه ويغطي عليه بحجفته (ترسه) فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من الناس قال الا رجل يحرسنا الليلة ادعوله بدعاء يصيب به فضلا فقام رجل من الأنصار فقال انا يا رسول الله فدعاه قال ابو ربحانة رضي الله عنه فقلت انا فدعا لي بدعاء هو دون ما دعا به للأنصاري ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت النار على عين دمعت من خشية الله حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله قال ونسيت الثالثة قال ابو شريح (احد رواة الحديث) وسمعت بعد انه قال حرمت النار على عين غضت عن محارم الله او عين فشت في سبيل الله .

يقول القاسمي : وقد عدّ الامام الغزالي في الاحياء من آداب ظاهر التلاوة البكاء  
قال البكاء مستحب في القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا  
فان لم تبكوا فتباكوا (١) » .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما اذا قرأت سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم  
تبك عين احدكم فليبك قلبه وانما طريق تكلف البكاء ان يحضر قلبه الحزن ، فن الحزن  
ينشأ البكاء ، ووجه احضار الحزن ان يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم  
يتأمل تقصيره في اوامره وزواجره فيحزن لا محالة و يبكي فان لم يحضره حزن وبكاء كما  
يحضر ارباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فان ذلك اعظم المصائب .

واما حديث ابن عباس فقد رواه الترمذى في فضائل الجهاد قال حدثنا نصر بن علي الجهمي قال  
حدثنا بشر بن عمر قال حدثنا شعيب بن رزيق ابوشيبة قال حدثنا عطاء الخرماني عن عطاء بن ابي  
رباح عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينا لا تمسها النار عين بكت  
من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله وشعيب بن رزيق ابوشيبة صدوق يخطئ وعطاء  
الخرماني صدوق بهم كثيرا ويرسل ويدلس لم يصح ان البخارى اخرج له كذا في التريب . والحديث  
صحيح بكثرة رواياته وشواهدة الصحيحة ومن شاهده ما جاء في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في  
ظلمة يوم لا ظل الا ظله ومنهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه والحديث رواه الشيخان البخارى ومسلم  
ومالك واحمد والنسائي .

(١) اخرج ابن ماجه ، باب في حسن الصوت بالقرآن : قال حدثنا عبد الله بن احمد بن بشير بن ذكوان  
الدمشقي قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا ابورافع عن ابن ابي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب  
قال قدم علينا سعد بن ابي وقاص وقد كف بصره فسلمت عليه فقال من انت فأخبرته فقال مرحبا بابن  
اخى بلغني انك حسن الصوت بالقرآن . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا القرآن نزل  
بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فن لم يتغن به فليس منا .

قال في الزوائد في اسناده ابورافع اسمه اسماعيل بن رافع وهو ضعيف متروك .  
والحديث رواه البيهقي ايضا بالسند المتقدم وذكر فيه اسماعيل بن رافع وقد قال فيه ابن حجر ضعيف  
الحفظ وروى له البخارى في الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه وفي تهذيب التهذيب قال احمد ضعيف  
وقال ابن معين ضعيف وفي رواية عن احمد منكر الحديث وقال الدارقطني والنسائي وابن خراش  
متروك .

فالحديث على هذا ضعيف بسبب ابي رافع وقد قال العراقي فيه ما يلي : حديث اتلوا القرآن وابكوا  
وان لم تبكوا فتباكوا رواه ابن ماجه من حديث سعد بن ابي وقاص باسناد جيد .

وروى البيهقي من طريق الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ علي فقلت اقرأ وعليك انزل؟ قال اني احب ان اسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت الى هذه الآية ( فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ) قال حسبك الآن فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان . الحديث متفق عليه .

وروى ابن كثير في تفسيره عن الامام احمد قال حدثنا محمد بن فضيل قال حدثني فليت العامري عن جسة العامرية عن أبي ذر رضي الله عنه قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقراً بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ( ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم ) فلما أصبح قلت يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها قال إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً ( ١ ) .

ونقل القاسمي في تفسيره رواية الامام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل على لسان ابراهيم ( رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ) وقول عيسى ( ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم ) فرفع يديه وقال : اللهم امتي امتي وبكى فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب الى محمد ، وربك اعلم ، فاسأله ما يبكيك ؟ فاتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، وهو اعلم فقال الله يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك في امتك ولا نسوؤك .

ونختم هذه الاحاديث بالدعاء التالي ( ٢ ) : عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اصاب احدا قط هم ولا حزن فقال : « اللهم اني عبدك وابن عبيدك وابن امتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك اسألك بكل اسم هو

(١) الحديث بدرجة الحسن رجاله محمد بن فضيل صدوق عارف رمي بالتشيع روى له اصحاب الكتاب الستة جميعا وفليت صدوق روى له ابوداود والنسائي وجسة العامرية قال ابن حجر انها مقبولة وقد روى لها ابوداود والنسائي وابن ماجه . وقد روى الحديث النسائي ايضا .

(٢) يقول الهيثمي ( ١٠/١٨٦ ) رواه احمد وابويعلی والطبراني والبخاري قال وذهاب غمي مكان همي ، ورجال احمد وابويعلی رجال الصحيح غير ابي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان .

لك سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك او استأثرت به في علم الغيب عندك ان تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي « إلا اذهب الله عز وجل همه وابدله مكان حزنه فرجا قالوا يا رسول الله ينبغي لنا ان نتعلم هؤلاء الكلمات قال اجل ينبغي لمن سمعهن ان يتعلمهن .

قال تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا »  
**قول القرطبي في زيادة الايمان**

قال ابن جرير عن ابن عباس زادتهم ايمانا يقول تصديقا وقال ابن كثير كما قال ابن جرير وقال القرطبي كما قالوا أي تصديقا فان ايمان هذه الساعة زيادة على ايمان امس فن صدق ثانيا وثالثا فهوز زيادة تصديق بالنسبة الى ما تقدم والى هنا اعتبر القرطبي الزيادة في الايمان هي زيادة في التصديق وهو الاعتماد الذي استقر في النفس وانعقد عليه القلب ثم يورد معنى آخر براعي فيه جانبا آخر قال : وقيل هوز زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة وكأنه يريد ان يذهب في هذا القول الى أن زيادة الايمان ليست في اصل الايمان ولكنها في ثمرة من ثمراته وهي اشراح الصدر و يقول وقد مضى هذا المعنى في آل عمران .

وفي سورة آل عمران عند قوله تعالى « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » يقول فزادهم قول الناس ايمانا أي تصديقا و يقينا في دينهم واقامة على نصرتهم ، قوة وجراءة واستعدادا .

يقول : فزيادة الايمان على هذا هي في الأعمال . وقد اختلف العلماء في زيادة الايمان ونقصانه على أقوال ، والعقيدة في هذا على ان نفس الايمان الذي هو تاج واحد وتصديق واحد بشيء ما إنما هو معنى فرد ، لا يدخل معه زيادة اذا حصل ولا يبقى منه

---

و ابوسلمة الجهني قال فيه ابن حجر في تعجيل المنفعة مجهول قاله الحسيني وقال مرة لا يدري من هو وهو كلام الذهبي في الميزان وذكره ابن حبان في الثقات واخرج حديثه في صحيحه .

والحديث قد ذكره النووي في كتاب الأذكار (ص ١١٣) يقول روي في كتاب ابن السني عن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصابه هم او حزن فليدع بهد الكلمات يقول أنا عبدك ... الحديث فقال رجل من القوم يا رسول الله ان المغبون لَمَنْ غبن هؤلاء الكلمات فقال رجل فنوهن وعلموهن فانه من قاهن التماس ما فيهن اذهب الله تعالى حزنه وأطال فرحه .

شيء اذا زال . فلم يبق الا ان تكون الزيادة والنقصان في متعلقاته دون ذاته .

وهكذا يذهب القرطبي مذهب الذين ينفون الزيادة عن أصل الايمان .

ثم يذكر أقوال العلماء في موضوع زيادة الايمان ملخصه في أربعة : اولها انه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه والثاني ان الايمان عرض والعرض لا يثبت زمانين والثالث أن زيادة الايمان ونقصه إنما هو عن طريق الأدلة والرابع الزيادة في الايمان إنما هي بنزول الفرائض والأخبار في مدة النبي صلى الله عليه وسلم وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر .

ويستدل القرطبي للقول الأول بأن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الايمان على الطاعات لقوله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون باباً فأعلاها قول لا اله الا الله وادناها إماطة الأذى عن الطريق اخرجه الترمذي وزاد مسلم « والحياء شعبة من الايمان » .

اما القول الثاني الذي يعرضه القرطبي فالزيادة فيه في أصل الايمان ذلك لأن الايمان عرض (١) ، والعرض لا يثبت زمانين . اهـ بل يختلف من زمان الى زمان في انسان واحد وهو يختلف ايضا من انسان الى انسان .

يقول القرطبي : فهو (يعني الايمان) للنبي صلى الله عليه وسلم وللصلحاء متعاقب فيزيد باعتبار توالي امثاله على قلب المؤمن و باعتبار دوام حضوره وينقص بتوالي الغفلات . أشار الى هذا ابو المعالي (٢) ويستدل القرطبي بحديث في صحيح مسلم يقول : وهذا المعنى موجود في حديث الشفاعة حديث ابي سعيد الخدري اخرجه مسلم .

والحديث طويل في كتاب الايمان ( رقم ٣٠٢ ص ١٦٧ تحقيق فؤاد عبد الباقي )

(١) العرض ما يوجد في حامله وهو الجوهر و يزول عنه من غير فساد حامله ومنه ما لا يزول عنه .

(٢) ابو المعالي ٤١٩ - ٤٧٨ عبد الملك بن ابي محمد عبد الله بن يوسف الجويني امام الحرمين يقول الحموى اشهر من علم في رأسه نار سمع الحديث من ابي بكر احمد بن محمد بن الحارث الأصفهاني ، وكان قليل الرواية معرضاً عن الحديث و صنف التصانيف المشهورة نحو نهاية المطلب في مذهب الشافعي والشامل في اصول الدين والارشاد وغير ذلك . مات بنيسابور سنة ٤٧٨ و يقول الزركلي اعلم المتأخرين من اصحاب الشافعي .

والحديث في وصف يوم الحساب وفيه ان المؤمنين حين يخلصون من النار يأخذون بالشفاعة لآخوانهم من المؤمنين فيخرجون من النار بأمر الله من في قلبه مثقال ذرة من خير ولفظ ما جاء في الحديث ما يلي :

« حتى اذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من احد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق ، من المؤمنين لله يوم القيامة لآخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا و يصلون و يحجون فيقال لهم : اخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد اخذت النار الى نصف ساقيه والى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها احد ممن امرتنا به فيقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدا ممن امرتنا ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها احد ممن امرتنا ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا .

ويستدل الامام البخاري عليه رحمة الله على زيادة الايمان ونقصانه بالمعنى الذي سبق في صحيحه بالآيات القرآنية ثم بالحديث التالي يرويه عن انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير . قال ابو عبد الله قال أبان حدثنا قتادة حدثنا انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ايمان مكان من خير (ص ١٨ ج ١) .

والقول الثالث. زيادة الايمان لزيادة الأدلة قال القرطبي ذهب قوم من العلماء الى ان زيادة الايمان ونقصه انما هو من طريق الأدلة فتزيد الأدلة عند واحد فيقال في ذلك انها زيادة في الايمان وهذا المعنى فضل الأنبياء على الخلق فانهم علموه من وجوه كثيرة اكثر من الوجوه التي علمه الخلق بها ، وهذا المعنى لا يختلف عن المعنى الثاني كثيرا فهو زيادة في الدليل وفي المعرفة يتبعها زيادة في الأصل .

والقول الرابع يتعلق بزيادة الفرائض في زمن نزولها في عصر النبي عليه الصلاة والسلام وزيادة المعرفة بها لمن جهلها أولا بعد عصره عليه صلوات الله وسلامه .



## قول السيد رشيد رضا في زيادة الايمان

ويقول السيد رشيد رضا في تفسيره :

« وفيما رواه الامام البخاري ومسلم في صحيحها شواهد صريحة في زيادة الايمان من اهمها احاديث اقل الايمان المنجي في الآخرة وحديث الايمان بضعة وسبعون شعبة اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها لهامة الأذى عن الطريق » .

ولهذا الحديث حمل بعض الناس زيادة الايمان على زيادة العمل اللازم له . وبعضهم على زيادة ما يتعلق به الايمان ، يقول : والحق ان الايمان القلبي يزيد وينقص أيضاً فإن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان مؤمناً بإحياء الله للموتى لما دعا ربه أن يريه كيف يحييها ( قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ) فقام الطمأنينة في الايمان يزيد على ما فوّه من الايمان المطلق قوة وكمالاً .

ويروى عن علي ( رضي الله عنه ) انه قال : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا ، وهذا أقوى من الايمان بالبرهان يقول : والعلم التفصيلي في الايمان أقوى واكمل من العلم الاجمالي فن آمن بأن الله تعالى علماً محيطاً بالمعلومات وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات ورحمة وسعت جموع المخلوقات وكان علمه بهن اجمالاً لو سألته ان يبين لك شواهد في الخلق لعجز عنها لا يوزن ايمانه بايمان ذي العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات وعجائب صنعه فيها على النحو الذي جرى عليه العلامة المحقق ابن القيم في كتابه تفصيل النشأتين والامام ابو حامد في كتاب التفكير من الاحياء وقد اتسمت معارف البشر بهذه الأسرار والسنن فعرفوا منها ما لم يكن يخترع عشر معشاره لأحد من القرون الخالية .

ومن كلام العلماء في ذلك قول الواحدي عن عامة اهل العلم : ان من كانت الدلائل عنده اكثر واقوى كان ايمانه أزيد وقال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وارباب المكاشفات و يقين آحاد الأمة .

قال السيد رشيد رضا : وضرب الغزالي مثلاً لتفاوت قوة الايمان وسائر انواع العلم بمن يرى شبح انسان في السدفة ( والسدفة في لغة بني تميم الظلمة والسدفة في لغة قيس الضوء وحكى الجوهرى عن الأصمعي : السدفة والسُدفة في لغة نجد الظلمة وفي لغة

غيرهم الضوء وهو من الأضداد . وقال عمارة السدفة ظلّمة فيها ضوء من أول الليل وآخره ما بين الظلّمة الى الشفق وما بين الفجر الى الصلاة قال الأزهري والصحيح ما قال عمارة ) ثم يراه بعد وضوح الإسفار على بعد فلا يميز صفاته ثم يراه في نور الشمس بجانبه فهل يكون علمه به في كل هذه الأحوال واحداً ؟

يقول رشيد رضا :

وجملة القول ان زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات اخرى كقوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول إذا دعاهم الى القتال بعد ما اصابهم القرع في غزوة احد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وفي معناه قوله تعالى في سورة الأحزاب ( ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما ) وفي معناه قوله تعالى في اول سورة الفتح : « هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » يقول السيد رشيد : وعليه جمهور السلف بل حكى الاجماع عليه الشافعي واحمد وابوعبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره يقول رشيد رضا فن العجب بعد هذا ان تنقل هفوة لبعض العلماء انكر فيها زيادة الايمان لشبهة نظرية ويجعل مذهبا يقلد صاحبه فيه تقليدا وتوؤل الآيات والأحاديث لأجله تأويلا .

ابو حنيفة رحمه الله وزيادة الايمان

ومن لطائف الأمور ان احد علماء السادة المتأخرين ممن بلغوا في العلم شأوا بعيدا هو الشيخ محمد انور الكشميري المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ صاحب كتاب فيض الباري على صحيح البخاري .

يكاد ينكر نسبة القول بنفي الزيادة والنقصان الى الامام ابي حنيفة رحمه الله . يقول في الكتاب الذي سبق ذكره ( ج ١ ص ٥٩ ) :

« واعلم ان نفي الزيادة والنقصان وان اشتهر عن الامام ابي حنيفة لكني متردد بشأنه لأنني لم اجد فيه نقلا صحيحا صريحا » .

واما ما نسب اليه في ( الفقه الأكبر ) فالمحدثون على انه ليس من تصنيفه ، بل من تصنيف تلميذه ابي مطيع البلخي وقد تكلم فيه الذهبي وقال انه جهمي . اقول ( من

اتباع جهم بن صفوان وهو رأس الجهمية قال الذهبي الضال المتدع هلك في زمان صغار  
التابعين وقد زرع شرا عظيما ومن عقائد الجهمية ان الجنة والنار تفنيان . وان الايمان هو  
المعرفة فقط دون سائر الطاعات وانه لا فعل لأحد على الحقيقة الا لله . والانسان مجبر على  
أفعاله الى آخر ضلالاته .

أما ابو مطيع البلخي فاسمه الحكم بن عبد الله ترجم له الذهبي في ميزان الاعتدال  
وقال : كان بصيرا بالرأي علامة كبير الشأن ولكنه واه في ضبط الأثر وكان ابن المبارك  
يعظمه ويحمله لدينه وعلمه قال ابن معين: ليس بشيء وقال مرة ضعيف. وقال البخاري  
صاحب رأي وقال احمد لأينبغي ان يروى عنه شيء وقال ابو داود تركوا حديثه وكان  
جهميا وقال العقيلي حدثنا عبد الله بن احمد سألت ابي عن ابي مطيع البلخي فقال  
ينبغي ان يروى عنه حكوا عنه انه يقول الجنة والنار خلقتا فستفنيان وهذا كلام جهم .

ويروى له الذهبي حديثا عن حماد بن سلمة عن ابي المهزم عن ابي هريرة ان وفد  
ثقيف سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان هل يزيد او ينقص فقال لا ، زيادته  
كفر ونقصانه شرك (١) .

(١) يروي الذهبي هذا الحديث ليرينا مبلغ نكارة حديث البلخي ، وابو المهزم الذي جاء ذكره هو  
صاحب ابي هريرة قال النسائي متروك وقال مسلم بن ابراهيم سمعت شعبة يقول كان ابو المهزم مطروحا  
في مسجد لو اعطاه انسان فلما لحدثه سبعين حديثا وفي رواية ثانية عن شعبة ولو يعطى درهم لوضع  
حديثا .

ويقول الشيخ الكشميري : ونقل في شرح (عقيدة الطحاوي) عن طريق ابي مطيع البلخي عن  
النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه ان الايمان لا يزيد ولا ينقص قال ابن كثير في اسناده كل رجاله  
مجروحون ، ورأيت هذا الحديث في الميزان في ترجمة البلخي فأسقطه الذهبي اقول لفظة فأسقطه غير  
واضحة ولكني رجعت الى شرح العقيدة الطحاوية فوجدت الحديث هناك مذكورا بسند كامل عن الفقيه  
ابي الليث السمرقندي وفي الحديث زيادة غير مذكورة عند الذهبي وهي الايمان مكمل في القلب زيادته  
كفر ونقصانه شرك ( الايمان مكمل في القلب ) هي المفقودة في رواية الميزان ولعل هذا الذي يعنيه  
الشيخ الكشميري بقوله فأسقطه اي اسقط منه .

واقول ان ما اسقطه الذهبي ايسر بكثير من نقل الشيخ للحديث فالشيخ الكشميري يقول نقل ما  
معناه ان الايمان يزيد وينقص ولفظ الحديث زيادته كفر ونقصانه شرك ومن الأمانة العلمية ومن شروط  
المحدثين فيمن يحدث بالمعنى ان يكون عالما بما يغير المعنى ونقل الشيخ يخفف نكارة الحديث وقد قال عنه  
ناصر الدين الألباني موضوع وهو على حق في رأينا .

ومما سبق يتبين ان الشيخ الكشميري كان متسامحا في عزوه التهمة بالجهمية الى الذهبي ذلك ان الذهبي كما رأينا ذكر رأيه في اول الترجمة فقال كان بصيرا بالرأي علامة كبير الشأن ولكنه واه في ضبط الأثر وهذا رأي الشيخ بعينه والذهبي ينقل تهمة بالجهمية عن ابي داود ويؤيد ذلك قول عبد الله بن احمد بن حنبل عن ابيه ثم يقول الكشميري : اقول ليس كما قال ولكنه ليس بحجة في باب الحديث لكونه غير ناقد .

وقد نفى الشيخ نفيا قاطعا بغير ايراد حجة كون ابي مطيع جهميا اما الذهبي فقد سرد اقوال ائمة النقده البخاري وابن معين والنسائي واحمد وكان حريا بالشيخ الكشميري ان يواجه هؤلاء في نقدهم و يبين وجه الحق .

ثم يقول الشيخ الكشميري :

وقد رأيت عدة نسخ للفقهاء الأكبر فوجدتها كلها متغايرة وهكذا « كتاب العالم والمتعلم » و « الوسيطين » الصغير والكبير كلها منسوبة الى الامام والصواب انها ليست له . واما الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى فانه وان نسب الزيادة والنقصان الى امامنا رحمه الله تعالى لكن في طبعه سورة وحدة فاذا عطف الى جانب عطف ولا يبالي واذا تصدى الى احد تصدى ولا يحاشي ، ولا يؤمن مثله من الافراط والتفريط فالتردد في نقله لهذا وان كان حافظا متبحرا .

اقول : يدع الشيخ الكشميري نقل الامام ابن تيمية بعد ان شهد له بأنه حافظ متبحر لأن في طبعه سورة وحدة وقد تبين للشيخ الكشميري في النهاية ان ما ذكره ابن تيمية حق .

يقول الشيخ الكشميري : ولما انعدمت النقول الصحيحة عن الامام كدت انفي عنه تلك النسبة غير اني رأيت ان ابا عمرو المالكي ( يعني ابن عبد البر ) نسبه في شرح الموطأ إلى شيخ إمامنا حماد وهو من المتقين المثبتين في باب النقل ، فلا مناص من تسليم تلك النسبة .

يقول الشيخ الكشميري : ثم رأيت في طبقات الحنفية تحت ترجمة ابراهيم بن يوسف تلميذ ابي يوسف ان ابراهيم بن يوسف وأحمد بن عمران انهما كانا يقولان بزيادة الايمان

ونقصانه مع كونها من كبار الحنفية فهذا ايضا كان يريني (١) .

اما المحدثون فكلهم الى ان الايمان يزيد وينقص واثبت شيء في هذا الباب عقيدة الطحاوي فانه كتب في أوله بأنه فيه عقائد الامام ابي حنيفة رحمه الله تعالى وأبي يوسف رحمه الله تعالى وأحسن شروحه شرح ( القونوي ) وهو حنفي المذهب تلميذ ابن كثير ويستفاد منه ان الامام رحمه الله تعالى انما نفى الزيادة والنقصان في مرتبة محفوظة كما سيأتي ولا ينفي مطلقا .

وكيف كان فقد سلمت بالقول المذكور .

وبعد ان يسلم الشيخ بنسبة نفى الزيادة والنقصان الى الامام ابي حنيفة يأخذ في بيان مراده وتقريبه الى الأذهان ويبدأ بالتسليم بأن الزيادة والنقصان في الايمان بمعنى التصديق أمر ممكن وان لم يتكلم فيه السلف برأيه لأن السلف تكلموا في زيادة الايمان دون تحليله بحث منطقي اوجده المتكلمون من المتأخرين ولكنه يرجع عن هذا اعني عن كلامه عن السلف .

يحاول الشيخ الكشميري بيان مقصد الامام ابي حنيفة في قوله ( الايمان لا يزيد ولا ينقص ) ويصف المراحل التي مر بها في بحثه اما المرحلة الأولى فهي الريب في نسبة هذا القول الى الامام ابي حنيفة والشك في ذلك ولقد انتهت هذه المرحلة بأنه لم يجد مناصداً من التسليم بنسبتها الى الامام .

وفي المرحلة الثانية يبين بأن الخلاف بين الامام ابي حنيفة وبين السلف ناشىء من اختلاف مفهوم الايمان ، السلف ادخلوا في مفهوم الايمان العمل وابو حنيفة لم يدخل الأعمال في الايمان ومن هنا جاء الخلاف ومعنى الزيادة في نظره على هذا عند السلف هي الزيادة في الأعمال فكان مؤدى هذا الفهم ان السلف حين قالوا ان الايمان يزيد وينقص لم يلحظوا اجزاء الايمان يعني لم يلحظوا جزء التصديق وانما تكلموا عن الايمان بمجموعه .

يقول :والسلف انما اختلفوا في الايمان نفسه لا في جزء منه بعد التحليل فمن قال انه

---

(١) اقول لا ادري اين مكان الريبة في هذا او مرتاب في نسبة هذا القول الى اثنين من كبار الحنفية اه يرى ان قولها زيادة الايمان يزيد ريبة في نسبة القول الى الامام ابي حنيفة ولعل الأول اقرب .

قول وعمل ذهب الى الزيادة والنقصان لأنه ادخل العمل في الايمان فمن عمل عملا صالحا فقد تم ايمانه ومن نقص فيه انتقص ايمانه لا محالة ومن لم يدخل الأعمال في الايمان بل جعله عبارة عن التصديق لم يلزم عليه ذلك فأصل النزاع في ادخال الأعمال في مسمى الايمان واخراجها عنه وان الايمان امر او امور ولذا بوب البخاري فيما بعد «باب امور الايمان» .

وفي هذه المرحلة لا يحجم الشيخ الكشميري عن التصريح بأن الايمان بمعنى التصديق يزيد وينقص و يرد على حجج الثقة و يلخص ادلتهم بدليلين يردهما .

اما الدليل الأول الذي يرده فخلاصته ان التصديق ماهية فلو قلنا بالزيادة والنقصان لزمنا التشكيك في نفس الماهية والتشكيك في الماهية باطل .

يذكر الشيخ بأن الكمال بن الهمام لجأ الى هذا الدليل والكشميري يرده من وجهين اولهما انه استمداد من قواعد الفلاسفة وهو عار والوجه الثاني انه لا حرج في التشكيك في الماهية فدليلهم في نفسه باطل عند المحققين و يقول لو صح قولهم للزم عليه الا تكون الصلاة ايضا ناقصة وزائدة مع ان زيادتها ونقصانها لا ينكره احد .

والدليل الثاني قالوا لوجوز التشكيك في التصديق لزم اجتماع التصديق والشك معا فلا يبقى التصديق منجيا فلا يكون ايمانا .

يقول: وهذا افحش من الأول و يضرب مثلا بسواد الغراب وسواد الثوب و يقول نقص سواد الغراب عن سواد الثوب لا يستلزم مجيء جزء من البياض في سواد الغراب لأن السواد عرض عريض وفيه مراتب لا يعدها عادً و ينتقل بعد بحثه هذا الى التصديق و يقول : كذلك التصديق لا ينتفي الا بعد انتفاء جموع مراتبه ولا يلزم بانتفاء جزء منه ان يقوم مقامه جزء من الكفر فان الايمان ايضا عرض عريض .

وبعد ان ثبت ان التصديق يعتريه النقص والزيادة يقول : على ان هذا البحث لم يجز لدى السلف بل هو بحث عقلي اوجده المتأخرون و يبين ما سبق ان ذكرنا ان بحث السلف في مجموع الايمان لا في اجزائه ثم يرجع فيبين خطأه في هذا الفهم بعد زيادة النظر والتأمل . يقول : هكذا كنت اقيم تحقيق الاختلاف ( يعني بأن من قال انه قول

وعمل ذهب الى الزيادة والنقصان ومن لم يدخل الأعمال في الايمان لم يلزمه ذلك )  
واليه ذهب اكثر الشارحين . يقول ثم رأيت زيادة في مقولة السلف انقلب منها المراد  
ففهمت حقيقة الحال وهي انهم قالوا الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فبان منه  
انهم قائلون بالزيادة والنقصان في التصديق الباطني لا في الايمان المركب .

وهنا دخل الشيخ الكشميري في مرحلته الأخيرة ففهمه السابق ليس صحيحا وقد  
وجدنا هذا الفهم لدى القرطبي ونقلنا عنه انه يقول الزيادة والنقصان بالزيادة والنقصان  
في التصديق نفسه وهو قد اثبت لنا عقليا امكان زيادة التصديق ونقصه فما معنى قول  
الامام ابي حنيفة ان الايمان لا يزيد ولا ينقص .

قال السلف : الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

يقول الشيخ الكشميري : ان عبارتهم هذه تدل على ان الأعمال داخلة في ازدياد  
الايمان ونقصانه وسبب له وان لها سراية وتأثيرا في غناء التصديق والايمان لا انها اجزاء .  
فليس الاخلال عندهم بالعمل كقطع الغصن من الشجرة بل كعدم سقيها بالماء فلا بد من  
أن تيبس .

بعد كل هذا ما هو موقف الإمام ابي حنيفة في زيادة الايمان ونقصه ؟

بعد ذكر ما سبق وبعد التنبيه الذي اوردته الشيخ من ان الأعمال كالماء بالنسبة  
للشجرة اذا انقطع عنها كان سببا في موتها فهي عامل أساسي في نمو الايمان وبقائه ، بعد  
ذكر هذا يقول : ثم الزيادة والنقصان بهذا المعنى أمر لا ينكره الامام فان الانفساح  
والانشراف زائد وناقص قطعاً وهو المبحوث عنه في القرآن وعليه يحمل ما تلا المصنف  
( يعني البخاري رحمه الله ) من الآيات . اقول ولفظة الانفساح والانشراف تلفت النظر لقد  
اثبت الشيخ امكان الزيادة والنقصان في التصديق نفسه فأين يقع الانفساح والانشراف  
من التصديق أهو نفسه ام ثمرته ؟ يجيب بعد قليل بأنها من مراتب الكمال في التصديق .

يقول : وحاصل الخلاف على هذا التقدير أن الامام أبا حنيفة رحمه الله تعرض لأمر لم  
يتعرض له السلف فإنه تكلم في مرتبة محفوظة وهي التي يدور عليها أمر النجاة وليس  
بعدها الا الكفر .

و يقول : فالتصديق وان كان زائدا او ناقصا باعتبار مراتب الكمال والانفساح والانشراح إلا أن هنالك مرتبة منه معينة ذكرها الكمال بن الهمام وسماها التصديق بمعنى انتفاء الشك لا تفاوت فيها لأنه لا تفاوت بين الانتفاء والانتفاء وانما التفاوت في الانشراح والاستيلاء .

يستشهد الشيخ الكشميري على ما ذكر بقول الغزالي :  
قال رحمه الله إن الايمان قد يطلق على اليقين بمعنى انتفاء النقيض ولا تفاوت فيه وقد يطلق على استيلاء اليقين على القلب وجعله الجوارح تابعة له وهو الأكثر وهذا هو الذي فيه التفاوت واستشهد ايضا بقول الطحاوي في عقيدته ، قال رحمه الله :

الايمان واحد وأهله في أصله سواء ، والتفاضل في الخشية والتقوى ومخالفة الهوى وملازمة التقوى ... الخ

يقول الكشميري : فجعل للايمان أصلاً وجعل الناس كلهم فيه سواء وهو الذي لو انحط عنه الإيمان لجاء الكفر مكانه ، وأبقى التفاضل في امور تتعلق بالايمان من الخشية وغيرها والايمان بمعنى التقوى والخشية يزيد وينقص والناس يتفاضلون فيه .

وهكذا بين الكشميري أن كلام الامام منصب على أصل الايمان الذي لو نقص عنه لانتهى الى الكفر وهنا ترد عليه ايرادات كثيرة منها أن الشيخ نفسه رحمه الله قال إن الامام أبا حنيفة تعرض لأمر لم يتعرض له السلف والذي يبدو لنا جلياً أن عدم التعرض له هو الأولى وان يسعنا ما وسع السلف هو الأولى ذلك لأنه فتح لبحوث نظرية ومجادلات كلامية لا تأتي بطائل ولكنها تصرف المؤمنين عن واجبه الأول وهو العمل والجهاد وإصلاح مجتمعهم وبناء أمتهم وحمل دعوتهم الى الناس جميعاً ثم ان هذا البحث يفرق الجماعة و يكسر الوحدة ولذلك كان التزام ما فعله السلف والاكتفاء به هو الأولى ثم إن هذا البحث النظري ليس مما تدركه العقول ادراكاً تصل فيه الى كنهه ويبدو لي جلياً أنه لا يخلو من أخطاء مهما تعمق الباحث فيه ذلك أن حقيقة الانسان مجهولة . ولقد نقل الشيخ عن الكمال بن الهمام وعن الغزالي بأنها جعلاً للايمان أصلاً لا تفاوت فيه وهذا في نظري كلام يحسبه المنطق صواباً وهو في الواقع خطأ ، اذا كان الكمال يتفاوت عند الرجال فلأن الأصل يتفاوت أيضاً وما هو هذا الأصل أي يمكن تحديده وقياسه هل يمكن



أن نفيس أصل الايمان لدى أي انسان ونحذف عنه الزوائد التي اضيفت الى الأصل ؟ .

هل الناس متساوون في هذا الأصل ؟ أهذا الأصل كم أم كيف ؟ هل أصل ايمان ابي بكر كأصل ايمان عامة الناس ؟ هل يتأثر هذا الأصل بعقل الانسان ومزاجه وعواطفه وميوله ورغباته وهذه كلها مختلفة متفاوتة من انسان لانسان ، إن من حكمة الله جل شأنه أن جعل في هذا الانسان وفي المخلوقات جميعا وحدة في افتراق وافتراقاً في وحدة فالبشر كلهم يشتركون بصفات البشرية ويفترق كل واحد عن الآخر بما يميزه عنه في كل صغيرة وكبيرة فلا يشبه لونا ولا صوتاً صوتاً ولا فهم فهماً وكذلك لا يشبه ايمان ايماناً ولا يشبه أصل بإيمان أصل ايمان .

على أن هذا البحث بهذه الطريقة قد يكون غير مجد أيضاً والبحث السليم كما قال ابن تيمية رحمه الله : الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتاج في ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم .

### حقيقة الانسان مجهولة

يتساءل الباحثون المحدثون الذين قطعوا أشواطاً حسنة في معرفة سلوك هذا الانسان سلوكه الظاهري وسلوكه النفسي يتساءلون كيف يفكر هذا الانسان وكيف يجب وكيف يبغض وكيف يعتقد ويجدون أنفسهم عاجزين عن الاجابة عن هذه الاسئلة إجابة دقيقة عميقة ذلك أن كل ما توصلوا اليه شيء يسير جدا عن هذه الحوادث النفسية التي لا ينقطع الانسان لحظة من المرور بعشرات منها عرفوا يسيرا عن مظاهر هذه الحوادث وبعض ارتباطاتها ولكنهم يجدون من العسير جدا أن يصلوا الى الحقيقة والى الأعماق ونجدهم ما يزالون يختلفون اختلافا كبيرا في تفسير الحوادث النفسية بحسب المدارس التي ينتمون اليها فهناك الماديون الذين ينفون وجود نفس في هذا الانسان أو عقل له كيان خاص يؤثر في وجود المادى ويتأثر به بل هم يرون أنه ليس هنالك شيء وراء هذا الجسم وآلاته واعصابه وما الذي يسميه الناس نفسا او عقلا إلا أثر من آثار هذه الجسم المادي في نظر هؤلاء وهم لا يؤمنون بأن للانسان فطرة أو استعدادا فطريا يأتي الى هذا العالم وهو مجهز به يحمله في ثنايا نفسه ولكنه يتعلم كل شيء بعد ولادته من بيئته هذه النظرة المادية تغاير نظرة أكثر الباحثين في علم النفس ذلك انهم يرون أن الكيان النفسي غير الكيان

الجسمي وأن في هذا الانسان استعدادات فطرية يحلمها في تكوينه قبل أن يولد .  
وكل هذا نرسمي من ورائه السى غرض هام جدا أن هذا الانسان مايزال مجهولا ولم  
يستطع الباحثون بعد أن يعرفوا أبسط العمليات النفسية التي يقوم بها كيف يتذكر أو  
ينسى كيف يُسر أو يتألم وكيف يفضب أو يرضى وبيت القصيد كيف يعتقد ، وهذا  
الموضوع أعظم الموضوعات التي عالجها الباحثون أهمية .

والحق أنه لما كان عنصر الحياة مجهولا وحقيقة معنى الحياة مجهولة فكذلك كل ما  
يتصل بهذه الحياة مايزال مجهولا في حقيقته وجوهره ، وانما يعرف الباحثون مجرد  
الارتباطات الظاهرة .

### دراسة الاعتقاد دراسة نفسية

وفي دراسة الاعتقاد دراسة نفسية نجد بعض الباحثين يبنون الاعتقاد على الحاجة  
والعمل فيقولون إن الأفكار التي نصدقها هي الأفكار الناجحة في حياتنا وعلى هذا  
فالعمل ميزان الاعتقاد بمعنى أن الأفعال التي نقوم بها إذا أدت الى النجاح تمسكنا بها  
واعتقدنا صحتها . ويرى هؤلاء أن الاعتقاد يتغذى بالعمل وبالحياة وأن الايمان الذي لا  
يعمل قد يكون صادقا ولكنه لا يلبث أن يصاب بالفتور والموت ثم إن الاعتقاد لا يفارق  
مظاهره الخارجية أبداً .

هذه النظرية تؤيد قول السلف بأن الايمان لا يمكن ان ينفصل عنه العمل .  
وهكذا ترى هذه النظرية النفسية أن الاعتقاد ليس إلا الظواهر الناجحة في الحياة  
التي هي مظهر للاعتقاد .

وقد نقدها ناقدها بأنها غالت في تقدير الأعمال وجعلتها هي الاعتقاد وحدها .

والنظرية الثانية ترى ان الاعتقاد مجرد من تأثير العقل تماما وانه قائم على ما لقنه وما  
رغب فيه فبعض الناس يعتقد مذهباً لما يرى فيه من تحقيق مصالحه وهكذا يرى هؤلاء أن  
ايمان اكثر الناس بالعقائد الموروثة مبني على التقليد والتلقين لا على اليقين و يرون أن  
العقل يسخر لما يريد الانسان فلا يريد الانسان ما يستيقن به ولكنه يستيقن ما يريد  
ونتائج هذه النظرية الريب لأن الاعتقاد في نظر هؤلاء لا يستند إلى أصول برهانية  
ثابتة .

والنظرية الثالثة يقول بها انصار المبدأ العقلي الذين يقولون ان الاعتقاد تابع للعقل وفي رأي هؤلاء أن العقل لا يستبدل بالبراهين الرغائب ولا يدع الأسباب العقلية للبواعث العاطفية واذا حاولت الرغبات أن تغتصب حق العقل شعر الانسان أنه يكذب على نفسه .

أكبر دليل في نظر هؤلاء أن الذين يشكون في النظرية العقلية هم انما يحاربون العقل بالعقل نفسه .

وقد وجد الباحثون أن كل نظرية من النظريات السابقة لا تخلو من جانب من الصواب كما لا تخلو من خطأ والخطأ فيها كلها اعتبارها احوال النفس منفصلاً بعضها عن بعض والواقع ليس كذلك إذ النفس وحدة متصلة وكل مترابط الأجزاء متداخل فالعقل لا ينفصل عن الانفعالات والوجدانات وهي لا تنفصل عنه والارادة محصلة لجميع القوى المنبعثة عن الأفكار والعواطف .

واذا كانت الفكرة قوة دافعة كما يقول اصحاب المذهب العقلي فالعواطف ايضاً قوى محرّكة والعقل محتاج الى العمل ليمتحن المعاني التي لديه وهكذا كان الرأي الصواب أن العناصر الثلاثة تسهم في بناء كل عقيدة وهي الفكر والعاطفة والعقل والنفس بكل ما فيها تشارك في الاعتقاد وقد يكون لبعض مظاهر النفس غلبة على المظاهر الأخرى ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص .

ثم إن الاعتقاد لا بد له من اسباب اجتماعية أيضاً فلا يعيش المعتقد ولا ينمو إلا اذا هيا له المجتمع أسباب الحياة والنمو .

وهكذا نجد هذا البحث النفسي السابق يلتقي تمام الالتقاء مع رأى السلف في موضوع الاعتقاد فالاعتقاد ليس تصديقاً فكرياً فحسب ولكنه يشمل النفس بكل ما فيها فهو أمر يجري في نفس المرء ولكن ما يجري في الداخل لا يمكن ان يترجمه السلوك وتدل عليه المظاهر .

### المصطلحات الشرعية يحكم في معناها الشرع

ولكن مهما بلغ تفكيرنا في الأمر فلن يصل الى كبد الحقيقة والرأي في مثل هذه

الموضوعات التي تولى الشرع بيانها وايضاها ان نلتزم ما جاء به الشرع لا نعيد عنه ولا نحاول بحته بعقولنا بحثا بعيدا عما أتى به الشرع فلن تصل عقولنا في هذا المضمار الى كنهه ولكن تدرك الأعماق ، وهذا الذي نبه اليه الامام ابن تيمية عليه رحمة الله ووجه الانظار اليه فكان قوله نبراساً مضيئاً وفيصلاً حاسماً .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية عليه رحمة الله في كتاب الايمان :  
ومما ينبغي ان يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة انواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله تعالى ( وعاشروهن بالمعروف ) ونحو ذلك .

يقول عليه رحمة الله :

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها إما في دلالة الالفاظ واما في المعاني المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله . وكل مقدمة تخالف بيان الله ورسوله فانها تكون ضلالا ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته الى عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة .

وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول اذا وجدوا الى ذلك سبيلا ، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها انه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله .

قال تعالى في الشيطان : « إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » وقال تعالى « الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله إلا الحق » وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

يقول شيخ الاسلام : « مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله

أخذوا يتكلمون في مسمى الإيمان والاسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها ، مثل أن يقولوا الإيمان باللغة هو التصديق والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لا غيرها فيكون مراده بالإيمان التصديق ثم قالوا والتصديق انما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الإيمان .

فيقال لهم اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث اكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالي ومن يعادي ، والدين كله تابع لهذا ، وكل مسلم محتاج الى معرفة ذلك أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل هذا كله ووكله الى هاتين المقدمتين يعني بالمقدمتين الأولى الإيمان هو التصديق والتصديق انما يكون بالقلب فالأعمال ليست من الإيمان .

يقول ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فان الإيمان يحتاج الى معرفته جميع الأمة فينقلونه ، فلا يجوز أن يكون أصل الدين مبني على مثل هذه المقدمات .

ينفي شيخ الاسلام أن يكون التصديق مرادفاً للإيمان و يبين وجوه المفارقة بينها . ويرى أن تفسير الإيمان بالإقرار أقرب من تفسيره بالتصديق مع البون بين الإيمان والإقرار ثم يذكر أن لفظ الإيمان لا يستعمل الا في الخبر عن غائب وليس كذلك التصديق فلا يقال لمن اخبر عن مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت آمنة ولا آمناً له ، ولكن يقال صدقناه فان الإيمان مشتق من الأمن فيستعمل في خبر يؤمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذي يؤمن عليه المخبر .

ثم إن لفظة الإيمان لا تقابل باللغة بالتكذيب اما لفظة التكذيب فيقابلها التصديق ولفظة الإيمان يقابلها الكفر والكفر ليس تكذيباً فحسب وكذلك الإيمان ليس تصديقاً فحسب .

الكفر قد يكون تكديماً وقد يكون مخالفة ومعادة وامتناعاً بلا تكذيب والإيمان على هذا ليس تصديقاً فحسب بل هو تصديق مع موافقة وموالاتة وانقياد .

**قولهم إن التصديق لا يكون الا بالقلب مردود**

وبعد هذا التفريق بين الإيمان والتصديق الذي هو غاية في الابداع ينزل ابن تيمية

ويقول اذا فرض انه مرادف للتصديق فقولهم إن التصديق لا يكون الا بالقلب أو اللسان عنه جواربان :

اولهما لا نسلم بأن التصديق خاص بالقلب واللسان بل التصديق يشمل الأفعال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العيان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي » وقال الحسن البصري : « ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال » .

وهكذا يثبت ابن تيمية عليه رحمة الله أن التصديق يكون في الجوارح و يكون في الأعمال وهو معنى لطيف ايضا فالمؤمن تصدق جوارحه ايمانه ، يصدق ايمانه وجهه ولسانه و يده ورجله وسعيه .

و ينقل ههنا كلام سعيد بن جبير بأن التصديق ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن والقصة جميلة نقلها بنصها :

روى محمد بن نصر باسناده ان عبد الملك بن مروان كتب الى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل فأجابه عنها : سألت عن الايمان فالايان هو التصديق أن يصدق العبد بالله وملائكته وما انزل من كتاب وما ارسل من رسول وباليوم الآخر وسألت عن التصديق والتصديق ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف انه ذنب واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه فذلك هو التصديق ، وتساءل عن الدين فالدين هو العبادة فإنك لن تجد رجلا من أهل الدين ترك عبادة أهل دين ثم لا يدخل في دين آخر الا صار لا دين له ، وتساءل عن العبادة والعبادة هي الطاعة .

و ينقل ابن تيمية رحمه الله قول معمر عن الزهري كنا نقول الاسلام بالاقرار والايان بالعمل والايان قول وعمل قرينان لا ينفع أحدهما إلا بالآخر .

و ينقل قول الأوزاعي : كان من مضي من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل :

العمل من الايمان والايان من العمل .  
يقول ابن تيمية هب ان الايمان هو التصديق فهو تصديق مخصوص كما ان الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص والصيام امسك مخصوص وهذا التصديق له لوازم

وصارت لوازمه داخله في مسماه عند إطلاق لفظه . فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم و يبقى النزاع لفظيا هل الايمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم .

أقول : أورد الامام ابن تيمية أدلة ثلاثة وسلك مسالك ثلاثة أولها نفى فيها أن يكون الايمان هو التصديق وحده والثاني سلم تنزلا انه هو ولكنه لم يسلم ان التصديق لا يكون الا بالقلب بل الجوارح تصدق والأعمال تصدق والتالث سلم أيضاً أن الايمان تصديق ولكنه تصديق مخصوص له لوازمه من العمل وعلى الوجه الأخير الايمان يدل على العمل دلالة لزومية والوجهين الأولين تضمنية . وأدلته أدلة واضحة مقنعة لا سبيل إلى الطعن فيها .

وبعد هذا كله يقول عليه رحمة الله منصفا :

التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة نزاع لفظي ذلك أن القائلين بأن « الايمان قول » من الفقهاء كحماد بن ابي سليمان وهو أول من قال ذلك ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد .

والايمان بدون العمل المفروض يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة و يقولون ايضا بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة .

فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وما تواتر عنه من أنهم من اهل الوعيد وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله فيها ولا يخلد منهم فيها أحد ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء ولكن الأقوال المنحرفة من يقول بتخليدهم في النار كالخوارج والمعتزلة وقول غلاة المرجئة : ( ما نعلم أحداً منهم يدخل النار ) .

بعد ان اثبت شيخ الاسلام ابن تيمية عليه رحمة الله بأدلة لا تدفع أن الايمان تصديق وقول وعمل ، عرض للمشكلة التالية وأوضح سبيل المخرج منها قال : إذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فتى ذهب بعض ذلك فهل يبطل الايمان ويلزم عليه تكفير أهل الذنوب كما تقول الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما تقول المعتزلة ؟ .

و يقول عليه رحمة الله في الجواب : تخليد أهل الكبائر في النار هو قول لم يوافق الخوارج عليه أحد من أهل السنة ولقد اتفق الصحابة والتابعون لهم وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان واتفقوا أيضاً على أن نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته ، ففي الصحيحين عنه أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .

و ينتقل بعد رد بدعة الخوارج إلى الحديث عن أصل الموضوع وهو أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب ، يقول : هذا ممنوع وقد تفرع عن هذا الأصل بدعتان متقابلتان إحداهن تقول إذا ذهب من الإيمان بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء فيخلد صاحبه في النار والفرقة المقابلة ( المرجئة ) تقول : لا تذهب الكبائر والمعاصي ولا ترك الواجبات الظاهرة بشيء من الإيمان إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء .

يقول ابن تيمية رحمه الله ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه كقوله « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

يقول رحمه الله ولهذا كان أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفاضل جمهورهم يقول يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول كعبد الله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان عن الصحابة يقول ابن تيمية ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة .

روى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه .

وروى اسماعيل بن عياش بسنده عن أبي الدرداء قال : الإيمان يزيد وينقص . وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد قال حدثنا جرير بن عشان قال سمعت أبا شيخان أو بعض أبا شيخان أن أبا الدرداء قال : إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ومن



فقه العبد أن يعلم أيزداد إيمانه أم ينقص ؟ وان من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه .

وروى اسماعيل بن عياش بسنده إلى أبي هريرة قال الإيمان يزيد وينقص .  
وروى احمد بن حنبل بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول لأصحابه هلموا نزدد إيماناً فيذكرون الله عز وجل .

وقال أبو عبيد في الغريب في حديث على أن الإيمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة .

ويروي احمد بن حنبل بإسناده إلى ابن مسعود يقول في دعائه اللهم زدنا إيماناً و يقيناً و قهياً .

ويروي سفيان الثوري بإسناده إلى معاذ بن جبل يقول للرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله ، وروى أبو الإيمان بإسناده أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن في مجلس ذكر . وضح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : الإنصاف من نفسه والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالم .

قال ابن تيمية عليه رحمة الله :

وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازدنا إيماناً .

وقال مالك بن دينار : الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبقلة فان صاحبه تعاوده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة وأماط عنه الدغل (١) وما يضعفه و يوهنه لاشك أن ينمو و يزداد و يصير له أصل وفروع ، وثمره وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال ، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاوده جاءه عزفتفتها (٢) أو صبي فذهب بها أو كثر عليها الدغل (٣) فأضعفها أو أهلكتها أو أيسسها كذلك الإيمان .

(١) الدغل الفساد مثل الدخل ، والدغل الشجر الكثير الملتف وقيل هو اشتباك النبت وكثرته والمراد هنا الفساد .

(٢) لفظة عز مؤنثة وهي الأنثى من المعز والنتف فصيحة نزع الشعر وما يشبهه .

(٣) هنا اشتباك النبت وكثرته .

وقال خيشمة بن عبد الرحمن الايمان يسمن في الخصب ويهزل في الجذب فخصبه العمل الصالح وجذبه الذنوب والمعاصي وقيل لبعض السلف يزداد الايمان و ينقص ، قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال ، و ينقص حتى يصير أمثال الهباء .

وفي حديث حذيفة الصحيح : « حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » .

وهذا الحديث في صحيح مسلم في باب رفع الأمانة والايان من بعض القلوب (١) قال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت احدهما وانا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال (٢) . ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ٥ ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (٣) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل (٤) كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منتبرا (٥) وليس فيه شيء (ثم اخذ حصا فدحرجه على رجله ) فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » .

والحديث الآخر يرويه ابن تيمية وهو في صحيح مسلم (٦) ونصه كما يلي عن حذيفة قال كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن فقال قوم نحن سمعناه فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في اهله وجاره قالوا اجل (٧) قال تلك

(١) ١/١٢٦

(٢) الأمانة هنا هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان. والأمانة هي عين الايمان فاذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكليف واغتم ما يرد عليه منها وجد في اقامتها .

(٣) هو الأثر اليسير أو هو سواد يسير .

(٤) هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس او نحوها و يصير كالقبة فيه ماء قليل .

(٥) نفضت يده من باب تعب اذا صار بين الجلد واللحم ماء ، ومنتبرا مرتفعا ومنه المنبر لارتفاعه .

(٦) ٤/٢٢١٨ - ١/١٢١

(٧) فتنة الرجل في اهله من باب قوله تعالى انما اموالكم واولادكم فتنة فقد يقع في الافراط في شأنهم أو التفريط بما يلزم من القيام بحقوقهم وتعليمهم ، وكذا الشأن في الجار قد يقصر في حقه واكثر هذه ذنوب تكفرها الحسنات .

تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ولكن ايكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر  
الفتن التي تموج موج البحر قال حذيفة فأسكت القوم فقلت أنا قال : أنت لله ابوك .

قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تعرض الفتن على  
القلوب كالحصير عوداً عوداً فأبي قلب أشربها (١) نكت فيه نكتة سوداء (٢) وأبي قلب  
أنكرها (٣) نكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا (٤)  
فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض والآخر أسود مر بادا كالكوز مجخيا (٥) لا  
يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه .

قال حذيفة وحدثه أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر قال عمر أكسراً لا أبا  
لك (٦) فلو أنه فتح لعله كان يعاد قلت لا بل يكسر وحدثه أن ذلك الباب رجل يقتل  
أو يموت ، حديثا ليس بالأغاليط (٧) .

يقول ابن تيمية عليه رحمة الله :

وفى حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم  
الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه لأنه وصفهم بقوة الايمان وز يادته في تلك الحاصل  
التي تدل على قوة ايمانهم وتوكلهم على الله في امورهم كلها .

والحديث يرويه مسلم (٨) عن عمران بن حصين باللفظ التالي :

قال عمران بن حصين قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من امتي

(١) اى دخلت فيه دخولا تاما ومنه قوله تعالى : واشربوا في قلوبهم العجل .

(٢) كل نقطة فى شيء بخلاف لونه فهو نكت .

(٣) ردها .

(٤) الصفا الحجر الأملس الذى لا يعلق به شيء .

(٥) مائلا منكوسا وقال القاضى عياض قلب ونكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة .

(٦) هذه كلمة تذكرها العرب للحث على الشيء معناها جد في هذا الأمر وشمر وتأهب وتأهب من  
ليس معاونا .

(٧) قال شارح الحديث : والحاصل ان الحائل بين الفتن والاسلام عمر رضي الله عنه وهو الباب فا دام  
حيا لا تدخله الفتن فإذا مات دخلت الفتن وكذا كان .

(٨) الإيمان ٣٧١

سبعون الفا بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال: هم الذين لا يكتبون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله ان يجعلني منهم قال: انت منهم قال فقام رجل فقال يا نبي الله ادع الله ان يجعلني منهم قال سبقك بها عكاشة .

والرواية الثانية عند مسلم عن عمران بن حصين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « يدخل الجنة من امتي سبعون الفا بغير حساب » قالوا من هم يارسول الله قال: « هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتبون وعلى ربهم يتوكلون » .

أقول ومن الأخبار الجديرة بالتأمل التي تثبت تقلب قلب المؤمن بين إقبال وإعراض وذكر وغفلة حديث حنظلة رضي الله عنه وهو أبو ربيعي حنظلة بن الربيع الأسدي أحد كتاب رسول الله وقد خشي في حديثه النفاق على نفسه . والحديث يرويه مسلم بسنده عن حنظلة ؟ قل نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول ؟ قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأينا عين فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً .

قال ابو بكر رضي الله عنه فوالله إنا لتلقى مثل هذا فانطلقت انا وابوبكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نافق حنظلة يارسول الله فقال رسول الله عليه وسلم: وما ذلك. قلت: يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأينا العين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذبي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات .

وجاء في حديث أبي ذر « وعلى العاقل ان يكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يخاسب فيها نفسه وساعة يفكر فيها في صنع الله وساعة يخلو فيها لحاجته من مطعم أو مشرب » .

ولقد كان لأصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في صحبتهم لرسول الله ما يعرج بنفوسهم الى الملأ الأعلى وما يدفعهم الى حب الله وطاعته والجهاد في سبيله وذلك هو سلطان الحق ودور النبوة وما يسري في نفسه الكريمة الطاهرة عليه صلوات الله وسلامه

من صدق مع الله ينتقل إلى قلوبهم ويجري في نفوسهم قال أنس رضي الله عنه ما نفضنا أيدينا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا .

وبعدُ فإن الإيمان ليرق و يضعف في قلوب المؤمنين حتى يصبح كما هو اليوم في قلوب الكثرة الكاثرة من المؤمنين تغلب عليه الشهوات وتسيطر عليه النزعات وتلاعب به الأهواء يصبح الإيمان أهون من الدنيا وأهون من متعتها ومن لذائذها فلا يبالي المرء بإيمانه في سبيل شهوة من شهواته وفي سبيل متعة من متعه ولا يبالي بالدين إذا انتقص وأصيب من قبل أعداء الله ذلك أن هذا المؤمن قد رق إيمانه فلا يغضب لدين الله ولا يحزن لدين الله ينطبق على امثال هؤلاء قوله تعالى « ثم قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشد قسوة » .

وان الإيمان ليقوى وتثبت أركانه وتشتد دعائمه حتى يهيمن على القلب و يسيطر على الفؤاد فلا يبقى في القلب مكان لغير الإيمان ولا يبقى في الفؤاد حب لغير الله ولا انشغال به ولا يبقى مكان لشهوة ولا لغيره ولا لنزعة أن تسيطر على الفؤاد أو تستأثر به بل تصبح كل شهوة وكل غريزة وكل نزعة وكل استعداد لدى المرء وكل عادة وكل قدرة وكل موهبة كل هذه تصبح جنوداً طيبة مسخرة للإيمان تخدم أغراضه وتسعى في مرضاته يصبح المال في سبيل الإيمان وأغراضه و يصبح الولد في سبيل ذلك و يصبح الغضب في سبيل الإيمان والرضا في سبيله والاستعلاء في الأرض إعلاء لكلمة الله والعزة على أعداء الله والذلة لأوليائه الله .

« قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

ومثل هذا المؤمن له هم واحد يسهده في الليل ويجهده في النهار وله وجهة واحدة تقيمه وتقعده لا يشارك فيها شريك ولا ينازع منازع ومثل هذا المؤمن لو صب إيمانه على الجبال لدكها ولو صب على الجلاميد الصم لفتها ولا يقف في وجه هذا المؤمن شيء ولا تقوم أمامه عقبة .

وبعدُ فلم يكن من غرضنا استيفاء الحجج في الموضوع وإنما هو الاقتصار على بعض

وجهاً النظر ونجد من تمام الفائدة ذكر الحديث الذي جاء فيه ما يجب أن يؤمن به العبد وقد اخرجاه في الصحيحين وهو: الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى (١) . وكأني بمن ينتصر للرأي القائل إن الايمان هو التصديق يجد في هذا الحديث ما يحقق غاية أمله فالحديث نص على أن الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ... الى آخر الحديث .

وقد اشرت الى الجواب حين قلت غرض الحديث تبيان ما يجب على العبد أن يؤمن به فالايان يتعلق بالله جل شأنه وبالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى وليس الحديث بياناً لحد الايمان ولذلك قال عليه الصلاة والسلام والايان أن تؤمن فاذا كان الايمان قولاً واقراراً وعملاً فعني أن تؤمن بالله أن تقر له جل شأنه بقلبك ولسانك بالوجدانية ويلزم ذلك لزوماً ضرورياً لا ينفك ان تلتزم امثال اوامره واجتناب نواهيه وتهب نفسك لطاعته وتقدم ما حباك من نفس ومال وولد في سبيله جل شأنه .

على أني أدع الحديث لشيخ الاسلام ابن تيمية فهو أطول باعاً وأعلى كعباً في فهم حديث رسول الله عليه صلوات الله وتبليغه .

وهو عليه رحمة الله يدع الكلام لمحمد بن نصر المروزي فيقول عليه رحمة الله :

قال الامام محمد بن نصر المروزي (٢) في كتاب الصلاة اختلف الناس في تفسير

(١) الحديث ننقله من صحيح البخارى ، وقد رواه عن ابي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فاتاه جبريل فقال ما الايمان قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما السؤل عنها باعلم من السائل وسأخبرك عن اشراطها اذا ولدت الأمة ربها واذا تناول رعاة الابل اليم في البنيان في خمس لا يعلمهن الا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عنده علم الساعة ، الآية . ثم ادبر فقال دروه علي فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم قال ابو عبد الله جعل ذلك كله من الايمان .

(٢) محمد بن نصر المروزي يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ الامام شيخ الاسلام ابو عبد الله المروزي الفقيه ولد سنة اثنتين ومائتين ومات في المحرم سنة اربع وتسعين ومائتين بسمرقند وله اثنان وتسعون سنة وما ترك بعده مثله قال ابو بكر الصفي : محمد بن نصر امام وما رأيت احسن صلاة منه لقد بلغني ان زنبورا قعد على جبهته فسال الدم على وجهه ولم يتحرك وقال ابن الأخرم لقد كنا نتعجب من حسن

حديث جبرائيل هذا فقال طائفة من أصحابنا : قول النبي صلى الله عليه وسلم «الايان أن تؤمن بالله» وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور وقد وهمت المرجئة في تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم بلسان العرب ، وغور كلاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي قد أعطي جوامع الكلم وفوائحه واختصر له الحديث ختصاراً . اما قوله «الايان أن تؤمن بالله» بأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره بإعطائه العزم للأداء لما أمر مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة فإذا فعلت ذلك لزمته محابه واجتنب مساخطة .

أقول فسر الايمان عليه رحمة الله بالتصديق بالقلب واللسان و يلزم ذلك الخضوع للأمر ويلزم ذلك عقد النية عقدا جازما على الالتزام بالأوامر واجتناب النواهي ويلزم ذلك القيام بالأعمال جهد الطاقة وبمقدار دفع الايمان وقوته فلا يمكن أن يكون تصديق بدون خضوع ولا خضوع بغير التزام ولا التزام بغير تنفيذ فالايان هو مجموع هذه كلها ذلك لأن العمل دليل على الايمان ومقياس له فن لم يعمل مثقال ذرة من خير ولم ينته عن مثقال ذرة من شر كان ذلك دليلاً على أنه ليس في قلبه مثقال ذرة من ايمان ومن عمل وقصر كان ذلك دليلاً على وجود الايمان لديه مع قصور فيه . ولقد نقلنا قول الحسن البصري الايمان ما وقر في الصدر وصدقه العمل وهذا التعريف تعريف عملي واقعي والقول بأنه تصديق فقط نظري فلسفي منطقي وهذا النزاع بين الآراء النظرية المنطقية والواقع العملي معروف مألوف ومن عجب أن الدراسات التربوية الحديثة توصلت في بحوثها الى هذا الخلاف وأخذت تؤثر الجانب العملي وواقع الحياة وأصبحت تجافي الآراء النظرية وأخذت تشق

صلاته وخشوعه يضع ذقنه على صدره وينتصب كأنه خشية .

وقال الزركلي صاحب الأعلام : كان من اعلم الناس باختلاف الصحبة من بعدهم في الأحكام ولد ببغداد ونشأ بنيسابور ورحل رحلة طويلة استوطن بعدها بسمرقند وتوفي بها له كتب كثيرة منها (القسامة) قال ابو بكر الصيرفي : لو لم يكن له غيره لكان من افقه الناس (المسند - ح) في الحديث وكتاب ما خالف به ابو حنيفة عليا وابن مسعود الى غير ذلك ونقل الذهبي عن ابن حزم كلمته الثالثة بشأن محمد بن نصر المروزي قال ابو محمد بن حزم : كان من اعلم الناس واجمعهم للسنن واضبطهم هـ واذكرهم لمعانيها وادراهم بصحتها وبما اجمع عليه الناس مما اختلفوا فيه الى ان قال : وما نعمة هذه الصفة بعد الصحابة اتم منها في محمد بن نصر المروزي ، فلو قال قائل ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه حديث الا ما عند محمد بن نصر ما بعد عن الصدق .

نظرياتها وقوانينها من الحياة وواقع الحياة فهي أصدق من أصحاب النظريات وافكارهم .

وأما قوله (وملائكته) بأن تؤمن بمن سمي الله لك منهم في كتابه بأن الله ملائكة سواهم لا يعرف اسماءهم وعددهم الا الذي خلقهم .

وأما قوله (وكتبه) بأن تؤمن بمن سمي الله من كتبه في كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة ، وتؤمن بأن الله سوى ذلك كتباً أنزلها على انبيائه لا يعرف أسماءها وعددها الا الذي أنزلها وتؤمن بالفرقان وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب . إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

وأما قوله : (ورسله) بأن تؤمن بما سمي الله في كتابه من رسله وتؤمن بأن الله سواهم رسلا وانبياء لا يعلم اسماءهم الا الذي أرسلهم ، وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه ودائبا على اتباع ما جاء به فاذا اتبعت ما جاء به أدبت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات .

وأما قوله (واليوم الآخر) بأن تؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار وبكل ما وصف الله به يوم القيامة .

وأما قوله : وتؤمن بالقدر خيره وشره بأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذا لم يكن كذا ولولا كذا وكذا لم يكن كذا وكذا . قال : فهذا هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وهكذا كان الايمان بالكتب والرسل في نظر الامام محمد بن نصر المروزي تصديقا يتبعه العمل وإقرارا يلزمه الاتباع .

قال تعالى : « انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى رهم يتوكلون » .

أول صفات المؤمنين وجل القلوب عند ذكر الله تباركت اسماؤه وقد بينا أن هذا الوجه لعظمة الله تقشعر له الجلود أولا ثم تلين الجلود والقلوب .



والصفة الثانية من صفات المؤمنين بعد وجل القلوب ثم طمأنينتها استقرار الايمان ورسوخه وزيادته ونموه عند سماع آيات الله المنزلة وأوامره الصاعدة وكل هذا ينتهي الى الصفة الثالثة التوكل على الله وحده وتفويض الأمر اليه جل شأنه ثقة بعظيم لطفه وحسن تدبيره وجميل منته واحسانه .

والآية الكريمة تبين ان المؤمن يتوكل على الله ولا يكل أمره الى احد سواه فالنصر بيده والملك اليه والتوفيق لأسباب النصر بحسن تدبيره جل شأنه .

الآية تفيد القصر، قصر التوكيل على الله وقد قدم الجار والمجرور ليفيد ان التوكل مقصور عليه مختص به .

والآية الكريمة تفيد بأن المؤمن يمثل امر الله و يقدم على مرضاته فيقدم على الجهاد في سبيل الله وقد باع نفسه لا يخشى الموت لأن الأنفس بيد الله يقبضها إن شاء و يرسلها إن شاء و ينفق ماله في سبيل الله لا يخشى الفقر على نفسه ولا على أهله وولده لأن الله تباركت اسماؤه هو الذي يقبض الأموال وهو الذي يبسطها ولا يخشى على ولده من بعده لأن رعاية الله أكبر من رعايته لنفسه ولولده .

وهكذا كانت صفة التوكل على الله مقترنة بروح المغامرة في سبيل الله موجهة الى تقوية العزائم وحفز الهمم وترية الشجاعة والاقدام الى جانب الرضا والطمأنينة و دفع الوهن عن القلوب وابعاد الجزع عن النفوس فالمؤمن لا يهن ولا يحزن ولا يضعف ولا يصيبه الملح ولا الجزع لأن الله معه والله ناصره ومؤيده .

كان أصحاب رسول الله إذا اشتد الخطب وأحاطت بهم المكاره ( قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ) ، وكانوا لا يخشون تألب الأحزاب ولا تكاثر الجموع قال تباركت أسماؤه بشأنهم : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكانوا يجبهون بهذا نفاق المنافقين وخور المشبطين وقد رد الله على الذين كانوا يفرحون بما يحتمل المسلمون من أذى في سبيل الله الذين وصفوا في كتاب الله بقوله « وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل و يتولوا وهم فرحون » رد الله على هؤلاء بقوله

تعالى : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

إنها الكلمة التي تزلزل قلوب المنافقين وتثبت قلوب المؤمنين حتى تكون أشد ثباتا من الجبال ذلك أن المصيبة من عند الله وكل ما يأتي من عنده جل شأنه هو الخير والرحمة لأنه المولى ولأنه النصير .

ربت الآيات الكريمة هذه المعاني في نفوس المؤمنين ليسيروا في ميادين الجهاد غير هيابين ولا وجلين .

روى مسلم عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

المؤمن القوي هو القوي في إيمانه القوي في توكله الذي ينطلق في امتثال امر الله كما ينطلق السهم من الرمية لا يبالي بتخويف المخوفين وإرجاف المرجفين وتثبيط المعوقين فإن أصابه سوء أو لحق به اذى كان ساكن النفس مطمئن الفؤاد لقد قدر الله وما شاء فعل وان المؤمن لوائق بأن كل ما يأتي به قدر الحكيم هو الخير كله . روى مسلم في صحيحه عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء (١) شكر فكان خيراً له وان أصابته ضراء (٢) صبر فكان خيراً به » .

وروى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام اني اعلمك كلمات : احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وان اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتب الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . قال الترمذي حديث حسن .

(١) اي ما يسره .

(٢) اي ما يضره .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن جابر رضي الله عنه انه غزا مع النبي صلي الله عليه وسلم قبلاً نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معهم فأدركتهم القائللة في واد كثير العضاة (١) فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة (٢) فعلق به سيفه ونما نومة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا واذا عنده أعرابي فقال : إن هذا اخترط على سيفي (٣) وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلنا (٤) قال من يمنعك مني قلت « الله ثلاثا » ولم يعاقبه وجلس .

وفي رواية قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فاذا اتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخرطه (سله) فقال تخافني؟ قال لا . فقال فمن يمنعك مني قال : الله . وفي رواية ابي بكر الاسماعيلي في صحيحه فقال من يمنعك مني قال : الله فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال من يمنعك مني؟ فقال : كن خير آخذ فقال : تشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله فقال « ولكني أعاهدك ألا اقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلي سبيله فأتى أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس .

### الانحراف عن المعنى الصحيح للتوكل

ولقد انحرف المسلمون في معنى التوكل باتجاهين فظن بعضهم أن ترك الأخذ بالاسباب من التوكل وظن بعضهم أن ترك العمل في تغيير المنكر من الرضا بقضاء الله والتسليم له .

قال القرطبي : قال سهل : « من قال إن التوكل يكون بترك الأسباب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله عز وجل يقول : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » فالغنيمة اكتساب وقال تعالى « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فهذا عمل .

(١) الشجر الذي له شوك .

(٢) الشجرة من الطلع وهي العظام من شجر العضاة .

(٣) سله .

(٤) مسلول .

ثم يقول القرطبي : وقال غيره : والتوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان أن قضاءه  
ماض ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد من الأسباب من مطعم  
ومشرب وتحرز من عدو وإعداد لأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة ،  
لكنه لا يستحق اسم التوكل مع الطمأنينة الى تلك الأسباب والالتفات اليها بالقلوب .

و يقول السيد رشيد في تفسيره : « واما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى في  
الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا  
تبدل ولا تتحول ، ومثله كمثل من أمره ملكه أو ماله أن يعول في طعامه وشرابه وسائر  
حاجاته عليه ولا يطلب من غيره شيئا وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولأمثاله كل  
يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتنطع هو وامتنع عن الاختلاف الى المائدة مع أمثاله زاعماً  
أن هذا عصيان لأمر الملك في التعويل عليه وانتظر أن يرسل اليه طعاما خاصا - اي انه  
يطلب من ربه أن يبطل سننه في خلقه لأجله فما أعظم جهله وغروره .

وانحرف المسلمون بمعنى التوكل في الأيام المتأخرة وظن ظانهم أن ترك الواجب الذي  
أمر الله به مثل محاربة المنكر من التوكل على الله فكانوا بذلك في منتهى الجهل ورقة  
الايان ، وانك لتجد كثيرين من المسلمين يقولون في فساد حال المسلمين هذا أمر الله  
وهذا قضاؤه وهم يزعمون أنه لا حيلة تنفع أمام أمر الله ولا دواء ينجع بعد قضاء الله  
ويجهلون ويتجاهلون ان الله تباركت اسماؤه هو الذي امر بالعمل وهو الذي أمر جل شأنه  
بالجهاد في سبيله ودفع المنكر ومحاربة الشر فكيف يترك أمره وقد ورد في نصوص جليلة  
واضحة قاطعة ؟ ... إنها حيلة الشيطان . لقد دافع اصحاب رسول الله القدر بالقدر  
وأصلحوا الخطأ ودفعوا المنكر ، وأزالوا الشر ، بجهودهم وجهادهم .

روى البخارى عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما منكم  
من احد الا قد كتب مقعده من النار أو الجنة » فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول  
الله ؟ قال لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال :  
جاء سراقه فقال يا رسول الله أنعمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ قال فقيم  
العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق » ثم قرأ فأما من اعطى واتقى وصدق  
بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »  
فقال القوم بعضهم لبعض « فالجد إذن » .

وفي بعض روايات الحديث : فقال عمر فقيم العمل إذن فقال صلى الله عليه وسلم : كل لا ينال إلا بالعمل فقال عمر إذن نجتهد .

وهكذا أوضح رسول الله عليه صلوات الله هذه المسألة التي كثرت فيها المرء واشتد فيها الأخذ والرد بقوله : وكل لا ينال إلا بالعمل . هذه سنة الله وكل من تنكب سنة الله خاب وخسر .

### الصفات الخمس لتربية المؤمنين

سردت صفات المؤمنين في السورة الكريمة لتربية المؤمنين مما بدا منهم أو من بعضهم على الأصح من تفكير بشأن الأنفال بعد ان كتب الله لهم النصر وايدهم بالملائكة ورأوا بأعينهم لطف الله بهم ورعايته جل شأنه لهم .

هذه الصفات خمس وهي الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله والتوكل على الله واقامة الصلاة والانفاق من مال الله .

ويمر في خاطر المتأمل لهذه الصفات تأملاً يسيراً أن يسأل ما هو ارتباط هذه الصفات بسؤال المؤمنين عن الأنفال . كان السؤال عن الأنفال فيه شيء من التنزل عن المرتبة الايمانية التي يجب أن يكون فيها خيار المؤمنين فماذا تفعل كل صفة من هذه الصفات لتعيد المؤمنين إلى مكانتهم والسؤال الثاني اذا كانت هذه الصفات تربية للمؤمنين أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وقد سيقى لسبب خاص فهي في الوقت نفسه تربية لعامة المؤمنين وهي صفات للمؤمنين . والسؤال الثالث : ما هي مكانة هذه الصفات من الايمان أهى جامعة لكل شروطه ساردة لكل ميزاته أم هي مقتصرة على بعض هذه الجوانب ؟ .

ولنبدأ بالاجابة عن السؤال الثالث. ولبحث هذا السؤال نستعرض استعراضاً مجملًا بعض الآيات التي وصفت المؤمنين :

قال تعالى ( النساء ١٦٢ ) : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة . والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنوتهم اجرا عظيما » .

والآية الكريمة بشأن الراسخين في العلم من اهل الكتاب يؤمنون بما انزل الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ما أنزل من قبله وقد شملت كل شعب الايمان وذكرت الآية الكريمة الى جانب ذلك اقامة الصلاة وقد خصت هذه الصفة بما يميزها عن الصفات التي سبقتها والتي لحقتها ، فنصبت في اللفظ ليقدر القارىء واثنى على المقيمين الصلاة ، وذكرت الآية الكريمة ابناء الزكاة والايمان بالله واليوم الآخر .

وفي السورة الكريمة نفسها وصف الله المؤمنين بصفات ذيلت بقوله تعالى: اولئك هم المؤمنون حقا. كما وقع في الصفات التي نحن بصددھا قال تعالى : « والذين آمنوا وهاجروا والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا » .  
والآية الكريمة لم تذكر هنا صلاة ولا زكاة ولكنها ذكرت ايمانا وهجرة وجهادا وأبواء ونصرا .

وفي قوله تعالى : قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون اولئك هم الوارثون .

ذكرت الآيات الكريمة الصلاة مرتين مرة مقرونة بوصف الخشوع ومرة مقرونة بذكر المحافظة عليها وذكرت الزكاة وحفظ الفروج وذكرت حفظ الأمانة ومراعاة العهد وذكرت أمراً لم يذكر الا في صفات عباد الرحمن قال تعالى في وصفهم ( واذا مروا باللغو مروا كراما ) وقال تعالى في سورة المؤمنون ( والذين هم عن اللغو معرضون ) قال ابن كثير عن اللغو معرضون اي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قال بعضهم والمعاصي كما قاله آخرون وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى ( واذا مروا باللغو مروا كراما ) قال قتاده أتاهم من امر الله ما وقفهم عن ذلك ، وما أجدرنا ان نحرص الحرص كله على هذا المعنى : كيف يجد اللغو سبيلا الى المؤمن الذي ملا قلبه هم واحد وهو مرضاة الله وتبليغ امره ؟ .

وقال تعالى في سورة « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوا ، ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » .

وفي الآية الكريمة نجد صفة هامة بعد الايمان بالله ورسوله تتصل بالجماعة وقيادة الجماعة والتزام مشاركة الجماعة في أمورها الهامة سواء أكانت أموراً تنفيذية أو استشارية فليس لفرد من أفراد الجماعة المؤمنة أن يتخلف عن اجتماعاتها الهامة إلا لعذر قاهر .

وقال تعالى في سورة الحجرات « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » وهنا تذكر الآية صفة الأخوة وتقصر المؤمنين عليها فليس المؤمنون شيئاً آخر إلا « أخوة في الايمان » .

وقال تعالى في سورة الحجرات نفسها « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » .

والآية الكريمة تنفي الريب عن المؤمنين وتصنفهم بالجهاد بأموالهم وانفسهم ولدى التأمل في الآيات الكريمة يتبين بجلاء ان كل آية من الآيات انما تذكر جانباً من جوانب الايمان وصفة من صفاته وشرطاً من شروطه و يتبين بجلاء أن الايمان هذه المعاني كلها كما جاء في قول رسول الله عليه صلوات الله: الايمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا اله الا الله وأدناها إمطاة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان رواه مسلم وابوداود والنسائي وابن ماجه عن ابي هريرة رضي الله عنه .

ويتبين ان المؤمن لا بد ان يجمع هذه المعاني كلها ليستكمل معاني الايمان فان لم يكن ذلك كان هنالك نقص في ايمانه ، على ان كلاً من الصفات المذكورة تؤدي الى الصفات الأخرى بطريق اللزوم .

في آية الأنفال من أوصاف المؤمنين إيماناً حقاً ( الوجل عند ذكر الله ) وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله ( والتوكل على الله ) ( واقامة الصلاة ) ( والإنفاق مما رزق الله وقد تلونا من صفاتهم في آيات اخرى ، ( الايمان بما انزل الى الرسول وما انزل من قبله ) ، والهجرة والجهاد والايواء والنصر ( والتزام الجماعة وعدم مفارقتها الا باذن قائدها ) ( والأخوة في الله وحسم مادة التقاطع بين افراد الجماعة ) ( وعدم الارتياح في ما انزل الله ) ( والخشوع في الصلاة والمحافضة عليها ) ( وحفظ الفروج واداء الأمانة ورعاية العهد ) وبعد هذا كله الإعراض عن اللغو وهو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال .

وليست هذه الصفات على كثرتها وأهميتها الا بعض صفات المؤمن فاذا أدخل المؤمن بواحدة من هذه الصفات أو قصر فيها فهل يعتبر مارقاً من الاسلام خارجاً عن حظيرته ؟ .

الجواب أن هذه الصفات على درجات .

قال ابن تيمية عليه رحمة الله : اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر وأما الأعمال الاربعة فاختلّفوا في تكفير تاركها يقول ابن تيمية : ونحن إذا قلنا أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب وإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب ، وأما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور وعن احمد في ذلك نزاع :

إحدى الروايات عنه أنه يكفر من ترك واحدة منها وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب .

وعنه رواية ثانية : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط .

ورواية ثالثة : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة اذا قاتل الامام عليها .

ورابعة : لا يكفر الا بترك الصلاة .

وخامسة : لا يكفر بترك شيء منهن .

وهذه اقوال معروفة للسلف :

قال الحكيم بن عتيبة (١) من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر، ومن ترك الحج متعمداً فقد كفر ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر .

وقال سعيد بن جبير من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله ومن ترك الزكاة متعمداً فقد كفر بالله ومن ترك صوم رمضان متعمداً فقد كفر بالله .

نقل ابن تيمية عليه رحمة الله أقوالاً خمسة في كفر من ترك شيئاً من الأركان الأربعة <sup>فمن ترك الصلاة</sup> ولكنه عليه رحمة الله يفتي بقتل تارك الصلاة :

فقد سئل (في الفتاوى) (٢) عن من يؤمر بالصلاة فيمتنع ماذا يجب عليه وماذا يجب

(١) : شيخ الكوفة - تابعي ثقة فقيه صاحب سنة واتباع روى له السنن .

(٢) : ٢٢ / ٥٠ .



على الأمرء وولاية الأمر في حق من تحت أيديهم إذا تركوا الصلاة ؟ .

فأجاب : الحمد لله من يمتنع عن الصلاة المفروضة فإنه يستحق العقوبة الغليظة باتفاق أئمة المسلمين بل يجب عند جمهور الأئمة كمالك والشافعي واحمد وغيرهم ان يستتاب ، فان تاب والاقبل . ثم يقول : ويجب على كل مطاع أن يأمر من يطيعه بالصلاة حتى الصغار الذين لم يبلغوا الحلم قال النبي صلى الله عليه وسلم : مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع .

ومن كان عنده صغير مملوك او يتيم او ولد فلم يأمره بالصلاة فانه يعاقب الكبير اذا لم يأمر الصغير و يعزر على ذلك الكبير تغزيرا بليغا لأنه عصى الله ورسوله وكذلك من عنده مماليك كبار أو غلمان الخيل والجمال او فراشون او خدام او زوجة أو سرية فعليه ان يأمر جميع هؤلاء بالصلاة فإن لم يفعل كان عاصيا لله ورسوله ولم يستحق هذا أن يكون من جند المسلمين بل من جند التتار فإن التتار يتكلمون بالشهادتين ومع هذا فقتلهم واجب بإجماع المسلمين .

وقال عليه رحمة الله : وكذلك كل طائفة ممتنعة عن شريعة واحدة من شرائع الاسلام فانه يجب قتلها فلو قالوا نشهد ولا نصلي قوتلوا حتى يصلوا ولو قالوا نصلي ولا نركي قوتلوا حتى يركوا ولو قالوا نركي ولا نصوم ولا نحج قوتلوا حتى يصوموا رمضان ويحجوا البيت ولو قالوا نفعل هذا لكن لا ندع الربا ولا شرب الخمر ولا الفواحش ولا نجاهد في سبيل الله ولا نضرب الجزية على اليهود والنصارى ونحو ذلك قوتلوا حتى يفعلوا ذلك كما قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

وقال صاحب المغني رحمه الله : واختلفت الرواية هل يقتل لكفره أو حداً فروي أنه يقتل لكفره كالمرتد فلا يغسل ولا يكفن ولا يدفن بين المسلمين ولا يرثه احد ولا يرث أحدا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة وفي لفظ عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وعن بريدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا وبينهم ترك الصلاة فن تركها فقد كفر رواه مسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة . قال احمد كل شيء ذهب آخره لم يبق منه شيء وقال

عمر رضي الله عنه لا حظ في الاسلام لمن ترك الصلاة وقال علي رضي الله عنه (من لم يصل فهو كافر) وقال ابن مسعود «من لم يصل فلا دين له» وقال عبد الله بن شقيق لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. ولأنها عبادة يدخل بها في الاسلام فيخرج بتركها منه كالشهادة والرواية الثانية يقتل حدا مع الحكم بإسلامه وهذا قول مالك والشافعي .

وقال ابو حنيفة لا يقتل ولكنه يضرب ويسجن (١) .

هذه الأركان التي سبق ذكرها ليست كل ما فرض الله جل شأنه على عباده المؤمنين فلم خصت بالذكر ولم جعل الاسلام هذه أركاناً اربعة مع الشهادة ، وقد فرض الله فرائض كثيرة غيرها كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الارحام وحقوق الزوجة والاولاد والجيران والشركاء والفقراء وما يجب من أداء الشهادة والفتيا والقضاء والامامة وما الى ذلك ؟ .

وأجاب ابن تيمية هنا أيضا فقال :

اجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الإسلام وأعظمها فاذا قام العبد المؤمن بها فقد تم اسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد الاسلام عنه . وقد فصل عليه رحمة الله هذه الاجابة وزادها بيانا فقال ما معناه (٢) : التحقيق ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في

(١) : يقول ابن تيمية عليه رحمة الله ( كتاب الإيمان ، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق ص ٢٧٥ ) :

قالوا ومن ثم قلنا : ان ترك التصديق بالله كفر ، وان ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبها كفر ، ليس بكفر بالله ، انما هو كفر من جهة ترك الحق كما يقول القائل : كفرتني حقي ونعمتي ، يريد ضيقت حقي وضيقت شكر نعمتي .

قالوا ولنا في هذا قدوة بما روى عنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين اذ جعلوا للكفر فروعا دون أصله ، لا ينقل صاحبه عن ملة الاسلام ، كما اثبتوا للأيمان من جهة العمل فروعا للأصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام من ذلك قول ابن عباس في قوله تعالى «ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون قال : بن نصر بسنده عن ابن عباس وليس بالكفر الذي يذهبون وبسند آخر عن ابن عباس وليس كمن كفر بالله وبملائكته وكتبه ورسوله وبسند آخر قال كفر لا ينقل عن الملة وبسند عن طاووس قال ليس بكفر ينقل عن الملة بسنده عن عطاء قال كفر دون ظلم ، وفسق دون فسق . . .

(٢) : انظر الفتاوى ٧/٣١٤ .

هذه الخمسة الدين الذي هو استسلام العبد لربه .. استسلاما مطلقا وذكر عليه الصلاة والسلام ما يجب لله جل شأنه عبادة محضة على كل فرد من أفراد المؤمنين متى كان قادرا عليها وذلك ليعبد الله مخلصا له الدين فاذا قصر في واحد منها فقد خدش عبوديته لله وقصر في استسلامه لأمر الله واتباعه لدينه هذا شأن الأركان الخمسة أما ما سواها فإنما يجب عند وجود مصالح تجب أو حاجات تطرأ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبع ذلك من امارة وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك .

و يؤخذ من قوله عليه رحمة الله ان هذه الأركان الخمسة هي حق الله تباركت اسماؤه على كل عبد من عباده المؤمنين لا يتخلف عنها متخلف ولا يجوز ان يقصر فيها مقصر فهي أولى ثمرات الإيمان وهي أصل عبادة الله جل شأنه التي هي حق الله على عباده ( وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) .

أما العبادات الأخرى فهي ثمرات لهذه الأصول وهي غير واجبة في كل الأحوال والأحيان وهي ليست واجبة على كل الأشخاص والأعيان إذ أن منها ما هو حق لبعض الناس على اناس آخرين كحق الدائن على المدين وحق المظلوم على الظالم وهذه ليست حقوقا على جميع الأفراد بل هي حقوق لأفراد مخصوصين على أفراد مخصوصين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تكون فروض كفاية إلا اذا دعا الامام للنفير العام أو وطئ العدو أرض المسلمين كما هو الحال في أيامنا هذه فانه ينقلب فرض الجهاد من فرض كفاية الى فرض عين يتعلق برقبة كل مؤمن شابانا وشيوخنا ذكورا ولناثانا يقول ابن تيمية كل ذلك يعني ما فرض الله جل شأنه غير الاركان الخمسة يجب لأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب .

الأركان الخمسة هي عبادات محضة خلصت الأعمال فيها لعبادة الله والزكاة هي حق الله في مال الله ولهذا يقال ، ليس في المال حق سوى الزكاة يقول ابن تيمية وعامة الصحابة والجمهور كمالك واحمد والشافعي اوجبوها في مال الصغير والمجنون لأن مالهما من جنس مال غيرهما ووليها يقوم مقامهما .

أقول ولا بد فكل عمل من مقياس يقاس به ، ومقياس هذه العبادات ثمراتها ونتائجها فاذا لم تؤد الى ثمراتها كان ذلك دليلا على وجود خلل في ادائها اعني اذا لم تؤد الصلاة

والصيام والحجة والزكاة الى بذل النفس والمال والجهاد في سبيل الله ولا سيما حين يكون الجهاد فرض عين فذلك دليل أنه قد اعتري العبادة نقص كبير .

طرحنا من قبل السؤال التالي : ما هو شأن من قصر في بعض هذه الصفات أخرج من حظيرة الايمان فلا يكون مؤمناً أم يظل محتفظاً باسم الايمان ولقد أجاب ابن تيمية عن السؤال إجابة شافية وكانت إجابته دائرة حول تفسير قوله تعالى « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

ولقد ذكرنا من قبل حال من يدعي الايمان ويدع ركناً من اركان الاسلام كترك الصلاة والصيام والحج والزكاة وحديثنا ههنا عن يقصر فيما وراء ذلك من الأعمال القلبية أو أعمال الجوارح .

يقول ابن تيمية ( ٧ / ٢٤٦ ) : عن مقاتل بن حيان كانت منازلهم بين مكة والمدينة وكانوا اذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه .

وقال مجاهد : نزلت في أعراب بنى اسد بن خزيمه ، ووصف غيره حالهم فقال : قدموا المدينة في سنة مجدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين (١) .

ويقول ابن كثير والصحيح ما قال مجاهد انهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الايمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا واعلموا ان ذلك لم يصلوا اليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقين في سورة براءة وانما قيل لهؤلاء تأديبا .

يقول ابن تيمية : (١) .

إن من لم يكن من المؤمنين حقا يقال فيه انه مسلم ومعه ايمان يمنعه من الخلود في النار وهذا متفق عليه بين أهل السنة . يقول : لكن هل يطلق عليه اسم الايمان ؟ قيل يقال له مسلم ولا يقال مؤمن وقيل بل يقال مؤمن .

يقول : والتحقيق أن يقال مؤمن ناقص الايمان .

ثم يقول : الخطاب بالايان يدخل فيه « ثلاث طوائف » يدخل فيه المؤمن حقا ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة وان كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفي عنه الاسلام والايان وفي الظاهر يثبت له الاسلام والايان الظاهر، ويدخل فيه الذين أسلموا وان لم تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الإيماان والاسلام يثابون عليه .

و يقول (١) : وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً فلا دخلت حقيقة الإيماان في قلوبهم ولا جاهدوا في سبيل الله وقد كان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الجهاد .

والدليل على ان الاسلام المذكور في الآية هو اسلام يثابون عليه وانهم ليسوا منافقين انه تعالى قال « ولما يدخل الإيماان في قلوبكم » ثم قال « وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً » فدل على انهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام آجرهم الله على الطاعة والمنافق عمله حابط في الآخرة .

وأيضاً فإنه جل ثناؤه وصفهم بخلاف صفات المنافقين فإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم وانهم يبطنون خلاف ما يظهرون وهؤلاء لم يصفهم جل شأنه بشيء من ذلك .

ونفي الايمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين اذ أنه من المعلوم ان من لم يكن كما جاء في قوله تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم زادتهم إيماناً وعلى رهم يتوكلون » . من لم يكن كذلك لا يكون منافقا من أهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد اتى بالايماان الواجب .

يقول (٢) : وهذا حال اكثر الداخلين في الاسلام ابتداء بل حال اكثر من لم يعرف

(١) : ٧/٢٤٢ . (٢) : ٧/٢٤٣

حقائق الايمان ، فان هذا إنما يحصل لمن تيسرت له اسبابه إما بفهم القرآن وإما بالاتصال بأهل الايمان والافتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها .

يقول (١) : وكثير من هؤلاء قد يرتاب اذا سمع الشبه القادحة ولا يجاهد في سبيل الله فليس داخلًا في قوله تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله » وليس هو منافقاً في الباطن مضمراً للكفر .

فلا هو من المؤمنين حقاً ولا هو من المنافقين ولا هو ايضاً من أصحاب الكبائر بل يأتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الايمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً ، معه ايمان وليس هو من المؤمنين حقاً ويثاب على ما يفعل من الطاعات .

الى ان يقول عليه رحمة الله (٢) وخلق كثير من المسلمين باطنا وظاهراً معهم هذا الاسلام ولم يصلوا الى اليقين والجهاد .

يقول (٣) : ولكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك والا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شككوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفاراً ولا منافقين وليس عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه من الأهل والمال .

يقول عليه رحمة الله : وهؤلاء اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اسلم عامة أهلها فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق .

وما ذكر ابن تيمية عليه رحمة الله كأنما يصف حال الكثرة الغالبة من مسلمي اليوم ينطبق عليهم قوله تعالى «قولوا اسلمنا وآلما يدخل الايمان في قلوبكم» نسأله تعالى أن يجعل للمسلمين من أمرهم فرجاً ومخرجاً وان يؤتيهم من لدنه رحمة ويهيئ لهم من أمرهم رشداً .

قال تعالى :

« الذين يقيمون الصلاة »

(١) : ٧ / ٢٤٤ (٢) : ٧ / ٢٧٠ (٣) : ٧ / ٢٧١

وقد قال عليه الصلاة والسلام: الصلاة وما ملكت أيمانكم الصلاة وما ملكت أيمانكم رواه احمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن انس بن مالك ورواه احمد ايضا وابن ماجه عن ام سلمة ام المؤمنين ورواه الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنها وروى الحاكم في مستدرکه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر فلما سلم نادى رجل كان في آخر الصفوف فقال يا فلان ألا تتقي الله ألا تنظر كيف تصلى إن احدكم اذا قام يصلي انما يقوم يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه إنكم ترون أني لأراكم والله لأرى من خلف ظهري كما ارى من بين يدي . قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه على هذه السياقة وقد أقر الذهبي الحاكم في ان الحديث على شرط مسلم .

ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة خير موضوع ، لمن استطاع ان يستكثر فليستكثر ورمز له السيوطي بالضعف وقال الهيثمي فيه عبد المنعم بن بشير وقد رواه احمد وابن حبان والحاكم وقد صححه عن أبي ذر .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو ان نهرا بباب احدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فكذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ورواه ابن ماجه من حديث عثمان .

وعن عثمان رضي الله عنه قال والله لأحدثكم حديثا لولا آية في الكتاب الله ما حدثتكموه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه ثم يصلي الصلاة الا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها رواه البخاري ومسلم .

وعن جنذب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبك الله في ذمته بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكتبه على وجهه في نار جهنم . رواه مسلم واللفظ له وأبو داود والترمذي وغيرهم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون

فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم يعرج  
الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو اعلم بهم ، كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم  
وهم يصلون وآتيناهم وهم يصلون رواه مالك والبخاري ومسلم والنسائي .

وروى عن انس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اول ما  
يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ينظر في صلاة فإن صلحت فقد أفلح وان فسدت  
خاب وخسر رواه الطبراني في الأوسط

وعن حنظلة الكاتب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يقول : من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهتهن وسجودهتهن ومواقيتهن وعلم انهن حق  
من عند الله دخل الجنة او قال وجبت له الجنة او قال حرم على النار قال المنذري رواه  
احمد باسناد جيد ورواه رواة الصحيح .

وعن ابي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين  
السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان ، والبر ضياء والقرآن حجة لك او عليك .  
رواه مسلم وغيره .

وعن معدان بن ابي طلحة رضي الله عنه قال لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقلت اخبرني بعمل اعمله يدخلني الله به الجنة او قال : قلت بأحب الأعمال  
الى الله فسكت ثم سأله فسكت ثم سأله الثالثة فقال سألت عن ذلك رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فقال: عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة  
وحط بها عنك خطيئة. رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وعن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال : كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم  
نهارياً فإذا كان الليل آويت الى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبت عنده فلا  
ازال اسمعه يقول : سبحان الله سبحان الله سبحان ربي حتى أملّ او تغلبنى عيني فأنام  
فقال يوماً يا ربيعة : سلني فأعطيك . فقلت : انظرني حتى انظر ، وتذكرت أن الدنيا  
فانية منقطعة فقلت يا رسول الله : أسألك أن تدعو الله أن ينجينني من النار ويدخلني  
الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: من أمرك بهذا ؟ قلت ما أمرني به



أحد ولكنني علمت ان الدنيا منقطعة فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنتت منه فأحببت أن تدعو الله لي ، قال إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود رواه الطبراني في معجمه الكبير من رواية ابن اسحاق واللفظ له ورواه مسلم وابوداود مختصراً . ولفظ مسلم قال : كنت ابيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآتته بوضوءه وحاجته فقال لي : سلني ؟ فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة قال أو غير ذلك ؟ قلت هو ذاك قال فأعني على نفسك بكثرة السجود .

وعن عثمان رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من امرء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وكذلك الدهر كله رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت : ثم أي قال بر الوالدين قلت : ثم أي : قال الجهاد في سبيل الله . قال حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزدني رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال من سره أن يلقي الله غداً مسلماً فيحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهم فإن الله تعالى شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم وما من رجل يتطهر فيحسن الظهور ثم يعمد الى مسجد من هذه المساجد الا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط بها سيئة ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها الا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقوم في الصف .

وفي رواية : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة الا منافق قد علم نفاقه او مريض إن كان الرجل يمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة ، قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا سنن الهدى وان من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه رواه مسلم وابوداود والنسائي وابن ماجه .

عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يزال احدكم

في صلاة مادامت الصلاة تحبسه لا يمنع أن ينقلب إلى أهله الا الصلاة رواه البخاري  
ومسلم .

وفي رواية لمسلم : قال لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلاه ينتظر الصلاة  
والملائكة تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه حتى ينصرف او يحدث .

وعن جابر بن سمره رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فقال الا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها فقلنا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة  
عند ربها ؟ قال يتمون الصفوف الأولى و يتراصون في الصف رواه مسلم وابوداود  
والنسائي وابن ماجه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح  
مناكبنا في الصلاة ويقول : استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليلني منكم اولو  
الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم رواه مسلم وغيره .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه  
وسلم جالس في ناحية المسجد فصلى ثم جاء فسلم عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل فصلى ثم جاء فسلم فقال وعليك السلام  
ارجع فصل فإنك لم تصل فقال في الثانية أو في التي تليها علمني يا رسول الله فقال إذا  
قت الى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم  
اركع حتى تطمئن راعها ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع  
حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها رواه البخاري ومسلم .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول  
ان الرجل لينصرف ، وما كتب له الا عشر صلواته تسعها ثمنها سبعة سدسها خمسها  
ربعا ثلثها نصفها رواه ابوداود والنسائي وابن حبان في صحيحه .

### ماهي العبادة :

قال صاحب اللسان العبادة الطاعة ومنه قوله تعالى ( عبد الطاغوت ) اي اطاعه يعني  
الشیطان فيما سول له واغواه وقال الفراء في قوله تعالى اياك نعبد أي نطيع الطاعة التي

خضع منها وتبيل اياك نوحده . قال ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع .

ولم يرفض السيد رشيد رضا تفسير العبادة بالطاعة مع غاية الخضوع قال : وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل قال : بل يكتفون احيانا بالتعريف اللفظي و يبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة فان فيها اجمالا وتساھلا . ثم يقول خضع وخنع واطاع وذل لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي عبد ويحل محلها و يقع موقعها فالعاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له لا يسمى خضوعه عبادة وكذا خضوع الرؤوس لرئيسه منها بالغ فيه لا يسمى عبادة .

يقول فما هي العبادة اذن ويجب بأن :

العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشيء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها .

قال فن قدم موطيء أقدام ملك لا يقال عبده لان سبب الذل والخضوع معروف هنا وهو الخوف من ظلمه أو الرجاء لكرمه .

ونحن نجد هذا التعريف الذي قدمه السيد رشيد رضا للعبادة تعريفا حسنا مفيدا ذلك ان السبب الباعث على العبادة هو المعرفة بالله جل شأنه وبصفاته معرفه تؤدي الى تعظيمه وتقديسه وتنزيهه والخشية من سلطانه ورجاء مته وعفوه وغفرانه .

وهذه المعرفة معرفة بالآلته ونعمه مقرونة بالعجز عن ادراك ذاته وكنه صفاته وعظيم لطفه عجزا تحير فيه العقول وتؤخذ الأبواب .

وكلما كان لهذه المعاني سلطان على نفس العبد كانت العبادة اقرب الى معناها الحقيقي ، اما اذا خلت العبادة من الشعور بعظمة الله وقدرته المغيبة التي لا يصل العقل الى ادراك حقيقتها والتي يوجل القلب لسعتها وامتدادها حتى تجاوز الزمان والمكان اذا خلت العبادة من كل معنى من هذه المعاني فهي عبادة خالية جوفاء وما هي الا صورة وليست بحقيقة .

هذه العبادة التي تصدر عن بواعثها الحقيقية واسبابها الصحيحة تؤدي الى نتائجها وثمراتها فإن لم تكن كذلك كانت صورة والصورة لا تثمر ثمرة ولا تؤدي الى نتيجة .

ولذلك قال تعالى يقيمون الصلاة ولم يقل تعالى يصلون واقامة الشيء الا تيان به مقوما كاملا معتدلا صادرا عن علته مؤديا الى غايته .

وغاية الصلاة ان تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وغاية الصلاة ايضا ان تؤدي الى صفة عميقة تنطبع في نفس صاحبها وتغرس في قلبه : المصلي لا يجزع ولا يهلع ولا يمنع قال تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا » وفسر الهلع بقوله جل شأنه ( اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا ) ثم قال تعالى « الا المصلين » . فهم لا يجزعون ولا يمنعون ولا يهلعون أي وصف اعظم من وصف انسان لا يجزع للمصائب ولا ينخلع قلبه للشدائد يستقبل عظام الأمور ببرد الراحة وطمأنينة الايمان وسكينة اليقين ذاك هو المصلي والآية الكريمة تذكر بالمجاهدين بالمجاهدين العاملين في سبيل الله تصيبهم الشدائد وتتأهبهم الكوارث فلا يجزعون ولا يهلعون و يطلب منهم الانفاق في سبيل الله فيسخون بالعطاء ولا يمنعون وكل هذه ذكرها جل شأنه من آثار الصلاة ونتائجها ولكل هذا كان لهذه الصلاة مكانتها ودرجتها فهي افضل الأعمال لأنها تربي النفوس ولأنها مفتاح الخير كله ولهذا كان من اول ما نزل على رسول الله عليه صلوات الله الأمر بقيام الليل تهية لقلبه لتلقي معاني الوحي واعدادا له لحمل الدعوة وتحمل اعبائها الثقيلة .

قال تعالى « ياايها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » وكان سائلا سأل وقال لم ذلك وما الداعي اليه وما العامل فيه فقال تعالى « انا سنلقي عليك قولا ثقيلا » .

للصلاة صلة بالايان وبالخشية وبالوجل من الله والبكاء حياء منه وتقدير العظمتة وسلطانه .

وللصلاة صلة بالخير والبر والتقوى والأعمال الصالحة جميعها والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق والا يخشى في الحق لومة لائم .

المصلي هو الذي يفعل الخير ويحرص على البر والمصلي الذي لا يفعل الخير ولا يقوم بأعمال البر ولا يحرص على طاعة الله ورسوله في كل ما أمر به ليس بمصل .  
روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال في حديث : « وما يزال عبدي

يتقرب الي بالسواقل حتى احبه فاذا احبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» الحديث رواه البخاري وتكلم فيه الذهبي فيما فهم من الحديث ولكننا نفهم ان العبادة تنتهي الى استيلاء حب الله وعظمته على قلب المصلي حتى يصبح المولى جل شأنه ملء سمعه وملء بصره ومثل هذا لا يضمن بنفس ولا يرهب مخلوقا .

## الانفاق

قال تعالى « وما رزقناهم ينفقون » .

قال شمس الدين بن القيم الدمشقي عليه رحمة الله في زاد المعاد ( القاسمي ج ٣ ) كان صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صدقة مما ملكت يده ، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه الله تعالى ولا يستقله ، ولا يسأله احد شيئا عنده الا اعطاه قليلا او كثيرا ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، وكان العطاء والصدقة احب شيء اليه ، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه وكان اجود الناس بالخير يمينه كالريح المرسلة ، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه وتارة بلباسه ، وكان يتنوع في اصناف عطائه وصدقته فتارة بالهبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية وتارة بشراء شيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعا كما فعل بجابر وتارة كان يقترض الشيء فيرد اكثر منه ، وافضل واكبر ، ويشترى الشيء فيعطي اكثر من ثمنه ويقبل الهدية ويكافئ عليها باكثر منها او بأضعافها تلطفا وتنوعا في ضروب الصدقة والاحسان بكل ممكن وكانت صدقته واحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله فيخرج ما عنده ويأمر بالصدقة ويحض عليها ويدعو اليها ، فاذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله الى البذل والعطاء وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى وكان هديه صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاحسان والصدقة والمعروف ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اشرح الخلق صدرا واطيبهم نفسا وانعمهم قلبا فان للصدقة وفعل المعروف تأثيرا عجيبا في شرح الصدور وانضاف ذلك الى ما خصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها .

وعن جابر رضي الله عنه قال ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا . متفق عليه ، وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : « اللهم اعط منفقنا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا » متفق عليه .

ولفظ مسلم كما يلي :

عن ابي ذر قال خرجت ليلة من الليالي فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده ليس معه انسان قال : فظننت انه يكره ان يمشي معه احد قال فجعلت امشي في ظل القمر فالتفت فرآني فقال من هذا ؟ فقلت ابو ذر جعلني الله فداءك قال يا ابا ذر تعالاه (١) قال فمشيت معه ساعة فقال ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من اعطاه الله خيرا (الخير المال) فنفع (٢) فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا ... الى آخر الحديث .

يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : « اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً » متفق عليه .

وفي صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر ما يسرنى ان عندى مثل أحدٍ ذهباً يمر على ثلاثة ايام وعندى منه شيء الا ديناراً أرضه لدين .

وأخرج الشيخان عن ابي ذر ايضا قال : انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأني قال هم الأخرسون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم اتقار حتى قمت فقلت يا رسول الله فذاك ابي وامى من هم ؟ قال هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم .

وروى البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينما انا في حلقة فيها ملاً من قر يش اذ جاء رجل اخشن الثياب اخشن الجسد اخشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكائزين (٣) برضف (٤) يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه (٥) ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل (٦) قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحدا منهم رجع إليه شيئاً قال فأدبر

(١) : اصلها تعال زادت عليها هاء السكت .

(٢) : نفع أى ضرب يديه فيه بالطاء .

(٣) : هم الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله .

(٤) : الرضف الحجارة المحماة الواحدة رصفة مثل تمر وتمريرة .

(٥) : النغض هو العظم الرقيق الذى على طرف الكتف .

(٦) : التزلزل انما هو للرضف أى يتحرك من نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه .

واتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم قال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئا . ان خليلي ابا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبتة فقال اترى احدا فنظرت ما علي من الشمس (١) وانا اظن انه يبغثني في حاجة له فقلت اراه فقال ما يسرني ان لي مثله ذهبا انفقته كله الا ثلاثة دنانير ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئا ، قال قلت ما لك ولاخوتك من قريش لا تعترهم (٢) وتصيب منهم قال لا وربك لا اسألم دنيا ولا استفتيهم عن دين حتى ألحق بالله ورسوله .

وروى البخاري عن ابن ابي مليكة ان عقبة بن الحارث رضي الله عنه حدثه قال صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم العصر فأسرع ثم دخل البيت فلم يلبث ان خرج فقلت او قيل له فقال كنت خلفت في البيت تبرأ من الصدقة فكرهت ان ابيته فقسمته . وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنها قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبل ولا بعد ثم مال على النساء ومعه بلال فوعظهن وامرهن ان يتصدقن فجعلت المرأة تلقي القلب والخرص (٣) .

وروى مسلم في كتاب البر والصلة والآداب عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل يقول القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال يارب كيف اعودك وانت رب العالمين ؟ قال : اما علمت ان عبدي فلان مرض فلم تعده ؟ اما علمت انك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني . قال يارب وكيف اطعمتك وانت رب العالمين ؟ قال اما علمت انه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ اما علمت انك لو اطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يارب كيف اسقيك وانت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه اما انك لو سقيته وجدت ذلك عندي » .

وروى ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة) قال وقد قال ابن ابي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود

(١) : يعني كم بقي من النهار .

(٢) : تعترهم اي تأتيهم وتطلب منهم يقال عروته واعتريه واعتروته اذا أتيت تطلب منه حاجة .

(٣) : القلب بضم القاف وسكون اللام هو السوار والخرص بضم المعجمة وسكون الراء هي الحلقة .

قلنا لما نزلت ( من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ) قال ابو الدحداح الأنصاري يارسول الله وان الله عز وجل ليريد منا القرض قال نعم يا ابا الدحداح قال ارني يدك يارسول الله قال فناوله يده قال فاني قد اقرضت ربي عز وجل حائطي قال وحائط له في ستمائة نخلة وام الدحداح فيه وعياها قال فجااء ابو الدحداح فناداها يام الدحداح قالت لبيك قال اخرجني فقد اقرضته ربي عز وجل (١) .

(١) : عبد الله بن الحارث الزبيدي (بضم الزاي) قال في تهذيب روى عن ابن مسعود وروى عنه حميد بن عطاء الأعرج قال ابن معين ثبت وقال النسائي ثقة .

اما حميد الأعرج فيقول ابن حجر الكوفي القاص الملائكي وهو حميد بن عطاء و يقال ابن علي و يقال ابن عبدالله و يقال ابن عبيد روى عنه خلف بن خليفة قال احمد ضعيف وقال البخارى والترمذي منكر الحديث وقال ابن معين ليس بشيء وقال النسائي ليس بالقوى وقال مرة ليس بثقة وقال ابو حاتم ضعيف الحديث منكر الحديث قد لزم عبدالله بن الحارث عن ابن مسعود ليست بمستقيمة ولا يتابع عليها . يقول ابن حجر وقال ابن حبان يروى عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود نسخه كأنها موضوعة وقال الدارقطني متروك واحاديثه تشبه الموضوعة .

وهكذا يتبين ان الإسناد الذى رواه ابن كثير اسناد ضعيف جدا و يروى ابن جرير و يعلق عليه احمد محمد شاكر فيقول هذا اسناد ضعيف جدا و ينقل ما نقلنا من ترجمة حميد الأعرج الكوفي القاص . ثم يقول الشيخ احمد محمد شاكر عليه رحمة الله : وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ : ٣٢٠) بنحوه وقال : رواه البزار ورجاله ثقات ثم ذكره مرة اخرى (٩ : ٣٢٤) بلفظ آخر نحوه وقال : رواه ابو يعلى والطبراني ورجاله ثقات ، ورجال ابي يعلى رجال الصحيح يقول الشيخ شاكر هكذا قال الهيثمي في الموضوعين وليس عندى اسناد من الأسانيد التي نسبة اليها ولا الكتب التي ذكرها السيوطي ( ذكره السيوطي ١ : ٣١٢ ) وزاد نسبه لسعيد بن منصور وابن سعد ، والبزار وابن المنذر والحكيم الترمذي في نواذر الأصول والطبراني ، والبيهقي في شعب الايمان ) يقول الشيخ شاكر : الا ابن سعد ولم اجده فيه لأن النسخة المطبوعة من طبقات ابن سعد تنقص كثيرا من الكتاب ، كما هو معروف . يقول الشيخ شاكر : ولقصة ابي الدحداح اصل آخر صحيح من حيث انس رواه احمد في المسند ٩٠٩ : ١٢٥ (٣ : ١٤٦ حلبي) باسناد صحيح عن انس ان رجلا قال يارسول الله ان لفلان نخلة ، وانا اقيم حائطي بها فأمره ان يعطيني حتى اقيم حائطي بها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اعطه اياها بنخلة في الجنة فأبى ، فأتاه ابو الدحداح . فقال : بعني نخلتك بحائطي ففعل . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني قد ابتمت النخلة بحائطي قال فاجعلها له قد اعطيتكها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم من عذق رداح (عظيم) لأبي الدحداح في الجنة قالها مرارا قال فأتى امرأته فقال يام الدحداح اخرجني من الحائط فاني قد بعته بنخلة في الجنة فقالت ربح البيع او كلمة تشبهها .



وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنائير وضعها عند عائشة فلما كان عند مرضه قال يا عائشة ابعتي بالذهب الى علي ثم اغمي عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة ما به فبعث الى علي فتصدق بها وامسى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديد الموت ليلة الاثنين (١) ...

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان (درعان) من حديد قد اضطرت ايديهما الى ثديهما وتراقبيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى انامله وتصفو اثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلت واخذت كل حلقة بمكانها قال أبو هريرة فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول باصبعيه هكذا في جيبه يوسعها ولا تتوسع رواه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه ما يلي :

مثل المنفق المتصدق والبخيل كمثل رجلين عليهما جنتان او جبتان من حديد من لدن ثديهما الى تراقيهما فاذا اراد المنفق ان ينفق اتسعت عليه الدرع او مرت حتى تجن (تستر) بسانه وتعفو اثره فاذا اراد البخيل ان ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى اخذت بترقوته او برقيته يقول ابو هريرة رضي الله عنه أشهد انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوسعها ولا تتسع .

ولفظ البخاري كما يلي : عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه

---

وحديث انس هذا في مجمع الزوائد (٣٢٣ - ٣٢٤) وقال احمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح . يقول الشيخ شاكر ولتحديث اصل ثان صحيح رواه مسلم عن جابر بن سمرة قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن الدحداح ثم اتى (يعني الرسول عليه الصلاة والسلام بعد فراغه من الصلاة على جنازة ابن الدحداح) بفرس عرى (لا سرج عليه) فعلقه رجل (اي امسكه وحبه له صلى الله عليه وسلم) فركبه فجعل يتوقص به (اي يتوثب) ونحن نتبعه نسعى خلفه . قال فقال رجل من القوم : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كم من عذق (الغصن من النحلة) معلق او مدلى في الجنة لابن الدحداح او قال شعبة لأبي الدحداح .

(١) : الحديث رواه الطبراني في الكبير قال المنذرى ورواه ثقات محتج بهم في الصحيح ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه وقال صاحب مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح (الترغيب والترهيب ص ٥٥ ج ٢) (مجمع الزوائد ج ٣ ص ١٢٤) .

وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثلي رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديها الى تراقيها فاما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وقرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع .

قال الخطابي وهذا مثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للبخيل والمتصدق فشبهها برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعاً يستتر به من سلاح عدوه فصبه على رأسه ليلبسها والدرع أول ما تقع على الصدر والثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كمها فجعل المنفق كمن لبس درعاً شابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وهو معنى قوله « حتى تعفو أثره » أي تستر جميع بدنه وجعل البخيل كمثلي رجل غلّت يدها إلى عنقه ، كلما أراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته وهو معنى قوله « قلصت » أي تضامنت واجتمعت والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه فتوسعت بالانفاق ، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاق صدره وانقبضت يدها .

وكلام الخطابي جيد ربما احتاج إلى شيء من التوضيح وكلام من أوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام يؤدي إلى أغراض عديدة : منها بيان طبيعة النفوس ولما جبلت عليه فالانفاق في جبلّة النفوس ثقيل شديد يشبه درعاً من حديد فصلت على قدر جسم الإنسان بل هي ضيقة قد لزمت الجسم وركبت في الصدر والعنق ولكن المؤمن يذكره إيمانه بالله وبفضله وكرمه ومنه وجوده فليتوكل عليه ويفوض أمره إليه فيكون عليه الانفاق في سبيله أما المنافق وضعيف الإيمان فيوسوس لها الشيطان ويخوفها الفقر فيشتد حرصها ويشد قلقها على الدنيا فلا يبضّان بقطرة ولا تجود انفسها بشيء ويكون من نتيجة ذلك انشراح صدر الأول وثلوج قلبه أما الثاني فيزداد ضيقاً وحيرة وهماً وغماً واضطراباً وتلزمه درعه في عنقه تكاد تخنقه وتقتله كل ذلك خوفاً على الدنيا وحرصاً عليها وهماً وحزناً من أجلها .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم » الفحشاء كل ما استقبّحه الشرع واعظم مراد بها هنا البخل وهو من أقبح الداء .

هذا الانفاق الذي هو درع من حديد ينتهي بالمؤمن بانشراح صدره وانفساح قلبه وتمتد

الدرع حتى تصبح سابعة واقية تقيه المموم في الدنيا والعذاب في الآخرة وتضيق على البخيل فتلزم صدره ونحره تكاد تقتله في الدنيا مما وحزنا وفي الآخرة عذاباً وألماً وهي لا تغني عنه شيئاً لا تقي ولا تدفع شيئاً بل تؤذى وتؤلم ايلاًماً شديداً .

وهكذا اوضح التمثيل حال المنفق والبخيل في البداية والنهاية وفي الأسباب وغاياتها وما بين ذلك ، ضيق في النفس في البداية يشبه درع الحديد ينتهي الى انشراح وانفساح ووقاية تامة في حال المنفق وضيق في البداية لدى البخيل يزداد شدة واستحكماً كما كدرع من حديد تلزم عنق صاحبها فتقتله وقد كان من شأنها ان تحفظه وتقيه وتنجيه .

روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : اتى رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اصابني الجهد فأرسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله » فقال رجل من الانصار فقال انا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخره شيئاً فقالت والله ما عندي الا قوت الصبية قل فاذا اراد الصبية العشاء فنوميم وتعالى فاطفئ السراج وتطوى بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لقد عجب الله عز وجل أن ضحك من فلان وفلانة وانزل الله تعالى : « و يوثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » ( سورة الحشر ٩ ) وقد جاءت تسمية هذا الأنصاري في صحيح مسلم وهو أبو طلحة رضي الله عنه .

وعن انس رضي الله عنه قال : كان ابو طلحة اكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان احب امواله اليه بيرحاء (١) وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال انس فلما نزلت هذه الآية « لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قام ابو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ان الله تبارك وتعالى يقول : « لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وان احب اموالي الي بيرحاء وانها صدقة ارجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث اراك الله قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رابع ذلك مال رابع رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي مختصراً .

(١) : اسم لحديقة نخل كانت لأبي طلحة رضي الله عنه .

وهكذا كانما رضوان الله عليهم تهز الآيات الكريمة قلوبهم فتمتد ايديهم بالعطاء وتنشرح صدورهم بتقديم احب اموالهم .

قال السيد ابو الحسن علي الندوي (١) : والزكاة المشروعة في الاسلام هي الحد الأدنى للبر وهي فريضة لا يقبل الله عنها صرفا ولا عدلا وهي شرط للاسلام وركن من اركانه قال تعالى « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فآخوانكم في الدين » والذي يمتنع عن أدائها عن عمد واصرار يعتبر قد خلع ربة الاسلام من عنقه وفارق الجماعة وقد قاتل عليها افضل الأمة بعد نبيا عليه الصلاة والسلام وأقربهم لدين الله ابو بكر رضي الله عنه وقد روى الترمذي بسنده عن فاطمة بنت قيس سئل او سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزكاة فقال : ان في المال حقا سوى الزكاة ثم تلا « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر » (٢) .

وكان شعار محمد عليه الصلاة والسلام « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » رواه البخاري وروى الترمذي عن ابي امامة مرفوعا : « عرضُ عليّ ربي لي يجعل لي بطحاء مكة ذهيبا فقلت لا يارب ، ولكن اشبع يوما واجوع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذاكرتك ، واذا شبعت حمدتك وشكرتك رواه احمد بن حنبل (٣) .

وكان يقول عليه الصلاة والسلام اللهم ارزق آل محمد قوتا رواه البخاري ويدخل عمر على رسول الله صلوات الله عليه وسلم فيراه على حصير قد اثر في جنبه ويرفع رأسه في البيت فلا يجد الا اهابا (٤) معلقا وقبضة من شعر، وحصيرا يكاد يبلى فيبكي عمر فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا بن الخطاب فيقول عمر يا نبي الله

(١) : الأركان الأربعة ص : ١٤١ .

(٢) : اورد الترمذي الحديث في كتاب الزكاة وفاطمة بنت فيس الفهرية من المهاجرات ولكن الحديث ضعيف فقد قال فيه الترمذي ابو حمزة ميمون الأعور أحد رواة ضعيف وقال البيهقي تفرد به ميمون الأعور وهو مجروح ولكن معنى الحديث صحيح فاطعام مضطرو سقى ظمآن انقاذ مشرف على الهلاك وتجهيز المقاتلين لصد غارات العدو وكل هذه حقوق قام الاجماع على وجوبها وإجبار الأغنياء عليها وقول من نسخت الزكاة كل حق مالي قول مخالف لاجماع الامة .

(٣) : يقول المناوي بشأن الحديث رونز السيوطي ( في جامعه الصغير ) حسنه وهو تابع للترمذي وقال في المنار وينبغي ان يقال فيه ضعيف فانه من رواية يحيى بن ايوب عن عبيد الله بن زجر عن علي بن زيد عن القاسم عنه أه وقال العراقي فيه ثلاثة ضعفاء علي بن زيد والقاسم وعبيد الله بن زجر .

(٤) : كيس من جلد .

وما لي لا ابكي وهذا الحصر قد اثر في جنبك وهذه خزائنك لا ارى فيها الا ما ارى وذاك كسرى وقصر في الثمار والأنهار، وانت نبي الله وصفوته؟ فيقول عليه الصلاة والسلام افي شك انت يا بن الخطاب اولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا الحديث في صحيح البخارى ومسنده احمد وسنن ابن ماجه .

يقول ابو الحسن الندوي (١) : يقول الحافظ بن فضل العمري بشأن ابن تيمية عليه رحمة الله « كانت تأتيه القناطر المقتطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحمر فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند اهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئا الا ليهبه ولا يحفظه الا ليذهبه . » .

يقول الحافظ ابن فضل الله : كان يتصدق حتى اذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه وكان يتصدق من قوته الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه .

من الأمور الهامة في النظام الاقتصادي في الاسلام انه ليس شيء من كل ما يمتلكه الانسان ويضيفه لنفسه هو له بل هو في الحقيقة للذي خلقه ونماه وسخره لهذا الانسان لغرض محدود وزمن محدود وسبيل محدود ليس له ان يتجاوزه .

والانسان ليس له في الحقيقة من هذا المال الا حق الولاية والرعاية والاستخلاف قال تعالى « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » (سورة النور: ٣٣) وقال تعالى : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (سورة الحديد ٧١) وقال تعالى : « وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض » .

والغرض من هذه النظرة وضع الأمور في موضعها الصحيح وان يعلم هذا الانسان انه في هذا الكون ليس مالكا وليس سيذا وليس بوسعه ان يدعي لنفسه حق الملك وليس له ان يقول ما قال قارون (انما اوتيته على علم عندي) ولكنه خلق ليكون مبتلى ممتحنا بالخير وبالشر وبالغنى وبالفقير قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) (الانبياء ٣٥) وقال تعالى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم) (الأنعام ١٦٥) اي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك . وقوله تعالى ليلوكم فيما آتاكم اي ليختبركم

(١) : الاركان الاربعة ص ١٥٢ .

في الذي انعم به عليكم ليختبر الغني في غناه و يسأله عن شكره والفقير في فقره و يسأله عن صبره وفي صحيح مسلم عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف <sup>تعلمون</sup> فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء .

ليس هذا المال الذي وضع في يدك ملكا لك ذلك انك وما ملكت يداك ملك لسيدك ولست انت الذي جنى هذا المال وجمعه وما كان ذلك الا بعون من الله وتوفيق منه وما يسر لك جمع هذا المال لتستقل فيه بل لتمتحن اتمن شكر النعمة وتمن الخلافة فيه ؟ ولذلك بعد ان انتزع القرآن الكرم الملكية الحقيقية من الانسان عاد فردها اليه وملكه ولم يطلب منه ان يخرج عن كل ماله وان يتخلى عن كل ما آتاه الله ولكنه قال له مرشدا وهاديا هذا المال الذي وضع بين يديك احسن الخلافة فيه فلا تُضِعْ ذا حق ولا تبخل به على عباد الله قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وبما اخرجنا لكم من الأرض » وقال تعالى : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا متاً ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال تعالى : « والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

نزعت الملكية من العبد بالنسبة لله فليس للعبد ملكية في جانب الله جل شأنه ثم اثبتت الملكية له واثبت له حق التصرف فيما يملك في هذه الحياة الدنيا على المبدأ الذي سبق ذكره انه ليس مالكا حقيقيا وليس متصرفا حقيقيا ولكنه مستخلف في المال قائم على شئونه مجزي بحسن تصرفه اما انتزاع ملكية الانسان من قبل انسان آخر او هيئة مستعدية او جماعة متغلبة بدعوى انصاف المظلومين وسد حاجة المعوزين فهو الظلم الجائر مقنعا بقناع العدالة وهو الجريمة الآثمة مستترة بستار الرحمة .

وهنا ننهي الى نقطة جديدة بالتأمل العميق والنظر الدقيق اذا كان المؤمن مستخلفا في هذا المال الذي بين يديه فهل يجوز له ان ينفقه كله في سبيل الله ؟ .

### القصد في الإنفاق

بعد ان يستمع المؤمن الى آيات الله تحت على الإنفاق في كل سورة من كتاب الله وفي كل مقطع من مقاطعه وجزء من اجزائه حتى يجد القارئ انه لا يمر بجزء يسير من

آيات الكتاب تخلو من دعوة الى بر ونداء الى احسان ، ولقد كرر فرض الصلاة في القرآن في مواطن عديدة شتى ولم تذكر الصلاة الا وقد قرنت معها الزكاة . وبعد هذا ، وبعد ما تلونا من احاديث رسول الله في البر والصدقة وما هو الا جزء يسير ، وبعد سيرة رسول الله وسيرة اصحابه يجد المؤمن داعية تدعوه الى ألا يدخر مالا ولا يسك درهما ليبدل ذلك له في سبيل الله والبذل هنا عن رضا وطواعية وطيب نفس وانشرح صدر وهذا يؤدي الى اطيب النتائج وليس هو ذلك الاكراه الذي تنتزع فيه اموال الناس رغم انهم فتنخلع قلوبهم هول المصيبة وتتصدع افئدتهم و يصابون بالشلل .

وفي مثل هذا البذل الخصب الطيب تغطي حاجات الأمة جميعها . بل الزكاة وحدها وهي جزء من اربعين جزءا من رؤوس اموال الأمة كقيلة بألا تدع حاجة الا سدتها ولا مشروعها ما الا انجزته .

وهنا حين يدفع المؤمن ايمانه الى ذروة الاحسان و نادى به للخروج من ماله كله والتخلي عن كل درهم يملكه هنا في مثل هذه الحال تناديه آيات الشريعة الكاملة لتعود به الى الاعتدال وترشده السنة الى القصد ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس ،

قال البخاري عليه رحمة الله ( ١ ) باب لا صدقة الا عن ظهر غنى ، ومن تصدق وهو محتاج أو اهله محتاج أو عليه دين فالدين أحق أن يقضى من الصدقة والمعتق والهبة ، وهو رد عليه ، ليس له أن يتلف اموال الناس وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أخذ اموال الناس ويريد اتلافها اتلفه الله » الا ان يكون معروفا بالصبر فيؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة كفعل ابي بكر حين تصدق بماله وكذلك أثر الأنصار المهاجرين . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال فليس له أن يضيع اموال الناس بعة الصدقة .

وقال كعب رضي الله عنه « قلت يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة الى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فاني أمسك سهمي الذي بخير » .

ويروى البخاري بعد ما سبق حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

(١) : ج ٢ ص ٢٩٤ فتح الباري .

عليه وسلم قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » .

انه القصد والاعتدال الذي دعت اليه الشريعة الكاملة الوسط الذهبي الذي ينشده الحكماء الذي لا افراط فيه ولا تفريط .

قال تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .  
يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

« وهذه سمة الاسلام التي يخلقها في حياة الأفراد والجماعات ، ويتجه اليها في التربية والتشريع يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال » .

والمسلم مع اعتراف الاسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حرا في انفاق أمواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الالهي حياتها في كل ميدان ، انما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير ، فالاسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله ، فالمال اداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية والاسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي وحبس الأموال يحدث ازمات ومثله اطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق .

والاسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد فيجعل الاعتدال سمة من سمات الايمان « وكان بين ذلك قواما » . أهـ .

قال في اللسان : والسرف والاسراف مجاوزة القصد وقال والاسراف في النفقة التبذير .

وقوله تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » قال سفيان : لم يسرفوا اي لم يضعوه في غير موضعه ولم يقتروا لم يقصروا به عن حقه ، ولفظة الانفاق في الآية الكريمة عامة فهي تشمل الانفاق في سبيل الدعوة وفي سبيل الجهاد والانفاق في المرافق الدنيوية وحاجات المرء . والاسراف وهو وضع الأمر في غير موضعه ليس من صفات المؤمنين ولو كان في سبيل الخير فكيف يكون الشأن حين يكون الاسراف في المطعم والمشرب والمسكن والمتع والشهوات ، على ان الحسن يقول ليس في النفقة في سبيل الله سرف



وسمع رجلاً يقول لا خير في الإسراف فقال لا اسراف في الخير والذي يؤخذ من كل ما نقلنا ان وضع الأمر في غير موضعه كأن يبذل المرء ما يؤدي الى ضياعه وضياع اهله او وقوعه في حرج شديد ولو كان في زعمه في سبيل الله هو السرف المنهي عنه .

اذا كان الاسراف منياً عنه في سبيل الخير فما يكون شأنه في سبيل التكاثر والتفاخر والأثاث والرياش وكل هذه لا يراد بها الا التعاطف امام الناس وقد ابتلي بهذا المسلمون في كل انحاء الدنيا فغلب عليهم عدوهم وقهرهم ، تحدث الناس بأن اليهود حين غلبوا على بعض القرى المسلمة ودخلوها خاطبوا اهلها وقالوا لهم في منازلكم الثلاجات والمكيفات والفاصلات والمكنسات الكهربائية وليس في منازلنا شيء من ذلك ، لقد ادخرنا ثمن ذلك كله لنشتري به اسلحة نقاتلكم بها . ولم يكتف المسلمون بالاسراف في نفقاتهم الدنيوية وشحهم في النفقة في سبيل الله ولكنهم بلغوا حد الترف والتبذير وغدا المال وسيلة للفساد والدمار وآيات القرآن الكريم تندد بالمبذرين وتصف المترفين بأنهم وسيلة هلاك الأمة .

### في الإنفاق حياة المجتمع

في الانفاق في سبيل الله حياة المجتمع وتضامن افراده وثبات بنيانه .

وفي الانفاق تربية للايمان وتمحيص للنفوس اما تربية الايمان فتربية الاعتماد على الله والتوكل عليه والثقة بما عنده كان عليه الصلاة والسلام اوثق بما عند الله مما في يده واما تمحيص النفوس فبتنقيتها من أدراان البخل والشح والطمع .

وفي الانفاق بناء للمشروعات الاجتماعية ومما يؤسف له اسفا كبيرا ان الجمعيات التبشيرية وغيرها من الجمعيات الضالة المنحرفة في العالم يسخو أصحابها سخاء لا تعرفه الجمعيات الاسلامية و ينظمون أمورها تنظيماً ينتج الشر الكبير ويشمر الفتنة العارمة .

والانفاق في سبيل الله دعامة الجهاد ودعامة مقدماته ونعني بمقدماته تربية الأبناء تربية الرجولة والبطولة والقوة والإقدام ، أما الجهاد فهو سبيل الحفاظ على الأمة ومبادئها ومقدساتها من عاديات المعتدين وغارات المغيرين ، وقد كانت سورة البقرة من اول ما نزل بالمدينة واستمرت السورة الكريمة مفتوحة تنزل آياتها وتتكامل أجزاؤها حتى آخر ما نزل من القرآن الكريم وكانت السورة الكريمة دعوة للجهاد وتربية للانفاق .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز (١) : « نرى التنويه بفضيلتي الانفاق والجهاد في سبيل الله لا يزال يعاد و يردد في مطالع الحديث ومقاطعته في اجماله وفي تفصيله ، ترديداً ينادي بأنه هو المقصود الأهم والهدف الأعظم من التشريع في هذه السورة ... »

فلو اننا في ضوء هذا الأسلوب تمثلنا تلك البيئة واحداثها وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها لتمثلنا معسكراً ثابتاً للجهاد المزدوج : الجهاد المالي والجهاد البدني وتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائداً حريصاً لا يغرب عنه شأن من شئون جنوده خاصها وعامها لا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون وكلما فرغ من افتائهم في نوازهم العارضة المؤقتة رجع بالحديث الى مجراه العتيق ، في شأن مهمتهم الرئيسية ( الجهاد في سبيل الله والانفاق في سبيله ) .

وهكذا يرى الدكتور دراز أن سورة البقرة تدور حول موضوع أساسي هو الجهاد في سبيل الله وان ما تحلل آيات الجهاد من موضوعات أخرى فهي موضوعات تتعلق بنوازل وقتية أو هي أمور فرعية تتعلق بالجهاد نفسه ومثال ذلك موضوع الصلاة في الحرب ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله ؟ .

يقول الدكتور دراز: يجيبنا الكتاب العزيز: لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها لا في سلم ولا في حرب لا في أمن ولا في خوف قال تعالى ( حافظوا على الصلوات ) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد في صفات الصلاة وهيئتها « فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ) .

والصلاة قوة معنوية وعدة من عدد النصر على العدو، فلا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين قبل أن يؤمروا بالقتال والصلاة تطهرة تنقي النفس من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا .

إلى ان يقول والجندي في الحرب تشغله مخافتان : مخافة على نفسه واخوانه المجاهدين

(١) : النبأ العظيم ص ٢٣٦ .

معهم من أخطار الموت أو الهزيمة وخفاة على أهله من الضياع والعيلة إن قتل . لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين اما اهله فقد وصى الله للزوجة اذا مات زوجها بأن تمتع حولا كاملا في بيته واما خوف الموت فليعلم ان الذي يطلب الموت توهب له الحياة» الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم .»

وهكذا ابعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين بعد ان زودت ارواحهم بزيادة التقوى وهكذا اصبحوا على استعداد نفسي كامل لتلقي الأوامر العليا فليصدر اليهم الأمر صريحا بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وانفسهم « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم .»

انتقلنا من سورة الأنفال الى سورة البقرة ولا حرج فالقرآن وحدة متكاملة وقد اخذت آيات الانفاق نصيبا وافرا في آخر سورة البقرة. وكان غرضنا من كل ما سبق بيان الارتباط بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال والجزء الأخير من السورة الكريمة كله في الجهاد بالمال وقد تلونا من احاديث الانفاق ما سبق ونختار من آيات الانفاق الجزء الأخير من سورة البقرة .

قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون » اقترنت الدعوة الى الانفاق في الآية الكريمة بالتخويف والتذكير بيوم الوعيد يوم لا يغني خليل عن خليله ولا تنفع شفاعة الشافعين الا لمن اذن له الرحمن فالسلطان لله وحده والملك لله وحده نددت الآية الكريمة بمناسبة الانفاق بذكر الكافرين وظلمهم ويفهم من ذلك بوضوح ان المخالفين عن امره جل شأنه التاركين للانفاق وللزكاة هم الظالمون وهم الكافرون سمو بهذا الاسم لبيان عظم جرمهم وفداحة اثمهم كما قال تعالى في آخر آية « الحجج » « ومن كفر فان الله غني عن العالمين » تعريضا بمن لم يحجج ويؤخذ من الآية الكريمة ان ترك الزكاة من صفات الكفار كما قال تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » .

وتلت الآية السابقة الداعية الى الانفاق آيات كريمة في توطيد بناء التوحيد في قلب المؤمن وعلى رأس هذه الآيات آية الكرسي ذات الشأن العظيم والفضل الكبير وقد صح في حديث اورده الامام احمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها اعظم آية في كتاب الله وانها مشتملة على اسم الله الأعظم قال الزمخشري : فإن قلت لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد قلت: لما فضلت له سورة الاخلاص من اشتغالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور اعظم من رب العزة فما كان ذكرا له كان افضل من سائر الأذكار .

اقترنت آية الانفاق بآية عظيمة في كتاب الله في توحيده جل شأنه وتمجيده وقد اعقبت هذه محاجة ابراهيم لمدعي الألوهية الذي قال انا احببي واميت واعقب ذلك قصة الذي اماته الله مائة عام ثم بعثه ثم قصة ابراهيم يقول ولكن ليطمئن قلبي كل هذه المعاني تؤدي غرضها في دعوة غير المؤمن الى الايمان وتزيد المؤمن ثباتا ورسوخا في ايمانه فاذا دعي الى الانفاق لم يتردد ولم يتلأأ ، وهكذا يشعر هذا الاقتران بارتباط الانفاق في سبيل الله بالايمان بالله .

وبعد الدعوة السابقة الى الانفاق الحاسمة الصارمة وبعد آيات التوحيد التي سبق ذكرها التي تدعم موضوع الانفاق وتزيده قوة وتأييدا تعود الآيات الكريمة الى الدعوة الى الانفاق ثانية مبينة هنا ثمراته الكريمة ونتائجها الطيبة دعوة خافزة مشجعة قال تعالى :

« مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . وبعد هذا وذاك يأتي دور التحذير من الانفاق المشوب بشائبة الرياء . ( قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فقله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بر بوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظلَّ والله بما تعملون بصير ) .

ومما هو شبيه بغائلة الرياء وهو دليل على ضعف الايمان أن يعمد المنفق الى الخبيث

من ماله فيقدمه في سبيله قال تعالى :

(يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) .  
وما هي العقبة التي تقف في وجه المؤمن وتحول بينه وبين الانفاق انه الشيطان يعد بالفقر .

قال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وم يذكر الا اولو الألباب وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من انصار» .

ومن الآداب المتعلقة بالانفاق الانفاق في السر والجهر قال تعالى : « ان تبدو الصدقات فنما هي ، وان تحفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم و يكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير»

قال تعالى : « ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون» .

قال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون» .  
جاءت الدعوة الأولى الى الانفاق مقترنة بتوحيد الله جل شأنه وبالآية الكريمة التي جاء فيها ذكر اسم الله الأعظم ثم اعقب ذلك آيات ضاربة أروع الأمثلة لسوق هذا الانسان الى الاعتراف بخالقه والاذعان لألوهيته ثم كانت بعد ذلك دعوة تبين ما للمنفق من مضاعفة الثواب عند ربه ثم جاءت آيات تذكر بأدب الانفاق البعيد عن الرياء والانفاق من الطيب لا الخبيث وبجانب دعوة الشيطان حين يخوف العبد بالفقر ، والانفاق بالسرتارة وبالجهر أخرى ، وبعد هذا كله جاءت الآية السابقة مصدرة بذكر الهداية قد كرر فيها النداء واكد فيها العليم الحكيم على المؤمنين ان ما ينفقون من خير فهو لأنفسهم ، وان ما ينفقونه في سبيل الله وابتغاء وجهه ومن اسعد ممن ينفق في سبيل الملك الواحد

القهار وان ما ينفقونه يوف اليهم من قبل البر العدل الرحيم. و يأتي بعد هذا التأكيد وصف رائع جميل يصور لنا حال اناس من المؤمنين لا ينقطعون عن الانفاق في ليل ولا نهار ولا في سرا و جهرا ، في الليل يتلمسون السبل و يتجسسون الطرق ليصلوا الى ارملة من حولها ايتام جياع او عابر سبيل انقطعت حباله وفي النهار يحضرون الندوات و يقدمون الأموال في سبيل الأمور الكبيرة والمهام الجليلة و يعترض بين الآيتين وصف للفقراء الذين ينالهم برهؤلاء، ووصف يستدر الرحمة و يبين ضرورة الصدقة ومكانتها :

( للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض بحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ) (الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

### كلمة في الإنفاق للغزالي

قال القاسمي في تفسيره قال الإمام الغزالي عليه الرحمة في الإحياء ما نصه : في وجه الامتحان بالصدقات ثلاث معان :

الأول ان التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بافراد المعبود و شرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان محبة الله لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا و بسببها يأنسون بهذا العالم و ينفرون من الموت مع ان فيه لقاء وجه الله فامتحنوا بتصديق دعواهم في حب الله واستنزوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال تعالى ( ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم و اموالهم بأن لهم الجنة ) وذلك بالجهد وهو مسامحة بالمهجة شوقا الى الله عز وجل ، و المسامحة بالمال اهون ، ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس الى ثلاثة اقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع اموالهم فلم يدخروا دينارا ولا درهما . وقسم درجتهم دون من قبلهم وهم المسكون اموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الانفاق على قدر الحاجة دون التنعم ، و صرف الفاضل عن الحاجة الى وجوه البر مهما ظهر وجوهها .

وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين الى ان في المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي ( بعد ان قيل له هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم اما سمعت قوله عز وجل ( وآتى المال على حبه ذوي القربى ... الآية ) . واستدلوا بقوله عز وجل « وما رزقناهم ينفقون » وبقوله تعالى « وانفقوا مما رزقناكم » وزعموا ان ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ومعناه انه يجب على الموسر ، مهما وجد محتاجا ، أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة .

وقسم يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه وهي اقل الرتب وقد اقتصر جميع العوام عليها ، لبخلهم بالمال وميلهم اليه وضعف حبهم للأخرة .

يقول الغزالي هذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال والمعنى الثاني التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » والزكاة بهذا المعنى طهرة اي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وانما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه لله تعالى .

المعنى الثالث : شكر النعمة فان الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال ، وما اخس من ينظر الى الفقير وقد ضيق عليه الرزق ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على اغناؤه عن السؤال وإحواج غيره اليه .

أقول : الذي يبدو لي أن هؤلاء الذين وضعهم الغزالي في المرتبة الثانية هم اصحاب المرتبة الأولى وهم اقرب الى المعاني الكاملة التي تدعو اليها الشريعة الاسلامية فليس من الحكمة ولا من كمال الدين ألا يبقى بيد المؤمن درهم ولا دينار ولكن الأكمل ان يحفظ المال لوقت حاجته اذ ربما نزل بالأمّة كارثة او المت بها جائحة وهنالك يسعف المال وينقذ الادخار الأمة ويوضع المدخر في درجة المنقذين .

### الصلة بين الصفات الخمس والسؤال عن الأنفال

سأل اصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه عن الأنفال بعد موقعة بدر كيف

فسمتها ومن صاحب الحق فيها وكان هذا السؤال أمرا يؤخذن عليه في نظر الشارع الحكيم ذلك أن هذا المستوى هو دون المستوى الذي يطلب ان يكون فيه اصحاب رسول الله .

واعتبر الموضوع موضوع الساعة فبدى الحديث به وكان أول موضوع يطرح وأول مسألة تعالج ، ولم يعالج الموضوع معالجة جافية ولم يزجر الأصحاب عن الموضوع زجرا ولم يكرهوا على عدم الخوض فيه اكرها ولكنهم دعوا دعوة لينة كريمة الى ترك الأمر ووضعه بأيد أمينة تحسن التصرف فيه وتعرف البت بشأنه ، ودعى الأصحاب دعوة ملؤها الحنان وسداها النصيح ولحمتها الاشفاق دعوا الى تقوى الله وقد رأينا ما تنطوى عليه هذه الكلمة من مراقبة الله وطاعة لأمره وعمل بما يرضيه ودعوا الى اصلاح ذات بينهم ودعوا الى طاعة الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ثم جيء بعد ذلك بخمس صفات من صفات المؤمنين كل صفة منها كافية بالبلوغ بالمؤمن الى اعلى درجات الايمان .

الأولى الوجل عند ذكر الله وهو اصل خشية الله ودليل على تمجيده وتعظيمه وتقديره جل شأنه حق قدره .

والثانية زيادة الايمان عند تلاوة آيات الله وهي دليل على وعي القلب وتفتحه وادراكه للمعاني الجليلة وتأثره بها حتى تخالط اللحم والعظم وتصيح جزءا من اجزاء الانسان نفسه وهذا الوجل عند ذكر الله معناه يقظة ضمير المؤمن وارهاف حياته الوجدانية وكونها قد بلغت في تربيتها شأوا بعيدا والكثرة الغالبة من المسلمين لا توجل قلوبهم ولا تبكي عيونهم ولا تقشعر جلودهم وما ذلك الا من قسوة القلوب .

وهذه الحياة الوجدانية اليقظة المرهفة المدركة ينشأ عنها الوجل عند ذكر الله والطمأنينة الى امر الله والثقة بعونه وينشأ من كل ذلك الاذعان الى امر الله والقلوب راضية والصدور منسرحة .

وزيادة الايمان عند تلاوة الآيات منشؤه تربية الحياة الفكرية والوجدانية لدى المؤمنين فهم يدركون الحق ويتذوقون حلاوته وحلاوة المعاني السامية الكريمة التي تنزل بها آيات الله والوصم اليكم لا يرون في ذلك جمالا ولا يدركون له جلالا و يعجبون ممن يدركون شيئا من ذلك فتخشع قلوبهم وتدمع أعينهم قال تعالى : « والذين اذا ذكروا



بايات رهم لم يخروا عليها صما وعميانا »

الوجل منشؤه التربية الوجدانية وزيادة الايمان منشؤه التربية الفكرية والصفة الثالثة التوكل على الله وهي اعظم ثمرات التوحيد كما ذكرنا واصله الاعتقاد الثابت واليقين الراسخ بان الله جل شأنه هو المالك وحده وهو المتصرف وحده وهو بيده الامر وحده وثمره هذا الاعتقاد الاقدام في مرضاة الله مع التوكل على الله وخشيته وحده جل شأنه وعدم خشية شيء سواه .

وهكذا كان التوكل على الله اقوى العوامل في تربية الحياة الارادية . تربية العزيمة لدى المؤمن وتصميمه على فعل الخير .

وهكذا كانت الصفات الثلاث التي تؤدي الى تربية الحياة الوجدانية والحياة الفكرية والحياة الارادية وهذا قوام النفس ومظاهر سلوكها المختلفة وهذه الصفات الثلاث سيقت لحمل المؤمنين على الازعان بأن شأن الأنفال وقسمتها ليس من شأنهم والتفكير بها والقلق عليها يجب الا يكون من ديدنهم . انها لتربية رفيقة حكيمة تطأطأء الرؤوس اذعانا لجلالها واعترافا بلطف تأتيا : لم يزر الأوصحاب بالعنف ولم يدعوا كرها ولم ينهوا قسرا ولكنهم دعوا الى ايمانهم والى عهودهم .

المؤمن يوجل قلبه اذا ذكر الله وهذه الصفة وحدها كافية في الاستجابة لكل أمر من عند الله ومجافاة كل نهي من نهي .

والمؤمن يزداد ايمانا بآيات الله وهذه وحدها كافية لطاعة أمر الله اذ يرى ببصيرته بان امر الله هو الحق كله وهو الخير كله .

والمؤمن يتوكل على الله فلا يخشى فقرا ولا يبالي بالدنيا اذا اقبلت ام ادبرت فيدع أمر الأنفال ويتوب من السؤال عنها .

أليست هذه الصفات كافية لاقناع الأوصحاب او بعضهم على الأصح بضرورة الاقلاع عما خامر بعض النفوس من التفاتة يسيرة الى الدنيا؟ .

ولكن الآيات الكريمة تضيف اليها صفتين كريمتين تفعل كل واحدة فعلها في تربية النفوس المؤمنة وفي تركيتها وايتائها تقواها : الصلاة والانفاق في سبيل الله .

كل هذه الصفات ذكرت لأصحاب رسول الله ليرجع بعضهم عما حدثته نفسه من رغبة في الدنيا ولتظل تربية هذه الآيات تفعل في نفوس المؤمنين حتى يقوم الناس لرب العالمين .

انها لتربية "جلیلة تربية العليم الحكيم .

قال تعالى : « اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »

قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها وينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله ان ينفقوها فيه ، من زكاة وجهاد وحج وعمرة ونفقة على من تجب عليهم نفقته فيؤدون حقوقهم ، يقول هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون لا الذين يقولون بألسنتهم قد آمننا وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقا ولا يقيمون صلاة ولا يؤدون زكاة .

وقال ابن كثير : اولئك اي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الايمان يريد الصفات الخمس التي سبق ذكرها وهذه الصفات الخمس التي ذكرها وحدها تستلزم صفات الايمان كلها وتتبعها شعب الايمان جميعها .

فوجل القلب عند ذكر الله مثلا يقتضي خشيته والخوف منه والخشية والخوف يؤديان الى فعل المأمور وترك المحظور قال تعالى « ولن خاف مقام ربه جنتان » ، وقال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال والله اني لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده . والحديث يدل على ان خشية الله والعلم بحدوده ، هما صفات المؤمن الكامل الايمان والخشية تستلزم العمل والايمان متناسب مع الخشية فكلما ازدادت خشية العبد المؤمن كان ذلك دليلا على زيادة ايمانه .

واذا كان اهل الخشية هم العلماء الذين اثنى الله عليهم في الكتاب فلا يمكن ان يكونوا مكانا للشناء الا وقد التزموا الأوامر واجتنبوا النواهي لأن خوف الله جل شأنه يستلزم اداء الواجبات وترك المحرمات و يقال للفاجر انه لا يخاف الله وقال تعالى « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب »

قال ابن تيمية (١) قال ابو العالية : سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي

(١) الفتاوى ج ٧ ص ٢٢

كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب من قريب وكذا قال سائر المفسرين . قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الزجاج آثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا .

وقوله تعالى « أولئك هم المؤمنون حقا » اى الكاملون في ايمانهم البالغون فيه اعلى درجاته واقصى غاياته المؤمنون ايمانا حقا موصوفا بالصدق واليقين فلا يشك في ايمانهم شاك ولا يرتاب فيه مرتاب ولك ان تقول هم المؤمنون ، حق هذا القول حقا . وعلى القول الأول وصف ايمانهم بانه ايمان حق . وعلى الثاني وصفت نسبة الايمان اليهم نسبة حقه والأول عندي اقرب .

قال ابن كثير قال عمرو بن مرة: قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا كقولك فلان سيد حق وفي القوم سادة وفلان تاجر حقا وفي القوم تجار وفلان شاعر حقا وفي القوم شعراء . يقول القاسمي : كأنه (يعني عمرو بن مرة) اراد الرد على من زعم ان حقا صولة بقوله تعالى لهم درجات مؤكدة له وان الكلام تم عند قوله المؤمنون ، يقول القاسمي : فإن هذا الزعم يسان عنه اسلوب التنزيل الحكيم . ويقول صديق حسن خان: هذا انما يجوز على رأي ضعيف يعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون الجملة عليها . يقول القاسمي : وقد تطرق بعض المفسرين لمسألة شهيرة وهي :

هل يجوز ان يقال انا مؤمن حقا ؟

قال صديق حسن خان : وقد استدل بظاهر هذه الآية ابو حنيفة ومن قال بقوله « انه يجوز ان يقال انا مؤمن حقا ولا يجوز الاستثناء » واجيب عنه بأن الاستثناء ليس عن طريق الشك بل للتبرك كقوله « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » مع العلم القطعي أنه لاحق بهم أو المراد صرف الاستثناء إلى الخاتمة والنزاع عند التحقيق لفظي يعني أنه خلاف في أمر لا يدعو إلى خلاف .

و يقول القاسمي : قال الطوسي (٢) (في نقد المحصل)

(٢) الطوسي هو محمد بن محمد بن الحسن أبو جعفر نصير الدين الطوسي فيلسوف كان رأسا في العلوم العقلية ، علت منزلته عند « هولاء » فكان يطبعه فيما يشير به عليه . ونقد نخص ذكره صاحب كشف الظنون واكتفى بان يقول لأبي جعفر نصير الدين محمد بن حسن الطوسي =

المعتزلة ومن تبعها يقولون اليقين لا يحتمل الشك والزوال فقول القائل ( انا مؤمن ان شاء الله ) لا يصح الا عند الشك او خوف الزوال ، وما يوهم احدهما لا يجوز ان يقال للتبرك . انتهى

والغزالي في الاحياء بسط هذه المسألة واجاب عن سوغ ذلك بأجوبة منها التخوف من الخاتمة لأن الايمان موقوف على سلامة الخاتمة ومنها الاحتراز من تزكية النفس ... الى آخر ما يقول

وقال ابن حزم في الفصل :

القول عندنا في هذه المسألة ان هذه صفة يعلمها المرء من نفسه فان كان يدري انه مصدق بالله عز وجل وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبكل ما اتى به وانه يقر بلسانه بكل ذلك فواجب عليه ان يعترف بذلك كما امر تعالى في قوله « وأما بنعمة ربك فحدث » ولا نعمة أؤكد ولا افضل ولا أولى بالشكر من نعمة الاسلام فواجب عليه ان يقول : مؤمن مسلم عند الله في وقتي هذا ولا فرق بين قوله انا مؤمن مسلم ( انا اسود وانا ابيض ) وهكذا سائر صفاته التي لا شك فيها وليس هذا من باب الامتداح والعجب في شيء لأنه فرض عليه ان يحقن دمه بشهادة التوحيد .

وعن ابن مسعود ( انا مؤمن ان شاء الله ) عندنا صحيح لان الاسلام والايمان منقولان عن موضوعها في اللغة الى جميع البر والطاعات فانما منع ابن مسعود الجزم على معنى انه مستوف لجميع الطاعات وهذا صحيح ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك وما منع ( ابن مسعود ) ان يقول المرء ( اني مؤمن ) بمعنى ( مصدق ) .

وأما قول المانعين : « من قال أنا مؤمن فليقل انه من أهل الجنة فالجواب انا نقول ان متنا ما نحن عليه الآن فلا بد لنا من الجنة بلا شك وبرهان ذلك انه قد صح من نصوص القرآن والسنن والاجماع أن من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكل ما جاء به ولم يأت بما كفر، فإنه في الجنة ، الا اننا لاندرى ما يفعل بنا في الدنيا ولا نأمن مكر الله تعالى ولا إضلاله ولا كيد الشيطان ولا ندرى ماذا نكسب غدا ونعوذ بالله من الخذلان .

والمحصل للرازي يقول صاحب كشف الظنون ( محصل افكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتأخرين ) وهو في علم الكلام ، ولخصه المحقق نصير الدين الطوسي وسماه تلخيص المحصل يقول الطوسي « وفيه من الغث والسمين ما لا يحصى فرأيت ان اكشف القناع وأبين الخلل وادل على غثه وسمينه » .

و يتفق مع ما ذكر ابن حزم بايجاز غير مغل ما روى القرطبي قال :  
وسأل رجل الحسن فقال يا ابا سعيد امؤمن انت ؟ فقال له الايمان ايمانان فإن كنت  
تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به  
مؤمن وان كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله  
وجلت قلوبهم — الى قوله تعالى — اولئك هم المفلحون حقا فوالله ما ادري انا منهم ام لا .  
وقال الشيخ السفاريني الحنبلي صاحب شرح الدررة المضية في عقد الفرقة المرضية  
الذين يجرمون الاستثناء هم المرجئة والجهمية ومن وافقهم مما يجعل الايمان شيئاً واحداً قال  
شيخ الاسلام يعني ابن تيمية عليه رحمة الله وكان اهل الشام شديدين على المرجئة وكانوا  
يستنون اتباعاً للسلف .

قال شيخ الاسلام ومذهب اصحاب الحديث كابن مسعود واصحابه والثوري وابن  
عبينه واكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء البصرة والامام احمد  
ابن حنبل وغيره من ائمة السنة كانوا يستنون في الايمان وهذا متواتر عنهم، ويقول واخذ  
سلف الأمة في الاستثناء ان الايمان المطلق فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات فاذا  
قال الرجل انا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه انه من الأبرار المتقين وهذا تركية  
الانسان لنفسه وشهادته لها بما لا يعلم .

قال الخلال في كتاب السنة حدثنا سليمان بن الأشعث يعني الامام الحافظ أبا داود  
صاحب السنن قال سمعت ابا عبد الله يعني الامام احمد رضي الله عنه قال له رجل قيل  
لي امؤمن انت ؟ قلت نعم هل عليّ في ذلك شيء ؟ هل الناس الا مؤمن او كافر؟  
فغضب الامام احمد وقال هذا كلام الإرجاء . ثم قال الامام احمد أليس الايمان قولاً وعملاً  
قال له الرجل بلى ، قال فجئنا بالقول ؟ قال نعم ، قال فجئنا بالعمل ؟ قال لا فكيف  
تعيب أن يقول ان شاء الله ويستثنى ؟

قال ابو داود اخبرني احمد بن ابي شريح ان الامام احمد رضي الله عنه كتب اليه في  
هذه المسألة ان الايمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل ونحن نستثنى في  
العمل .

وقال السفاريني قال الامام أحمد أذهب الى حديث ابن مسعود في الاستثناء في  
الايمان لأن الايمان قول وعمل فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون فرطنا في العمل فيعجبني

أن يستثنى في الايمان يقول أنا مؤمن ان شاء الله . يقول السفاريني ومثل هذا كثير في كلام الامام أحمد رضي الله عنه وفي كلام امثاله من أئمة السلف .

يقول السفاريني: وقد كان الامام احمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره مؤمن أنت و يكرهون الجواب لان هذه بدعة أحدثتها المرجئة قال الخلال أخبرني أحمد بن أصرم المزني أن ابا عبد الله قيل له اذا سألتني الرجل فقال مؤمن أنت ؟ قال قل له سؤالك إياي بدعة ولا أشك في ايماني .

يقول السفاريني : فعلم أن الامام احمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلوب من الايمان ويجعلون الاستثناء عائدا الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور وهذا شبيه بما نقلنا عن الحسن البصري .

قال ابن كثير قال الحافظ ابو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا ابو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة عن خالد ابن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن الجهم عن الحارث بن مالك الانصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كيف أصبحت يا حارث ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا ، قال انظر ما تقول فان لكل شيء حقيقة فاحقيقة ايمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي واضمأت نهاري ، وكأني انظر الى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني انظر الى أهل النار يتضاغون فيها فقال « يا حارث عرفت فالزم » ثلاثاً (١) .

(١): ذكر ابن كثير الحديث السابق ولم يعلق عليه بشيء وقد ذكره السيد رشيد رضا في تفسيره وقال : رواه الطبراني بسند ضعيف يؤثر للعبارة .

واما رجال السند السابق فأولهم محمد بن عبد الله الحضرمي وقد ترجم له الذهبي في تذكرة الحفاظ وقال كان من اوعية العلم وسئل عنه الدارقطني فقال ثقة جبل وهو شيخ الطبراني الحافظ الامام العلامة الحجة .

وابو كريب هو محمد بن العلاء بن كريب قال الحافظ ابن حجر ثقة حافظ روى له اصحاب الكتب الستة وزيد بن الحباب قال الحافظ ابن حجر صدوق يخطيء روى له مسلم واصحاب الكتب الأربعة وعبد الله بن لهيعة صدوق خلط بعد اختراق كتبه. وسعيد بن أبي هلال يقول ابن حجر فيه صدوق لم ار لابن حزم في تضعيفه سلفا الا ان الساجي حكى عن احمد انه اختلط وقد روى له اصحاب الكتب الستة ومحمد بن ابي الجهم ترجم له الحافظ ابن حجر في الاصابة فقال: قال ابن عبد البر ولد في

## قال تعالى « لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »

عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن حجر : وذكره ابن سعد في الطبقة الاولى من أهل المدينة . وعلى هذا فرجال السند السابق فيهم ثلاثة ضعفاء اولهم زيد بن الحباب قال فيه ابن حجر صدوق يخطئ ولكنه على ضعفه من رجال مسلم والثاني ابن لهيعة وهو على ضعفه من رجال مسلمه ايضا والثالث سعيد ابن ابي هلال وقد روى له اصحاب الكتب الستة ونتيجة هذا ان ضعف الاسناد محتمل فوجد له سند آخر في قوته لعضده وانتقل الحديث بذلك من مرتبة الضعيف الى مرتبة الحسن لغيره .

وقد اورد الحديث صاحب مجمع الزوائد وقال فيه رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج الى الكشف عنه وهذا يعني عدم اطمئنانه الى رجال السند ثم يرويه عن الحسن بن مالك ويقول رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يخرج به .

وقد اورد الحديث ابن حجر في الاصابة في ترجمة الحارث بن مالك قال روى حديثه ابن المبارك في الزهد عن معمر عن صالح بن مسمار ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا حارث بن مالك كيف اصبحت ثم قال ابن حجر وهو معضل ومعمر هو ابن راشد الأزدي ثقة ثبت فاضل وقد روى له اصحاب الكتب الستة وصالح بن مسمار يقول عنه ابن حجر بصري سكن الجزيرة ، مقبول قديم من السبعة ومعنى كونه من السابعة انه من اتباع التابعين فينبه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام تبعي وصاحبي ولذلك سمي ابن حجر الحديث معضلا وكونه معضلا لا يجعله صالحا لتقوية السند الأول .

قال ابن حجر : وكذا اخرجه عبد الرازق عن معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث : الحديث وجعفر بن برقان صدوق يهم وهو من السابعة فالاسناد معضل ايضا .

يقول ابن حجر وجاء الحديث موصولا من طريق اخرى اخرجه الطبراني من طريق سعيد بن ابي هلال عن محمد بن الجهم وابن منده من طريق سليمان بن سعيد عن الربيع بن لوط كلاهما يعني محمد بن الجهم والربيع بن لوط عن الحارث بن مالك ورواه البيهقي في الشعب ثم قال هذا منكر وقد خط فيه يوسف بن عطية وهو ضعيف جدا . قال ابن حجر في آخر ما روى قال ابن صاعد وهذا الحديث لا يثبت موصولا . والحديث اورده ابن ابي شيبة في كتاب الايمان باسنادين احدهما ضعيف مرسل والثاني معضل ( كتاب الايمان لابن ابي شيبة تحقيق ناصر الدين الالباني ص ٣٨ ) .

فد يقول قائل اذا كان الحديث ضعيفا فلم ذكره وفيه العناء الكبير في سرد رواياته والجواب ان مفسرين . اثيرين لدي ذكر الحديث السابق ولم يعلقا عليه بشئ اولها ابن كثير رحمه الله والثاني سيد قطب عليه رحمة الله فكان غرضي ان ابذل جهدي القاصر في معرفة درجة الحديث ذلك لأنني اذهب ان للأحاديث الضعيفة والتي لا اصل لها اثرا سيئا في نفوس المسلمين وفي سلوك المسلمين ولأنها كانت عاملا من العوامل في انحراف المسلمين عما كان عليه رسول الله واصحابه والسلف الصالح .

قال عطاء (١) درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم والرزق الكرم ما اعد لهم فيها وعن مجاهد (٢) الدرجات هي الأعمال الرفيعة وقال الضحاك اهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق ، فضله على الذي هو اسفل منه ولا يرى الأسفل فضل احد عليه .

فالدرجات هي المنازل والمقامات العالية في الجنة وهي منازل الخير والكرامة يكرم الله بها عباده المتقين ، وهذه المنازل لهم عند ربهم فأبي تشریف وتكريم اكبر من تشریف من كانت له منزلة عند ربه وأي رحمة يدركها من له مقام عند ربه .

وقد ذكر في الآية الكريمة أن الدرجات لهم ، للمؤمنين الذين وصفوا بما وصفوا به وذكر ان هذه الدرجات عند الرب جل شأنه وكونها عند الله تشریف لها وتعظيم لأمرها وأنها منازل وراء وصف الواصفين وإدراك المدركين لا يستطيع ان يعرفها الا من حل بها وذكر بعد كل هذا ان الرب ربهم جل شأنه فهو يخصهم بفضله ويمنحهم وده ومحبته وكرمه .

قال الامام تقي الدين بن تيمية رحمه الله (٣) :

واولياء الله على طبقتين سابقون مقربون وأبرار اصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله سبحانه في عدة مواضع من كتابه في أول الواقعة وآخرها وفي سورة الانسان والمطففين وفي سورة فاطر فانه سبحانه ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها وذكر القيامة الصغرى في آخرها ( يعني بالقيامة الكبرى عليه رحمة الله القيامة عند فناء الدنيا وبالصغرى موت الانسان في دار الدنيا ) . قال تعالى في اولها :

( وكنتم ازواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين )

وهذا تقسيم للناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين وصف في كتابه في غير موضع وقال تعالى في آخر السورة : فلولا ( أي فهلا ) اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير

(١) : ابن الجوزي ج ٣ ص ٣٢١

(٢) : صديق حسن خان ج ٤ ص ٧ ( فتح البيان )

(٣) : في كتاب الفرقان ( ص ٢٥ منشورات المكتب الاسلامي بدمشق )



مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين

وقال تعالى في سورة الانسان :

ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييرا.

وقال تعالى فى سورة المطففين :

يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون .

يقول ابن تيمية : فعن ابن عباس وغيره من السلف قالوا يمزج لاصحاب اليمين مزجا ويشرب بها المقربون صرفا وهو كما قالوا فإنه قال تعالى يشرب بها المقربون ولم يقل منها لأنه ضمن قوله يشرب معنى يروي فان الشارب قد يروي وقد لا يروي فاذا قيل يشرب فيها لم يدل على الري واذا قال يشرب بها كان المعنى يروون بها فلا يحتاجون معها الى ما هو دونها فلهذا شربوها صرفا بخلاف اصحاب اليمين فانها مزجت لهم مزجا .

فأولياء الله تعالى على نوعين مقربون واصحاب يمين كما تقدم وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عمل القسمين في حديث الأولياء فقال : يقول الله تعالى : « من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الى عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصره ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها »

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات فلما تقربوا اليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبا تاماً كما قال تعالى ( حتى أحبه ) يعني الحب المطلق كقوله تعالى ( صراط الذين انعمت عليهم ) أى الإنعام التام المطلق .

وهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها الى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوها صرفا كما عملوا صرفا والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون ولا يثابون عليه فلم يشربوا صرفا بل مزج لهم من

شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا .

ونظير هذا انقسام الانبياء الى عبد رسول ونبي ملك وقد خير الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما قال الله تعالى في قصة سليمان (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) .

الى ان يقول تعالى ( هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب ) أي اعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه و يتصرف في الولاية والمال بما يحب ويختار من غير اثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بل يعطي من أمره ربه بعطائه ويولي من أمره ربه بتوليته فأعماله كلها عبادات لله تعالى كما في صحيح البخاري عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اني والله لا اعطي احداً ولا امنع احداً إنما أنا قاسم اضع حيث أمرت » .

والمقصود ان العبد الرسول افضل من النبي الملك كما ان ابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار اصحاب اليمين .

قال تعالى : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » ( الاسراء : ٢١ )

وقال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »

ويقول ابن القيم (١) : أهل الإخلاص للمعبود وأهل المتابعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام هم أهل ( اياك نعبد ) حقيقة اعمالهم كلها لله واقوالهم لله وعطائهم لله ومنعهم لله وحبهم لله وبغضهم لله ومعاملتهم في الظاهر والباطن لوجه الله لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا ولا ابتغاء لجاه ولا طلبا لمحمدة او منزلة في قلوبهم ولا هرباً من ذمهم . فالناس لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فمن عرف الناس

(١) في مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد و اياك نستعين ج ١ - ص ٨٣

أنزلهم منازلهم . ومن عرف الله اخلص له اعماله واقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل احد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق . وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم .

وكلام الشيخين فيما افهم ينصبّ على معنى واحد و ينزع منزعا واحدا ولكني احسب ان كلام شيخ الاسلام أوجز وأعمق وهو يدل فيما أرى على أن المعنى الذي يعبر عنه قد مازج قلبه .

والذي أفهم من كلام الشيخين استيلاء حب الله جل شأنه على قلب العبد المؤمن فهنالك من عباده من ملأ حب الله قلبه حتى كان ملء سمعه وملء بصره وكان يقيمه ويقعده ويتردد مع انفاسه ويخالج خطراته ومثل هذا في كل حركة وفي كل سكون وفي كل تغلب يكون دافعه مرضاة الله وغايته القرب من الله وهوبين البداية والنهاية والغدو والرواح ممتلئ القلب حضورا وأنسا وطمأنينة وسكينة ومثل هذا اعماله كلها عبادات وهو يشرب صرفا كما عمل صرفا .

وهذا الذي يغلب على قلبه تعظيم الله جل شأنه وتقديره يتصف بأنواع من الصفات فيكون محبسا لله جل شأنه مبتلا اليه متوكلا عليه معرضا عما سواه زاهدا بكل ما يجب الناس ويعشقون

يقول ابن القيم ومن منازل ( اياك نعبد و اياك نستعين ) منزلة الإخبات قال تعالى ( وبشر المحبتين ) ثم كشف تعالى عن معناهم فقال ( الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون ) وقال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

يقول ابن القيم : والإخبات يدور معناه على أمرين التواضع والسكون إلى الله عز وجل ولذلك عُدِّيَ إلى تضمينا لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون الى الله يقول الإخبات في أول مقامات الطمأنينة والسكينة واليقين والثقة بالله ونحوها كل هذه الاخبات مقدمتها ومبدؤها .

وهو اول مقام يتخلص فيه السالك من التردد الذي هو نوع من الغفلة والإعراض . ويشبه ابن القيم الاخبات بالماء العذب فاذا ورد السائر ماء عذبا زال عنه التردد

واندفع خاطر الرجوع وكذلك السالك اذا ورد مورد الاخبات تخلص من التردد والرجوع ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره وجدّ في السير.

يقول عليه رحمة الله : السالك تعرض له غفلة عن مراده تضعف ارادته وشهوة تعارض ارادته فتصده عن مراده ويعرض له رجوع عن مراده وسلوة عنه والدرجة الأولى من الاخبات تحميه عن هذه الثلاثة اما في الدرجة الثانية فلا ينقض ارادته سبب ولا يوحش قلبه عارض ولا يقطع الطريق عليه فتنه وفي الدرجة الثالثة يستوي عنده المدح والذم وتدوم لأتمته لنفسه و يعمى عن نقصان الخلق عن درجته .

وهكذا يفسر ابن القيم الاخبات بأنه طمأنينة الى الله وثقة بما عنده فاذا وجد المؤمن حلاوة هذا المعنى في قلبه مضى في جهاده في سبيل الله موقنا بنصره واثقا بعونه ومن اتصف بهذا زهد في الدنيا وملذاتها ورغب عن اللغو بأنواعه وانقطع الى الله وتبتل اليه .

يقول ابن القيم ومن ( منازل اياك نعبد و اياك نستعين ) الزهد ومن احسن ما قيل في الزهد كلام الحسن او غيره ( ليس الزهد في الدنيا بتحریم الحلال ولا اضاءة المال ولكن ان تكون بما في يد الله اوثق منك بما في يدك وان تكون في ثواب المصيبة — اذا اصبحت بها — أرغب منك فيها لو لم تصبك ) وهذا من اجمع كلام في الزهد واحسنه وقد روي مرفوعا .

قال ابن القيم ومن منازل ( اياك نعبد و اياك نستعين ) منزلة الورع وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمة واحدة فقال ( من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ) .

وهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشى والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة وهذه الكلمة كافية شافية في الورع .

يقول : ومن منازل ( اياك نعبد و اياك نستعين ) منزلة التبتل قال تعالى « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » والتبتل الانقطاع الى الله بالكلية قال تعالى ( له دعوة الحق ) فهو أهل لان يعبد وحده ويدعى وحده ويقصد ويشكر ويحمد ويحب ويرجى ويخاف ويتوكل عليه ويستعان به ويستجار به ويلجأ اليه ويصمد اليه فتكون حينئذ الدعوة

الإلهية الحق له وحده .

قال تعالى : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون  
يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون »

افتتحت السورة الكريمة بذكر الأنفال وما وقع من سؤال بعض الأصحاب بشأنها  
وكانت هذه المسألة الأولى موضوع الساعة ومنطلق الآيات الكريمة ومبتدؤها وكان  
الموضوع الثاني ما وقع من تردد بعض الأصحاب في مواجهة القوة الغاشمة قسوة قريش  
وجيشها العاتي .

وقد عقدت الآيات الكريمة شبيها بين الموضوعين وجعلت الموضوع الأول ممهدا للموضوع  
الثاني وسطت بينها كفاف التشبيه واعلنت أن الشأن في سؤال بعض الأصحاب من  
الأنفال وما وقع مما قد يؤدي الى صدع في وحدة الجماعة شبيه بحال المسلمين حين دعوا  
الى مقابلة إحدى الطائفتين فكان من بعض المسلمين شيء من التردد في الاستجابة .

يارسول الله امض لما اراك الله

قال ابن اسحاق : وأتاه الخبر عليه الصلاة والسلام عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم  
فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر فقال  
وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال « يا رسول الله امض لما اراك الله فنحن معك والله لا  
نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى « اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »  
ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى  
برك الغماد ( موضع بناحية اليمن ) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول صلى  
الله عليه وسلم خيرا ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي ايها الناس . فلما قال ذلك رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال  
أجل . قال : آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك

عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فيسر بنا على بركة الله فسرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك .

ثم قالوا سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم .

قال ابن حجر : (١)

وروى ابن ابي حاتم من حديث أبي ايوب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة : إني اخبرت عن غير أبي سفيان فهل لكم ان تخرجوا اليها لعل الله يغنمناها ؟ قلنا نعم ، فخرجنا فلما سرنا يوما او يومين قال « قد أخبروا خبرنا فاستعدوا للقتال » فقلنا « والله ما لنا طاقة بقتال القوم » فاعاده فقال له المقداد « لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى ولكن نقول انا معكما مقاتلون » قال فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد فأنزل الله تعالى « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون »

واخرج الحديث بلفظه عن ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه صاحب مجمع الزوائد (٢) ثم قال رواه الطبراني واسناده حسن .

وروى البخاري في صحيحه عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن اكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به (يعني ان يكون صاحبه احب اليه من كل امر يوضع في مقابل ذلك المشهد) اتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول لك كما قال موسى (اذهب انت وربك فقاتلا ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره يعني قوله) .

(١) : في الفتح ص ٨٨ ج ١ (٢) : ج ٦ ص ٧٣

## معالجة الموقف

عالمج رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف معالجة حكيمة بارعة : كان في بعض نفوس أهل بدر شيء من التردد وكثير من الحذر وخوف من مواجهة العدو صورته الآيات الكريمة تصويراً بارزاً للعيان .

أما الطريقة التي سلكها عليه صلوات الله وسلامه فهي نداء النفوس القوية الملتبهة إيماناً المتقدة حماسة لتأخذ بأيدي النفوس الحذرة المترددة .

كان في إقدام الرسول عليه الصلاة والسلام على المناجزة المشركين نوع من المغامرة ذلك أن المشركين متأهبون تأهباً تاماً وهم يفوقون المسلمين في عددهم وسلاحهم وفرسانهم ولم يكن لدى المسلمين إلا فرسان وكيف يقف الراجل أمام الفرسان في ميدان القتال ؟ وكان خروج المسلمين للقاء نيف وأربعين رجلاً يحمون القافلة فإذا هم يقاؤون بالدعوة لمقابلة ألف مقاتل من صناديد قریش وأبطالهم .

## مغامرة في سبيل الله منظمة

هذه المفاجأة وحدها كافية لتثبيط عزائم كثيرين وإدخال الروع في قلوبهم وابلغ وصف ما جاء في كتاب الله قوله تعالى ( كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ) ولم يكن هؤلاء الذين داخلهم الروع بدعاً من الناس ولكن الذين يتشرفون بالرسالة لا بد من أن يأتوا بما يشبه المعجزات ولقد كانت موقعة بدر محفوفة بالأمور الخارقة .

قلنا انه كان في عزم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه على القتال نوع من المغامرة لأن منطلق القتال لا يسمح بوقوف ثلاثمائة لم يخرجوا لقتال امام الف قد أعدوا العدة كاملة .

ولكنها مغامرة في سبيل الله وفي سبيل الدعوة قدر فيها جانب تدخل القدرة التي لا تعجزها قدرة وحسب فيها مقابلة الايمان للكفر وقد قال تباركت أسماؤه بهذا الشأن « وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » وهذه الآية الكريمة نزلت على أثر الغزوة ترفع معنوية المؤمنين وترشد الى حقيقة هامة وأروع ما في الآية، وكل ما فيها رائع ، تعليلها ضعف المشركين أمام المؤمنين بأنهم قوم لا يفقهون .

إنها مغامرة وشجاعة وإقدام. ورسول الله كان موقنا فيها بأن الله معه والغلبة له ولجنده وكان يعلم ان اسباب النصر الى جانبه : وحدة صف المؤمنين وتكسر وحدة المشركين وإقدام المؤمنين وتردد اولئك .

لقد تردد المؤمنون ترددا يسيرا ولكن قيادة الرسول عليه صلوات الله وسلامه انتهت بهم عاجلا الى كلمة حاسمة وعزيمة ماضية ، وانتهى المسلمون جميعا الى الارتباط برسول الله وامثال أمره حتى كانوا جميعا يتحركون بأمره و يسكنون بأمره كانوا ثلاثمائة رجل يميلون ميلا رجل واحد و ينصبون على العدو على قلب رجل واحد .

لقد ذهب الحذر وغشي المؤمنين غاشية من الأمنة والطمأنينة وكانت روحهم المعنوية عالية قوية بالغة اقصى درجات القوة وكان المشركون جماعات متخاذلة وقيادات متنازعة .

أيقن رسول الله ان الفئة القليلة هي الغالبة بإذن الله وعلم ان الثلاثمائة الحفاة العراة الجياع اقوى بوحدتهم واجتماع كلمتهم من الألف المستكبرين المتخاذلين وقد علم ايضا بما علمه الله أن الله ناصره على إحدى الطائفتين وقد نجت العير واصبح المسلمون وجهها لوجه أمام النفير والله جل شأنه منجز وعده وناصر عبده .

كان لا بد من علاج موقف المترددين وجمع القلوب وشحنها جميعا بشحنة الايمان وشحنة الإقدام. وعرض عليه الصلاة والسلام الموضوع عرضا حياديا كما صورته رواية ابي ايوب الأنصاري روى الحافظ ابوبكر بن مردويه في تفسيره بإسناده عن ابي ايوب الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة: اني اخبرت عن عير ابي سفيان بانها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم إنهم قد اخبروا بخروجكم فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العير ثم قال ما ترون في قتال القوم فقلنا مثل ذلك .

وهذه المراجعة من رسول الله عليه صلوات الله تنبئ في الوقت نفسه عن خطته عليه صلوات الله إذ يستخرج ما في نفوس بعض القوم من تردد وحذر ليذهب بما يجذبون من خوف من لقاء العدو .



كانت المراجعة وكان بين رسول الله وبين أصحابه ما وصفته الآيات الكريمة قال تعالى : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين » لقد بلغ الأمر حد الجدال اذن. قال ابن كثير: قالوا أخرجتنا للعر ولم تعلمنا قتالا فنستعد له وقال الشوكاني : وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة وذكرت الآيات الكريمة بأن جداهم كان في أمر بين لا شبهة فيه وانما يعذر المرء في ان يجادل في امر له فيه شبهة حق. أما ان يجادل في امر واضح وضح النهار فليس عليه في ذلك الا اللوم ولقد كان جداهم في موضع القتال ومواجهة المشركين وسميت الآيات الكريمة الجدال في هذا الموضوع جدا لا في الحق وهو حق لأن رسول صلى الله عليه وسلم أمر به وأي شيء اجدر بأن يسمى حقا من امر رسول الله المؤيد بوحى الله ونصره وقد اخبرهم عليه صلوات الله وسلامه بأن الله قد وعده إحدى الطائفتين وقد نجت الأولى فلم تبق الا الثانية فوضع القتال الذي يجادلون فيه حق لأنه امر رسول الله وهو حق قد تبين واتضح لأن الوحي قد وعد فيه بالنصر .

ولقد نطق بهذا الحق في مقابلة ذلك الجدال أبو بكر ثم عمر ثم المقداد بن عمرو وكانت كلمة المقداد فيها شحنة الايمان وشحنة الاقدام وقد حفظتها الأجيال وسجلتها الصحف وقد رواها البخاري في صحيحه وفيها تلميح بذكر الذين يقعدون عن نصره الأنبياء وكان فيها تقرير لليهود مستمد من كتاب الله وفيها تحذير للمؤمنين الذين جادلوا في الحق أن يكونوا امثالهم « اذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » وهكذا كان لآيات الكتاب تأثيرها المرجو في نفس المقداد رضي الله عنه وكان فهمه للموقف فهما صحيحا دقيقا ولقد كانت كلمته التي ألقاها في قلوب الذين جادلوا من أصحاب رسول الله كلمة الإيقاظ والتنبيه فتحت عيونهم وشرحت صدورهم للحق وبصرتهم بالموقف تبصرة حقيقية ونزعت ما في قلوبهم من خوف أملاه غفلتهم عن مكانتهم وأنهم اصحاب سيد رسل الله وصفوة عباد الله يبذلون دماءهم رخيصة في سبيل دعوة الله .

ترى ماذا كان موقف المجادلين بعد أن سمعوا آية الإنذار تلك الآية التي تشنع على بني اسرائيل موقفهم اقبح تشنيع ( اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ) انها صورة الذين جرهم الجبن الى الخلود الى الأرض واللصوق بكل درجات الذل والهوان ، فهل يرضى أصحاب رسول الله بمثلها ، وان كانوا يعدون للأمر عدته فالأمر الآن قد خرج من

أيديهم وأصبح بيد القدر وليس أمام الأصحاب إلا أمران إما الاقدام ومناجزة المشركين  
وأما الرجوع وهو فرار من مقابلتهم وقد وعدهم الله احدى الطائفتين فقيم التردد اذن .  
كان عليه الصلاة والسلام يقول ( اشيروا علي ايها الناس ) يعيدها مرة بعد مرة  
ويستكلم أبو بكر ثم عمر ثم المقداد وكل هذه الكلمات تملأ جوار الجماعة اهل بدر شجاعة  
وايماناً واقداماً وتذهب التردد وتقطع دابر الاحجام وكان لهذه الكلمات اثر كبير ولكن  
الجوما يزال بحاجة الى شحنة اخيرة ينطلق بها سيد من الانصار لأن الذين سبقوا كلهم  
من المهاجرين .

و يقوم سيد الأنصار وهو يرى انه مدعو من قبل رسول الله عليه صلوات الله ليقول  
كلمة الحق وليسطق بالقول الفصل الذي يثبت القلوب في اما كنها ويشير سيد  
الأوس ( سعد بن معاذ ) الى قضية الايمان والى بيعة الموت والى العهود والمواثيق (آمننا بك  
وصدقناك واعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا فامض لما امرك الله ) .

### مؤتمر البدرين

انه لمؤتمر عظيم مؤتمر البدرين تحت قيادة رسول الله ذلك المؤتمر الذي انبثق عنه يوم  
الفرقان يلحظ فيه ما يلي :

١ — عزيمة رسول الله عليه صلوات الله على المضي لقتال المشركين بعد ان نجت العير  
وجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

٢ — تردد فريق من المؤمنين حين جبهوا بمفاجأة لم يعدوا لها عدتها ، و بتغير للموقف  
خطير ينقلب فيه الأمر من مواجهة عير يحميها ( ٤٣ ) رجلا الى مواجهة جيش فيه ألف  
مقاتل من صناديد الرجال .

٣ — لم يكن هذا الفريق ليدرك ما ادرك القائد عليه صلوات الله وسلامه من قوة  
الايمان وضعف الباطل وأهله وتفرق صفوفهم وتخاذل افرادهم ، وكانوا جديرين بأن يمروا  
بتجربة كهذه التجربة وقد مروا بها ورأوا بأعينهم قوة الايمان ومعونة الله .

٤ — كان في الجماعة فريقان فريق يتبعون رسول الله ولو سار بهم في لجج الموت  
وفريق مترددون قليلاً وكانت حكمة القائد عليه صلوات الله في تغليب الجانب الأول  
على الجانب الثاني وتصحيح موقف الجانب الثاني .

٥ - وقد تم ذلك كله بكلمة واحدة كان يرددتها عليه الصلاة والسلام (اشيروا علي ايها الناس) وهي تنطوي على ما يريد ايجاد جو تغلب فيه روح الايمان ويشيع في جنباته عبر الإقدام ، ولقد تم له ما يريد عليه صلوات الله وسلامه بمنتهى الأناة والحكمة فكانت كلمة (اشيروا) تنقل المسلمين في كل مرة درجة بعد درجة . تكلم ابو بكر فكانت النقلة الأولى والثانية عند كلمة عمر والثالثة عند كلمة المقداد والرابعة خاتم المطاف انتهت الى الذروة في رد الذين جادلوا الى جو الجماعة .

٦ - لقد كان مؤتمرا من نوع المؤتمرات التي تقرر المصير والتي يقف فيها المؤتمرون على مفترق الطريق ، ولو كانت الغلبة للذين جادلوا لتعثرت الدعوة اياما تعثر وربما كان مع الذين جادلوا نصيب كبير من الحق كيف يقاتلون على غير استعداد وأهبة تامة ؟ ولو كانت الغلبة على الغير لما كان ذلك اليوم يوم الفرقان الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأعلى كلمة الحق ومحق كلمة الباطل .

٧ - جدير بالمسلمين أن يتعظوا بمثل هذا المؤتمر وأن لا يدركهم الخوف في الساعات الحاسمة وكس من مواقف في أيامنا هذه يسيطر الجبن فيها على المؤمنين فيتغلب أعداء الله ...

٨ - ولكن السبيل التي نهجها رسول الله عليه صلوات الله كانت سبيلا رائعة .

كان عليه صلوات الله بجلاله وهدوئه وأناته واهتمامه وتفكيره الجدي العميق لا يزيد على كلمة « اشيروا علي ايها الناس » يدفع فيها رؤوس أصحابه ليقرأوا القلوب في مواضعها .

وكان جدال الذين جادلوا موجهاً الى رسول الله ولم يكن جدالا بين الاصحاب أنفسهم ومعنى ذلك ان الزمام كله بيده عليه صلوات الله وحين يدع أفراد الجماعة القائد ويتنازعون فيما بينهم فذلك ضعف تربية روح الجماعة وضعف الارتباط بالقيادة . كان الزمام بيد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كله ولم يجب عن جدل الذين جادلوا بشيء ولكن غضى عنه عليه صلوات الله واغضاهته هذه ذات معاني : إن الاجابة على الجدل والأخذ والرد في موضوعه تزيد قوة وتشبثا تزيد معناه رسوخا في القلوب وتكسب قضيته تأييداً

ولكن إجابة هؤلاء تولاها أفراد آخرون في الجماعة لهم ميزاتهم في الرئاسة والشجاعة وكانت اجابة هؤلاء منطلقه من دعوة رسول الله باسم الشورى وكانت الاجابة مؤيدة بحجج دافعة لا تدع مكاناً لقول قائد وكانت اجابة حاسمة موجهة الى الافراد جميعا وهكذا سكنت ألسنة الذين جادلوا عن رضى واقتناع وتفتحت قلوبهم للحق فاذعنوا له وساروا حين اعطى القائد أمره الأخير ملخصا كل ما تم في المؤتمر بكلمة واحدة « سيروا وابشروا » والله لكأني أنظر الى مصارع القوم .

عالج الموقف عليه الصلاة والسلام في الميدان معالجة رحيمة حكيمة ناجحة وساق المؤمنين جميعا وقلوبهم موحدة الى جنة عرضها السموات والأرض ، وسار المؤمنون الى ميدان القتال وقد انتهى الجدل وختم النزاع وكلهم يطلب الموت كما تطلب الحياة وكان يظن ان المسألة قد انتهت في ميدان القتال .

ولكن الآيات الكريمة تنزل على أثر القتال بدروسها وعظاتها تصور الموقف بكلمات تصورا حيا ناطقا « وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » .

وتسجل الآيات الكريمة الموقف كله آتية على خلجات القلوب ودخائل النفوس ليظل كل هذا عبرة للمؤمنين حتى يقوم الناس لرب العالمين لقد كان اصحاب رسول الله نماذج حملة الدعوة والأمثلة الرفيعة للجهاد في سبيل الرسالة وكان جديرا بمواقفهم أن تظل خالدة بعيد النظر فيها المؤمنون ويتعظون بها و يقتدون .

كانت الآيات الكريمة درسا للأصحاب انفسهم بعد الدرس العملي تشرح خطواته وتبين منحنياته وتلقي الأضواء على زواياه ومتعرجاته وتوضح النقاط الهامة التي تظل نبراساً للأصحاب ولمن جاء من بعدهم ما دامت السماوات والأرض .

### وحدة صف المؤمنين بعد المؤتمر

كانت الكلمة التي ختم بها رسول الله عليه صلوات الله المؤتمر الذي سبق بدرا . « سيروا وابشروا والله لكأني انظر الى مصارع القوم » فسار الأصحاب ممثلين امر رسول الله قد ذهب عنهم ما ألم ببعضهم من تردد يسير حين علموا أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير الى الأعداء فساروا وقلوبهم مجتمعة وعزائمهم ماضية .

اما المشركون فقد كانوا فرقا شتى مختلفة الآراء متنازعة الأهواء أما أبو سفيان فقد أرسل الى قريش إنكم خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا وليس من شك أنه كان لهذا القول أثر كبير في نفوس كثيرين وكان أبو جهل معارضا في الرجوع وقد قال : والله لا نرجع ابدا حتى نرد بدرنا فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان (الجواري) وتسمع بنا العرب ويمسيرنا وجعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فامضوا .

واما الأخنس بن شريق وكان حليفا لبني زهرة فقد قال لهم : يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وانما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا لي جنبها وارجعوا فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا يعني ابا جهل فرجعوا فلم يشهدوا زهري واحدا ، أطاعوه وكان فيهم مطاعا .

وأما عتبة بن ربيعة فكان رآه الرجوع وقد رآه رسول الله عليه صلوات الله في القوم على جبل له أحمر فقال ان يكن في احد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ان يطيعوه يرشدوا وذكر ابن اسحاق أنه قام خطيباً فقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه قتل ابن عمه او ابن خاله او رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فان أصابوه فذاك الذي اردتم وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون وأرسل بذلك حكيم بن حزام الى ابي جهل فأخبره فقال والله ما بعتة ما قال ولكنه رأى ان محمداً واصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فتخوفكم عليه ثم افسد على الناس رأى عتبة وبعث الى عامر الحضرمي فقال هذا حليفك يريد الرجوع بالناس وقد رأيت ثارك بعينك فقم فانشد مقتل اخيك فقام عامر فصرخ وا عمراه فحميت الحرب وتعبوا للقتال والشيطان معهم لا يفارقهم .

وكان الذي حمل عتبة على ما فعل حكيم بن حزام يقول ابن اسحاق لما اطمان القوم (يعني المشركين) ، بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا احزروا لنا اصحاب محمد ، فاستجال بفرسه حول المعسكر ثم رجع اليهم فقال ثلاثمائة رجل يز يدون قليلا أو ينقصون ولكن أمهلوني حتي أنظر ألقوم كمين أو مدد؟ قال فضرب في الوادي حتى أبعد فله ير

شيئاً فرجع اليهم فقال ما وجدت شيئاً ولكني قد رأيت يامعشر قر يش البلايا (١) تحمل المنايا نواضح يثرب (٢) تحمل الموت الناقع قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم . فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة ابن ربيعة فقال يا ابا الوليد إنك كبير قر يش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر : قال وما ذاك يا حكيم ؟ قال ترجع بالناس وتحمل امر حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت ، أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فائت ابن الحنظلية ( يعني ابا جهل ) .

هكذا كان جيش المشركين . أبو جهل يريد المضي إلى بدر ليتسمع بقر يش الناس فلا يزالون يهابونهم ويقسم لرسول عتبة : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، أما ابوسفيان فيشير على الناس بالرجوع بعد ان سلم الله غيرهم ، وأما الأخنس فقد رجع بالفعل مع بني زهرة وكان فيهم مطاعا ، وأما حكيم فيدعو عتبة إلى دعوة الناس للرجوع ويعتبر ذلك خيراً يذكره عتبة إلى آخر الدهر ، وأما عتبة فيخطب الناس ويقول « فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب » .

هذا شأن قر يش في نزاعهم واختلافهم ولقد كان مجتمعهم يمثل المجتمع الجاهلي بأتم صفاته بخلاف في الرأي وانقسام بين الزعماء يطعن بعضهم في بعض ويسخر بعضهم من بعض وأي انقسام في الجيش أكبر من عزم بعض زعمائه على القتال مهما كان الأمر ودعوة بعض الزعماء الآخرين إلى الرجوع عن القتال ، وقد كان أبو جهل يمثل زعامة الشورة العنيفة فهو يتهم المهادين المسلمين بالجبن والخور وكانت تهمة هذه دافعة لعتبة ليكون مع ابنه وأخيه أو السابقين إلى ميدان القتال لدفع التهمة ومقابلة التحدي وكل ذلك يؤدي إلى موت عتبة وأخيه شيبه وابنه الوليد على الشرك بيد علي وحزرة وعبيدة بن الحارث .

هكذا كان شأن المشركين أما اصحاب رسول الله عليه صلوات الله فقد كانوا بنفوس عالية وقلوب صادقة مجتمعة على قائدها يبتغون وجه الله ورضاه كانوا لا يتحركون الا

(١) : البلية : الناقة او الدابة تربط على قبر الميت ، فلا تعلق ولا تسقى حتى تموت .

(٢) : النواضح : الابل التي يستقى عليها الماء .

بأمر رسول الله ولا يحملون الا بأمره فإذا حملوا حملوا حمله رجل واحد قال ابن اسحاق : ثم تراحف الناس ودنا بعضهم من بعض وقد امر رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل (ارموهم) .

## روحهم المعنوية عالية

وكانت الروح المعنوية للمؤمنين عالية : قال ابن اسحاق ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ افما بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وهذا الحديث رواه مسلم (١) عن انس بن مالك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسياسة عيناً ينظر ما صنعت عير ابي سفيان فجاء وما في البيت احد غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فحدثه الحديث قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم فقال « ان لنا طلبة فن كان ظهره حاضرا فليركب معنا » فجعل رجال يستأذنونهم في ظهرانهم في علو المدينة فقال لا إلا من كان ظهره حاضرا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقدم من احد منكم الى شيء حتى اكون انا دونه » فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا الى جنة عرضها السماوات والأرض » قال يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال نعم قال بخ بخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملك على قولك بخ بخ قال « والله يا رسول الله إلا رجاء ان اكون من اهلها قال فانك من اهلها فأخرج تمرات من قرنه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن ثم قال لئن انا حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل » .

وهكذا يبين هذا الحديث بأنه لئن كان في اهل بدر اناس قالوا في اول الأمر لا طاقة لنا بقتال القوم فقد انتهى الأمر بهم بعد معالجة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه

(١) : كتاب الامارة الحديث ١٤٥ ج ٣ .

للموضوع أن قال قائلهم « لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة » فهولم يعد يطيق صبراً عن الجنة حتى يتم تمراته التي بيده . لست استبعد أبداً أن يكون قد انقلب اناس من اهل بدر بعد المؤتمر الذي تم وبعد أن رأوا ما رأوا من صدق محمد عليه الصلاة والسلام في لهجته واقدامه في عزمته لست استبعد ان يكون قد انقلب فريق من الذين قالوا لا طاقة لنا بقتال القوم الى الحال التي كان عليها عمير رضي الله عنه وهو لا يطيق احتمال الحياة شوقاً الى الجنة وان كنت لا أنكر أن النفوس لا تتساوى ولكن الجو الذي شاع والروح التي عبقت في أرجاء الجماعة بفعل رسول الله عليه صلوات الله روح الشوق الى مرضاة الله والى جنته والى الاستبسال في سبيله .

روى البخاري وغيره عن عبد الرحمن بن عوف (١) قال اني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فاذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن اذ قال لي احدهما سرا من صاحبه ياعم أرني ابا جهل فقلت يا بن اخي وما تصنع به قال: عاهدت الله إن رأيت أنه اقتله أو الموت دونه فقال لي الآخر سرا مثل صاحبه فاسرني اني بين رجلين مكانها فأشرت لها إليه فانقضا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء معاذ ومعوذ .

وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء وان النبي صلى الله عليه وسلم نظر في سيفيها وقال كلا كما قتله وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الرويتين باحتمال أن معاذ بن عفراء شد عليه مع معاذ بن عمرو وضربه بعد ذلك معوذ بن عفراء حتى اثبتته ثم حزر رأسه ابن مسعود فتجتمع الأقوال كلها وقد سبق ابن حجر الى هذا القول فقال اشترك الثلاثة في قتله لكن ابن الجموح أخذه فاستحق السلب وانما قال كلا كما قتله تطيباً لقلب الآخر .

ومما يستأنس به في تأييد رأي النووي وابن حجر أن ابا جهل كان الرجال يحيطون به حتى كأنه في مثل الحرجة (١) فلا يمكن في مثل هذه الحال أن يصل اليه واحد او اثنان .

(١) : شرح المواهب ج ١ ص ٤٢٨ .

(١) : هي الشجر الملتف لا يوصل اليه .



وقد روى ابن اسحاق (٢) ومن طريقه الحاكم عن ابن عباس قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة سمعتهم يقولون وابو جهل في مثل الخرجة ابو جهل لا يخلص اليه فجعلته من شأني فصمدت نحوه فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه (٣) بنصف ساقه قال فوالله ما شبهتها حين طاحت الا بالنواة تطيح (٤) من تحت مرضخة النوى (٥) حين يضرب بها قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي واجهضني (٦) القتال عنه فلقد قاتلت عدة يومي ، واني لأسحبها خلفي فلما آذنتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها قال ابن اسحاق ثم عاش معاذ بعد ذلك حتى كان زمان عثمان .

يقول ابن اسحاق ثم مر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبتته فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ومعاذ ومعوذ ابنا عفراء وهي بنت عبيد بن ثعلبة من بني مالك بن النجار يقول بشأنها ابن حجر في الاصابة في المبايعات وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها وهي أنها تزوجت بعد الحارث البكير فولدت له أربعة: اياسا وعاقلا وخالدا وعامرا وكلهم شهدوا بدرًا وكذلك اخوتهم لأمههم بنو الحارث معاذ ومعوذ وعوف فانتظم من هذا انها امرأة صحابية لها سبعة اولاد شهدوا كلهم بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد مر بنا أن معوذًا استشهد في بدر وكذلك عوف .

قال ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء قال يارسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال غمسه يده في العدو حاسرا فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم اخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

قال تعالى : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

(٢) : السيرة النبوية ج ١ ص ٦٣٤ .

(٣) : اطارتها .

(٤) : تذهب .

(٥) : التي يدق بها النوى للعلف .

(٦) : اشتد علي .

كان العتاب الأول للمؤمنين في سؤالهم عن الأنفال وكان العتاب الثاني في تردد بعض الأصحاب ، حين دعوا الى قتال جيش لم يخرجوا للقاته ، ولم يعدوا عدة لمناجزته ، وكانت صورة العتاب ههنا لا تزيد على وصف ما تم في نفوسهم قال تعالى « وان فريقا من المؤمنين لكارهون » وهذه الكراهية أمر يستحق العتاب ، وان يذكر على سبيل التأنيب . ووجه العتاب فيه أنهم كرهوا امرا وصفته الآيات الكريمة بوصفين جدير بكل منها وحده أن يدفع المؤمن الى الإقدام على الأمر الذي كره وهو منشرح الصدر باسم الشفر: أولها ان الإخراج كان من قبل الله جل شأنه فلم يكن خروج محمد عليه صلوات الله وسلامه لغرض في نفسه ولكنه كان امرا يريد الله ويرضاه لما سيكون وراءه من اعلاء كلمة الله وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وجاء التعبير عن لفظة الجلالة بصفة الربوبية التي تتضمن غاية العناية واقصى درجات الرعاية واضيف لفظ رب الى محمد عليه الصلاة والسلام ليفيد ان الذي اخرجته عليه صلوات الله وسلامه ربه الذي يدبر اموره ويحيطه بلطفه ويحفه بعنايته ويكلؤه ويرعاه ويهدي قلبه ويتولى تدبير اموره . الأمر الأول أن ربه قد اخرجته عليه صلوات الله وسلامه والأمر الثاني ان إخراجهم لم يكن خطأ ولا ضلالا ولكنه اخراج قد خالط الحق جوانبه وامترح بكل اجزائه .

وهكذا وصف فريق من المؤمنين بأنهم كرهوا الخروج الذي امر الله به والذي أشرب بالحق وتلبس به وليس من شك في ان نخوة الايمان تكاد تذيب قلب المؤمن الذي وقعت منه الكراهية ، ولا تقتصر الآية الكريمة على ذكر الكراهية ، ولكنها تصيف الى ذلك الجدال وهو جدال في موضوع وصفته الآيات الكريمة بأنه حق لأنه امر رسول الله ولأنه حق قد تبين وما كان للمؤمنين أن يجادلوا في الحق بعد ما تبين ولكن الآيات الكريمة تفصح عن الدافع الى كراهية الخروج والى الجدال في موضوعه أنه الخوف من الموت .

وهل لقاء العدو وقتاله الا السوق إلى الموت ولكن الآية الكريمة بتعريضها وتلميحها تشنع على الذين يمشون لقتال الأعداء وهم كأنما يساقون الى الموت وتطلب من المؤمن ان يمشي الى الموت بخطا ثابتة وجأش رابط كأنما يسير الى لقايا أحبته .

ولم يقتصر العتاب على كل ما سبق ولكن هنالك الى جانب كل هذا نقطة جديرة بالتأمل هي ضعف همة هذا الانسان وقصور غايته اذا ترك لنفسه : لقد كان فريق من

الأصحاب يريد العير ويجادل من اجل ذلك ولكن الله جل شأنه جمع بينهم وبين صناديد قريش على غير ميعاد واراد جل شأنه ان يواجهوا رؤوس الكفر وفراعنة الشرك ليخضدوا شوكتهم ويكسروا شرهم ، واراد جل شأنه ان تنتصر الفئة القليلة التي تحمل دعوة الله علي الفئة الكثيرة التي تصد عن سبيل الله وتقف في وجه دعوته لينتصر الحق وترتفع رايته ، وليحق الله الحق بكلماته وكلمات الله امره وقضاؤه .

قال صاحب فتح البيان: المراد بالكلمات الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكه ووعده جل جلاله بالظفر على ذات الشوكه وقيل الكلمات عداته التي سبق بأنه جل شأنه مظهر دينه ناصر جنده وهكذا قال ابن الجوزي بكلماته اي بعداته التي سبقت من اعزاز الدين كقوله ليظهره على الدين كله .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

« لقد اراد الله وله الفضل والمنة ان تكون ملحمة لا غنيمة ، وان تكون موقعة بين

الحق والباطل » .

الى ان يقول : « فاین ما ارادته العصابة المسلمة لنفسها مما اراده الله ؟ . لقد كانت تمضي - لو كانت لهم غير ذات الشوكه - قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله بل قصة انتصار حفة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ولكنها انتصرت على نفسها وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحانا ظاهرا في جانب الباطل فقلبت بيقينها ميزان الظاهر فاذا الحق راجح غالب . أهـ .

أراد فريق من المسلمين أمرا وأراد الله أمرا آخر وأين ما أراد الله مما أرادوه. أراد جل شأنه تثبيت المؤمنين وإرهاب المشركين وان تتم المعجزة وتنتصر القلة على الكثرة تمهيدا لنصر دينه واعلاء كلمته كل هذه المعاني عوتب بها فريق المؤمنين عتابا اليما ممتزجا بالحجة البيينة والأدلة القاطعة ، وسجلت هذه المعاني في كتاب الله لتظل عظة للمؤمنين أبداً الأبدین .

قال تعالى : « ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق

ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

قال ابن جرير: ( ويريد الله أن يحق الإسلام و يعليه بكلماته أي بأمره اياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار وأنتم تر يدون الغنيمة والمال وقوله تعالى و يقطع دابر الكافرين أي يريد أن يجب أصل الجاحدين توحيد الله والدابر المتأخر وقطعه الإتيان على الجميع منهم ) .

و يقول أيضا: ( ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين كما يحق الحق كما يعبد الله وحده و يعز الاسلام وذلك هو تحقيق الحق و يبطل الباطل أي يبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر ولو كره الذين أجروا وهم الكفار فآكتمسوا المآثم والأوزار) .

و يقول رشيد رضا: ( الحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين وحق الكافرين و الحق الثاني هو الاسلام وهو المقصد والأول وسيلة له ) يقول رشيد رضا: ( وهذا اظهر مما قاله الزمخشري ) و خلاصة ما قاله الزمخشري ما يلي : . ( ليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين إرادة الله جل شأنه وإرادة المسلمين والثانية لبيان الحكمة الداعية الى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه ) .

ولزيادة ايضاح ما سبق نقول الحق الأول هو الحق الذي يختصم فيه المؤمنون والمشركون فالمؤمنون يرون انهم هم اصحاب الحق واتباعه والمشركون يزعمون انهم ذوو الحق وانصاره وقد ورد ان ابا جهل قال يوم بدر اللهم اينما كان اقطع للرحم وآنانا بما لا يعرف فأحنه الغداة وقال السدي كإن المشركون حين خرجوا من مكة الى بدر اخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين واكرم الفئتين وخير القبيلتين . وقد اراد جل جلاله بأمر المؤمنين بالقتال ولقاء النفير أن ينصر الفئة المستضعفة فيعلم كلا الفريقين أن الله مع المؤمنين ونصر الحق في هذه الموقعة تمهيد للنصر الأكبر والفتح المبين فالحق في الأولى ما يختصم فيه المؤمنون والمشركون وإظهاره بغلبة المؤمنين في هذه الدائرة الضيقة والحق في الثانية إظهار الحق في الدنيا بأسرها ( ليظهره على الدين كله ) بغلبة المؤمنين على المشركين كافة ، و قطع دابر مشركي مكة وسيلة ممهدة للثانية ولا بد أن تتم . و بعض المجرمون الأنامل من الغيظ .

و يلحظ في الآيات الكريمة امران :

اولهما لفت نظر المؤمنين في كل عصر وفي كل حين ان ماير يده الله جل شأنه هو غير

ما تريده نفوسهم الضعيفة ورغباتهم الرخيصة يريد الله من المؤمنين ان يتقدموا في كل حين الى ميادين القتال و يتقدموا بأبنائهم واموالهم ومهجم ليحموا هذا الحق وليعلوا رايته والمؤمنون إذا غفلوا عن معاني الايمان وانحطوا عن معاني القرآن ومتطلباته الرفيعة أدخلوا الى الارض وحرصوا على الحياة وآثروا متعتها وإذا وقع ذلك كان للباطل دولته وصولته .

وهكذا قارنت الآية الكريمة بين إرادتين بأوجز عبارة وابلغ أداء قال تعالى : « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله أن يحق الحق بكلماته » وقد انطوت هذه الجملة الكريمة على التعريض برغبة فريق من المؤمنين وطبيعة هذا الانسان بنهمه الى العاجلة وتطلعا الى سفاسف الأمور وعزوفه عما يزرؤه في بدنه وماله يقول الرمنشري : ( والله يريد للمؤمنين معالي الأمور وما يرجع الى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين وشتان بين المرادين ولذلك اختار لأصحاب بدر الطائفة ذات الشوكة وكسرة قوة المشركين يضعف المؤمنين وغلب كثرتهم بقلتهم وأعز المؤمنين وأذلهم .

والملاحظة الثانية سمّت الآية الكريمة المشركين بالمجرمين وفيها إشارة الى صدودهم عن الحق بأنفسهم وصددهم الناس عنه ومحاربة الحق بكل ما أوتوا من مكر وقوة ، تشير الآية الكريمة الى إجرامهم بفتنتهم المؤمنين ومكرهم بالليل والنهار ليصدوا عن سبيله .

وما اشبه الليلة بالبارحة ولعل مجرمي اليوم اشد مكرًا واشد دهاء من مجرمي الأمس لقد بلغ مكرهم اليوم ذروته وبلغ بالمسلمين قعودهم وغباؤهم إلى أبعد دركة ، تحاذل المؤمنون اليوم عن حماية الحق ونصرتة وعادت الوثنيات أشد ماتكون شرّة وفتكا .

قال تعالى : في شأن دعاة الوثنية « فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » أي ماضين فيما يكره الله وهم اشد ما يكونون تمردا وعتوا .

وقال تعالى : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

وقال تعالى : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون »

ولقد شهد التاريخ اليوم من مكر اعداء الله بالمسلمين في انحاء الدنيا ما تشيب له

ناصية الصبي وما يشده عقل الحليم وما المسؤول عما يقع في المسلمين الا المسلمون انفسهم حين فاتهم إدراك معاني كتابهم .

قال تعالى : « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » .

روى احمد ومسلم وابوداود والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وغيرهم ( وهذا اللفظ لمسلم ) عن عبد الله بن عباس يقول : حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله القبلة ثم مديديه فجعل يهتف بربه (١) : « اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم ات ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الأرض » فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك . (٢)

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال ( قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر اللهم اني انشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك فخرج وهو يقول « سبهم الجمع و يولون الدبر » )

يقول السيد رشيد رضا وروى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : ( لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وتكاثروا والى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته : اللهم لا تودع مني (٣) اللهم لا تحذلني اللهم لا تترني (٤) اللهم (١) : يصيح ويستغيث بالله بالدعاء

(٢) : قال ابن حجر في الفتح وقوله في روايه مسلم « كذاك » وهو بالذالك المعجمة وهو بمعنى كفاك قال قاسم بن ثابت : « كذاك » يراد بها الاغراء والأمر بالكف عن الفعل .

قاسم بن ثابت السرقسطي المحدث المالكي رحل مع ابيه الى مصر والحرمين وجمع الحديث ولد سنة ٢٥٥ وتوفي سنة ٣٠٢ صنف الدلائل في شرح غريب الحديث .

(٣) : في اللسان ودعت فلانا اي هجرته ، وقوله تعالى ما ودعك قالوا ما تركك ، وفي الحديث اذا لم ينكر الناس المنكر فقد تودع منهم اسلموا الى ما استحقوه من التكبير عليهم وتركوا وما استحبه من المعاصي حتى يكثروا منها فيستوجبوا العقوبة .

(٤) : هو من وتره يتره من باب وعد ومعناه مسه بالأذى ومن معانيه نقصه حقه وظلمه قال تعالى ولن يترككم أعمالكم .

انشدك ما وعدتني .

وروى ابن اسحاق في سيرته انه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم هذه قریش أتت بخيلها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتني » .

قال ابن حجر قال الخطابي : لا يجوز أن يتوهم أحد أن ابا بكر كان وثق بربه من النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الحال بل الحامل للنبي صلى الله عليه وسلم على ذلك شفقتة على أصحابه وتقوية قلوبهم لأنه كان اول مشهد شهده فبالغ في التوجه والدعاء ليسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبا بكر في ثقة من القوة والطمأنينة فلهذا عقب بقوله ( سيزم الجمع ) انتهى ملخصا .

يقول ابن حجر وقال غيره؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكمل حالات الصلاة وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر له يكن معينا لتلك الواقعة وانما كان مجملا .

والذى يبدو ان السؤال من أصله غير وارد وقد صور الاشكال السيد رشيد رضا فيما يلي :

وقد استشكل ما ظهر من خوف النبي صلى الله عليه وسلم مع وعد الله له بالنصر وعدا عاما ووعداً خاصا ومن طمأنينة أبي بكر رضي الله عنه على خلاف ما كان ليلة الغار إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم آمنا مطمئنا متوكلا على ربه وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عز وجل « اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها »

اقول والذى يبدو انه لا إشكال لمقام الدعاء واللجوء في ساعة الشدائد هو المقام الطبيعي ولقد أخبرتنا آيات الكتاب أن الكفرة الجاحدين اذا وقعوا في ساعات الشدة الملجئة توجهوا بقلوبهم الى من بيده ملكوت السماوات والأرض .

قال تعالى : « واذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين »

اذا كان هذا حال الجاحدين في الشدائد فما يكون حال سيد المقربين وأفضل المرسلين ؟

وهل ينافي الدعاء الطمأنينة وهل ينافي الخوف السكينة ولقد رأينا من قبل ان الذين  
توجل قلوبهم لذكر الله هم الذين تطمئن قلوبهم لذكر الله ورسول الله أتقى الناس  
واخوفهم لله وهو أرجاهم لله وأعظمهم ثقة بما عنده .

لقد كان رسول الله عليه صلوات الله وسلامه فى خوف على أصحابه وإشفاق على  
أمتة وحزن على الناس جميعا يوضح هذا قوله تعالى « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن  
لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، ولقد كان بعض أصحابه رضوان الله عليهم قبل هذا الموقف  
بساعات يجادلون رسوله وكانوا كارهين منازلة المشركين وكانوا كأنما يساقون إلى الموت  
وهو ينظرون .

ولم يكن ابوبكر رضي الله عنه يحمل من الفكر مثل ما يحمل رسول الله عليه صلوات  
الله وسلامه ولكن قلب ابي بكر كان مستغرقا بما يشاهد من خوف رسول الله واشفاقه  
وكان ممتلئا حبا وتعظيما لرسول الله وخوفاً واشفاقا عليه وهو يرى بعد منزلته من منزلته إذ  
القلب الكبير الذي حمل مسئولية أصحابه وأمتة والدنيا بأسرها لا بد وأن تصيبه هزة فى  
الساعة الحاسمة لا يسكنها الا الجوار الى الله والتهافت بربه جل شأنه والتضرع اليه .

كانت الساعة من أشد الساعات هولاً ، وكانت المعركة معركة موت أو حياة فإما أن  
ترفع راية الايمان فتظل مرفوعة أو يغلب الباطل لا سمح الله ومن العسير جداً بعد ذلك أن  
تستعيد الفئة المؤمنة ثقمتها وتستجمع أمرها حين تصاب بثلمة فى بداية انطلاقها ، لقد  
كانت ساعة فاصلة وقد سمي القرآن الكريم ذلك اليوم يوم انفرقان فهل يكون عجباً أن  
يخشع قلب النبي عليه الصلاة والسلام فى تلك الساعة الرهيبة ويوجل فؤاده ويعظم همه  
فيفزع إلى علام الغيوب ويلجأ الى مفرج الكرب ؟

إن النفوس الكبيرة التي أرهف إحساسها وعظم إشفاقها تحمل من الهم والفكر مالا  
يحمله الناس وبذلك تفجر من طاقاتها وطاقات من حولها من الناس ما ينزل البحار  
ويبدك الجبال .

لقد كان صلاح الدين كالنائحة الثكلى فقدت وحيدها لا يقرب ولا يستقر ولا يهدأ له  
بال ، لا يستسغ طعاما ولا شرابا ولا يهنا له نوم ولا يسعه مضجع ترى أكان يطرد اعداء الله  
من بيت المقدس لو كان كسائر الناس يستمرئ الطعام والشراب ويتمتع بملذات  
الدنيا ؟



وان الله تباركت أسماؤه يحب من عبده أن يزداد فقره اليه و يعظم اضطراره وتنقطع  
حباله كيلا يجد سبيلا إلا اللجوء اليه ففي تلك الحال تزداد عبوديته وترفع إنسانيته .

وانه لفهم في غاية السقم ذلك الفهم الذي كان يرى ان رسول الله عليه صلوات الله  
كان يجب أن يكون ذلك اليوم هادئا ناعم البال مستريحاً ، لقد كانت خشيته عليه الصلاة  
والسلام تملأ القلوب خشية ، وقربه من الله يملأ القلوب قربا ، وصلته بعالم الغيب تملأ  
القلوب شوقا إلى مرضاة الله ، فاذا دعا أصحابه الى الجنة كانوا كأنهم يرون الجنة عياناً  
فلا يطيقون احتمالا للصبر عنها .

### الانفعال المتزن يستثير الطاقات الكامنة

إن التوتر النفسي الحازم والانفعال الرصين في ساعات الشدائد يخرجان القوى  
الكامنة ويثيران الطاقات الدفينة ويرفعان هذا الانسان الى مستوى لم يبلغه من قبل  
ويأتي الانسان في هذه الحال في تلك الساعات بما يعجب له هو نفسه وبما يعجب له  
الناس .

لقد خرج عليه الصلاة والسلام من العريش ولفظة العرين هي اللفظة الغالبة على  
شعوري ، خرج من العرين « اعني العريش » وهو يشب في الدروع و يقول ( سبهزم  
الجمع و يولون الدبر) . ولو ان جيوش الدنيا وقفت في وجهه عليه الصلاة والسلام وهو  
في خروجه هذا لسحقها وتخطاها ويمثل هذه الروح القوية العالية قبل أصحابه عليه  
الصلاة والسلام فسرت من نفسه الكريمة الى انفسهم هذه المعاني كما تسرى الكهرباء  
في مسالكها .

أترى بعد هذا أن دعاء الرسول واستغاثته وتضرعه الى ربه مكان للسؤال  
والاستشكال ؟

لقد تعرض للموضوع صاحب فتح الباري واجاب بما قاله الخطابي والخطابي من علماء  
القرن الرابع الهجري كانت وفاته عام ( ٣٨٨ ) وأغلب ظني ان المسألة من المسائل التي  
يشيرها أعداء الاسلام ويدسونها في صفوفهم للإيقاع بهذا الدين واهله وامثلة ذلك كثيرة

(١) : ولفظة يشب اوردها ابن حجر في الفتح وقد رأيت في بعض الروايات ثبت في الدروع وأوثر  
الأولى فهي التي تناسب المقام وأرى الثانية من خطأ الناسخين .

في عصرنا من المبشرين الصليبيين والمستشرقين فينبري علماء المسلمين للاجابة عن كثير من المسائل وهي ترهات يضيع فيها الجهد والوقت .

والرسول عليه الصلاة والسلام في سؤاله ينشد ربه عهده ان ينجزله وعده فانه قد وعده والرسول عليه صلوات الله وسلامه واثق بربه .

والذى يؤخذ من الحديث ان يستغل العبد ساعات الشدة ليقبل بقلبه على ربه ويزداد خضوعاً وخشيةً ولجوءاً ليزداد عبودية ويزداد رفعة .

ولقد ظل عليه صلوات الله وسلامه يناشد ربه حتى رأى النصر بأمر عينيه. روى النسائي والحاكم عن علي قال ( قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال ثم جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده يا حي يا قيوم فرجعت فقاتلت ثم جئته فوجدته كذلك ) وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق رضي الله عنه أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النوم ثم استيقظ مبتسماً فقال أبشراً أباً بكر هذا جبريل على ثناياه النقع (١) . وفي البخاري عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل برأس فرسه عليه اداة الحرب .

يقول ابن حجر وفي روايه ايوب عن عكرمة عن ابن عباس قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدروع و يقول ( سيهزم الجمع ) اخرجه الطبرى وابن مردويه .

كان رسول الله مشغولاً بدعاء ربه ، ممتلئ القلب إشفاقاً على اصحابه ومن بعدهم وكان أبو بكر رضي الله عنه منشغلاً بالاهتمام برسول الله عليه صلوات الله .

ومقال السيد رشيد رضا في التمييزين موقف الرسول عليه صلوات الله والصديق في غار ثور وفي بدر مقال حسن ننقل بعض ما جاء فيه : (٢)

• اعطاء كل مقام حقه

قال رحمه الله انه صلى الله عليه وسلم أعطى كل مقام حقه بحسب الحال التي كان

(١) : الغبار يقول الشارح اشارة للاهتمام بمناصرتة صلى الله عليه وسلم .

(٢) : تفسير المنار ٩ / ٦٠٥

فيها فلما كان عند الخروج الى الهجرة قد عمل معه صاحبه كل ما امكنها من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستخفاء في الغار لم يبق عليها الا التوكل على الله تعالى والثقة بمؤنته وتخذيّل اعدائه صلى الله عليه وسلم لكمال توكله آمناً مطمئناً بما انزل الله عليه من السكينة وايدته به من الملائكة وابوبكر رضي الله عنه لم يرتق الى هذه الدرجة فكان خائفاً حزينا محتاجا الى تسليّة الرسول عليه الصلاة والسلام .

واما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحض وذلك ان التوكل الشرعي بالاستسلام لعناية الله تعالى وحده انما يصح في كل حال بعد اتخاذ الأسباب المعلومة من شرع الله ومن سننه في خلقه .

ومن المعلوم بالقطع ان اسباب النصر والغلب لم تكن تامة عند المسلمين في ذلك الوقت ، لا من الجهة المادية كالعدد والعدد والغذاء والعتاد والخيّل والابل بل لم يكن من هذه الجهة الا شيء ضعيف ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، لهذا خشي صلى الله عليه وسلم أن يصيب اصحابه تهلّكة على قلتهم لتقصيرهم في بعض الأسباب المعنوية فوق التقصير غير الاختياري في الاسباب المادية فكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم في إقامة سننه عقاباً لهم كما عاقبهم بعد ذلك في غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى « أو لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثلها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم »

وأما ابوبكر رضي الله عنه فلم يكن يعلم من ذلك كل ما يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد رآه منزوعاً خائفاً فكان همه تسليته صلى الله عليه وسلم وتدكيره بوعد ربه لشدة حبه له ، وفي الغار كان خائفاً عليه ، ولكنه رآه مطمئناً فلم يحتاج الى تسليته بل كان صلى الله عليه وسلم هو المسلي له لما رأى من خوفه ان تعرض له ألم او اذى .

فالرسول هو الذي اعطى كل مقام حقه : مقام التوكل المحض بعد استيفاء اسباب اتقاء اذى المشركين عند الهجرة ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفاً من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ماتبين لهم انه الحق الذي يريد الله تعالى بوعدده اياهم إحدى الطائفتين .

الى ان يقول : وجملة القول في هذا المقام ان الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان

يعلم بإعلام القرآن أن للنصر أسبابا حسية ومعنوية وان الله تعالى فيها سننا مطردة ، وكان يعلم أيضاً أن الله تعالى عنياة وتوفيقا بمنحه من شاء من خلقه فينصر الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة وانه جل جلاله له فوق كل هذا آيات يؤيد بها رسله .

فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ويحفهم بالعناية الربانية التي تكون بها القوة الروحانية أجدر بالنصر من القوة المادية وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه وكانوا يتأسون به في هذا الدعاة فيستغيثون بهم كما استغاثه وقد اسند الله اليهم الاستغاثة « إذ تستغيثون ربكم » .

قال تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله الا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله إن الله عزيز حكيم » .

الاستغاثة طلب الغوث والنصر وغوث الرجل قال : واغوثاه .

ولقد استغاث رسول الله واصحابه برهم في الساعة الرهيبة واستجاروا به جل شأنه ودعوه للنصر فأجاب دعاءهم الذي يجيب المضطر اذا دعاه بقوله تعالى : « فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » أي يردف بعضهم بعضا و يتلو بعضهم بعضا .

وقوله تعالى : « وما جعله الله الا بشري » أي لم يجعل تعالى ذكره إلا ممداد الذي أمدكم الا بشارة تبشركم بنصر الله .

وقال ابن جرير: المعنى لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضا وتتابعها بالمصير لايكم أيها المؤمنون ممداداً لكم إلا بشري لكم أي بشارة تبشركم بنصر الله إياكم على اعدائكم لتسكن قلوبكم وتوقن بنصر الله وما النصر الا من عند الله يقول جل شأنه وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون الا أن ينصركم الله عليهم لا بشدة بأسكم وقواكم بل بنصر الله لكم لأن ذلك بيده واليه ينصر من يشاء من خلقه ان الله عز يز لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب « حكيم » في تدبيره ونصره من نصر وخذلانه من خذل لا يدخل تدبيره وهن ولا خلل .

يقول صاحب فتح البيان وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا بل امد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتثبت قلوبهم قال قتادة وذكر لنا ان عمر قال أما يوم بدر فلا نشك ان الملائكة كانوا معنا واما بعد ذلك فالله اعلم .

يقول ابن جرير ايضا عند قوله تعالى « وما النصر الا من عند الله » يعني وما ظفركم ان ظفرتم بعدوكم الا بعون الله لا من قبل العدد الذي يأتيكم من الملائكة .

### أقاتلت الملائكة يوم بدر

و يقول صاحب تفسير المنار :

روي عن ابن عباس ان الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر وفيها عداه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون .

يقول : وانكر ابوبكر الأصم قتال الملائكة وقال ان الملك الواحد يكفي في إهلاك اهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو يوم بدر فأني حاجة الى مقاتلة الناس مع الكفار وبتقدير حضوره اي فائدة في ارسال سائر الملائكة ؟ وايضا فان اكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم وايضا لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أولا وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف واكثر ولم يقل بذلك احد وانه خلاف قوله تعالى « و يقللکم في اعينهم » ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البتة ... الى آخر ما يقول وقد اورد الرازي هذا الذي سبق عن الأصم وذكر حججه مفصلة كعادته الحجة الأولى ، والثانية ... الخ واعترض الرازي عليه بأن مثل هذا انما يصدر عن غير المؤمنين .

و ينتصر رشيد رضا للأصم و يقول ليس في القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل و يقول : فسر امداد الملائكة في بدر بقوله تعالى « فثبتوا الذين آمنوا » ويقول ابن جرير في معناه « قروا عزمهم وصححو نياتهم في قتال عدوهم من المشركين وقيل كان ذلك معونتهم اياهم بقتال اعدائهم يقول رشيد رضا : « فأنت ترى انه جزم بأن عمل الملائكة في ذلك اليوم انما كان موضوعه القلوب بتقوية عزمهم وتصحيح نيتها »

وأقول ليس في هذا النزاع كبير جدوى فليس من شك في أن الملائكة شهدت بدرا وليس من شك في أنها أمدت المؤمنين وهيأت أسباب النصر اما الكيفية التي أمدت بها

فليس ذلك من شأننا فلو أن انسانا أعرف لديه القدرة الخارقة قال لي سأكون معك في قتال عدوك وسأنصرك عليه وأنا اعلم ان وجوده كاف لنصرتي ومعونته مؤكدة لغلبتي فإن قلت احب ان اعرف الوسائل التي تستعملها والطريقة التي تريد ان تسلكها كان ذلك تطفلا مني ودخولا في غير ما يعنيني فكيف الشيء بالملائكة الكرام الذين هم من عالم الغيب وتصرفاتهم من عالم الغيب ووسائلهم لا تعد ولا تحصى ولا نستطيع ادراكها . فالتسليم بأنهم شهدوا وبأنهم هيأوا اسباب النصر هو الذي يعيننا ولا طائل فيما وراء ذلك .

وقد بوب البخاري بقوله « باب شهود الملائكة بدر »

وروى في صحيحه عن معاذ بن رفاعه عن ابيه وكان ابوه من اهل بدر قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما تعدون اهل بدر فيكم ؟ قال من افضل المسلمين او كلمة نحوها قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة .

وقال ابن كثير روى الامام ابو جعفر ومسلم من حديث عكرمة بن عمار عن ابي زميل سماك بن وليد الحنفي قال حدثنا عبد الله بن عباس قال بينا رجل من المسلمين يشتد في اثر رجل من المشركين امامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم (١) فنظر المشرك امامه فخر مستلقيا فنظر اليه فاذا هو قد خطم انفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك اجمع فجاء الانصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « صدقت ذلك من مداد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

ولم يشر صاحب المنار الى هذين الحديثين وفي اسناد حديث مسلم عكرمة بن عمار قالوا عنه ابن حجر صدوق يغلط روى له البخاري تعليقا ومسلم وأصحاب السنن جميعا وأبو زميل قال ابن حجر ليس به بأس روى له البخاري في الأدب المفرد ومسلم وأصحاب السنن جميعا فالحديث في درجة الحسن .

قال تعالى : « وما النصر الا من عند الله »

قال صاحب فتح البيان النصر من عند الله لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليست الملائكة الا سبباً من اسباب النصر التي سببها الله

(١) : اقدم كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم وحيزوم اسم فرس الملك .

وامدكم بها وفيه تنبيه على ان الواجب على المسلم ألا يتوكل إلا على الله في جميع احواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والإعانة .

ويقول صاحب الظلال عليه رحمة الله : ( انها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشئته وتدبيره وقدره ، وتسير بجند الله وتوجيهه ) .

وهكذا يربى المؤمن على ان لا يرى قوة الى جانب قوة الله ولا ارادة الى جانب ارادته فهو الفعال وحده واليه يرد الأمر كله .

وهكذا تحذر الآيات الكريمة ان يظن ان الملائكة تملك امرا او تقدم نصرا إنها بكل ما أوتيت من قوة إنما تفعل بأمر الله وتسير بإرادة الله .

وهذا هو التوحيد الخالص والايان المحض ان يقطع المؤمن رجاءه من المال والأهل والولد والجاه والسلطان بل يقطع رجاءه من نفسه ايضا ويعتقد انه لا يملك حولا ولا ظولاً ولا قوة الا باذن الله وامره .

## دعوة باطلة

ولقد وجد اناس في الأيام الأخيرة في بلاد الضلال يدعون هذا الانسان الى الايمان بنفسه كيلا يرى في هذا الكون عقبة تقف في وجهه وكيلا يرى في الكون قوة فوق قوته وكيلا يجد نفسه مكبلا بإرادة من الإرادات وذلك ان ايمانه بقوة فوق قوته تحد من طاقته وتضعف من قوته وتحول بينه وبين الانطلاق الذي لا يعرف حدا ولا قيда .

ولقد انبثقت هذه الدعوة من فيلسوف ألماني عاش في نهاية القرن الماضي من عام ١٨٤٤م الى ١٩٠٠م وكان ابن قس وحفيد قس واراد ان يصير قسيسا فكان في اول امره مستمسكا بالدين ثم خرج على الدين والأخلاق وصار علما من اعلام الكفر ذلك هو نيتشه الذي كان يعرض فلسفته على انها رسالة ووحى وكان يرمي الى تعليم الانسان كيف يكتشف نفسه فيجد فيها ارادة القوة غاية بذاتها وينكر القيم الاخلاقية كما ينكر العالم الأخروي و يزعم ان المعاني الأخلاقية اوجدها أناس ليحتفظوا بسيادتهم على جمهور المساكين .

وهذا الذي يدعو الانسان الى الايمان بقوته عوجل بعقوبته في الدنيا قبل الآخرة فلقد

عاش ستا وخمسين عاماً هدمته الأمراض فيها وهو في عنفوان شبابه وظل عشر سنوات يشكو العلل فاضطر الى الانقطاع عن التدريس وهو في سن الخامسة والثلاثين ثم انتهى به المرض إلى الشلل التام والجنون وظل على هذه الحال عشر سنوات أخرى حتى وافاه اجله .

وما كنت لأضيع الوقت بذكره لولا أن بلادا اسلامية في مثل هذه الأيام تتبنى مثل هذه الفلسفة رسمياً وتربي الأجيال عليها تربى ابناء المسلمين على الكفر بمبادئهم والتنكر لأيامهم الزاهية .

لقد نشرت مجلة رسمية في بلد اسلامي مقالا جاء فيه :

« استنجدت امة العرب بالاله ... فتشت عن القيم القديمة في الاسلام والمسيحية استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى كل ذلك لم يجدي فتيلاً .

الى ان يقول : ان ضالته الانسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه التي هي ليست الا وليدة الإقطاع والرأسمال والاستعمار... تلك القيم التي جعلت من الانسان العربي انسانا متخاذلاً متوكلاً انسانا جبرياً مستسلماً للقدر لا يعرف الا ان يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

كتب هذا المقال منذ سنوات قريه وقد يحسب العاقل انها رعونة قامت في رأس صاحبها وطواها الزمن ولكن اصحاب الباطل ما يزالون يعملون « ليطفثوا نور الله ويأبى الله إلا ان يتم نوره » ما يزال اصحاب الباطل جادين في وسائلهم ومن وسائلهم الجديدة إصدار مجلات للأطفال تبدو بمظهر تربية الأطفال وتوجيههم تدس فيها المعاني التي تهدم القلوب يتحدث فيها أصحابها عن نشأة هذا الانسان والأدوار التي مر بها في جذور التاريخ البعيدة ويلقنون الناشئة النظرية التي تزعم أن هذا الانسان خلق من غير خالق ، وصاحب المقال السابق ينطلق من هذه البداية فأول ما جاء في كلامه ما يلي : الانسان كوحدة فيزيولوجية يتجدد كل ثانية بل كل لحظة ولن اخوض هنا في معركة أصل الانسان .. بل لا يهمني كليا تأكيد العلم أن نقطة انطلاق الانسان كانت الخلية الحيوانية الدقيقة ومن ثم تطور وارتقى عبر العصور الى ان اصبح بتكوينه الحالي .



أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ... أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون .

لست ألوهم هؤلاء الذين خربت عقولهم ومرضت قلوبهم ولكني أجد مر الأسى أنني واخواني لا نستطيع أن نقدم هؤلاء مثال الرجل المؤمن في انتظاره للحق وذوده عن حماه وفي شجاعته واقدامه في سبيله وفي انصبابه على الشدائد ومواجهته لعظام الأمور وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله « وما النصر الا من عند الله ... » « اذ يغشيكم النعاس أمانة منه »

ومن منته تعالى على المؤمنين لقاؤه النعاس عليهم حتى غشيم أي غلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء وتغطيه .

قال أبو جعفر يغشيكم النعاس يلقي عليكم النعاس وقوله تعالى أمانة أي أماناً من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم .

والنعاس أول النوم وهو أن يحتاج الانسان الى النوم فاذا ثقل النعاس كان وسناً فاذا خالط النعاس العين فهو ترنيق وبعده الكرى والغمض وهو أن يكون الانسان بين النائم واليقظان وبعده العفق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم وبعده المجوع والنعاس اسم مصدر لنعس من باب فتح .

يقول ابن كثير :

وقال الحافظ ابو يعلى حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن ابي اسحاق عن حارثة بن مراجع بن كثير عن علي رضي الله عنه قال : ( ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا الا نائم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ويكي حتى أصبح ) والإسناد السابق رجاله ثقات كلهم .

يقول السيد رشيد: وظاهر عبارة علي رضي الله عنه انهم ناموا في الليل والمتبادران نعاسهم كان في اثناء القتال ولكن السيد رشيد يرجح تبعاً لشيخه الإمام محمد عبده أن النعاس في بدر كان ليلة القتال وذلك الذي يؤخذ من ظاهر قول علي رضي الله عنه .

يقول السيد رشيد نقلاً عن الامام محمد عبده : وقد مضت سنة الله في الخلق بأن من

يتوقع في صبيحة ليلة هولا كبيرا ومصابا عظيما فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه وبيت بليلة المسوع فيصبح خاملاً ضعيفا وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشا يزيد عن عددهم ثلاثة اضعاف سيحاربهم غدا وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة فكان من مقتضى العادة ان يناموا على بساط الأرق ويفكروا بما سيلاقون في غدهم من الشدة واليأس ولكن الله رحمهم بما انزل عليهم من النعاس غشيم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده واصبحوا على همة ونشاط في لقاء عدوهم وعدوه فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها ، ومثله المطر الذي أنزل عليهم عند شدة حاجتهم ليه وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكرتهم بعناية الله بهم .

وقال ابن كثير قال سفيان الثوري عن عاصم عن ابي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان .

ثم يقول : والآية الشريفة انما هي في سياق بدر وهي دالة على وقوع ذلك ايضا وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة اليأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى : « فإن مع العسر يسرا »

والذي يبدو ان الأصحاب رضوان الله عليهم بعد المؤتمر الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشورة التي أقامها وبعد كلام ابي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ ثابت القلوب ورجعت الطمأنينة ، وحين علم الأصحاب ان رغبة رسول الله في السير للقاء المشركين وحين اعلن عليه صلوات الله ان الله وعده لإحدى الطائفتين حين قال سيروا وأبشروا ان الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنني انظر الى مصارع القوم انقطع دابر التردد وحلت الغزيمة وكان الإقدام وساروا جميعا موقنين بأن النصر معهم وقد اسلموا نفوسهم للذي برأهم وفوضوا أمورهم الى الذي يحسن تدبيرها ، وهناك ثابت النفوس واستقرت القلوب .

### الهدوء في ساعات الشدة

والآية الكريمة ترشد الى معنى جليل قد لا يقدره المرء قدره ، الهدوء في ساعات الشدائد التي يخشى أن تذهب بالأنفس والطمأنينة إلى قدر الله .

هذا الهدوء الذي يقترن بعدم المبالاة بالأخطار لأن الأخطار يملكها من بيده ناصية

كل شيء ولأن الأمور تفوض إليه جل شأنه ولا يأتي من قبله إلا الخير والرحمة هذا الهدوء يكسب المرء رباطة جأش وتصرفاً عن وعي وانتباه ومهارة في حين يفرغ الناس حتى يكاد الفرع يقتلهم فيضطربون في أمورهم .

وليس مثل هذا الهدوء وهذه السكينة لغير المؤمنين .

قال تعالى : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

ارتحل عليه الصلاة والسلام بعد المؤتمر الذي اقامه في وادي ذفران وهو قريب من الصفراء على مسافة تقرب من اربعين ميلاً من المدينة وسار عليه صلوات الله وسلامه حتى نزل قريبا من بدر ونزلت قر يش بالعدوة القصوى والعدوة جانب الوادي وحافته والقصوى أي البعدى من المدينة ونزل المسلمون على كتيب اعفر<sup>(١)</sup> تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون الى ماء بدر فأحرزوا وحفروا القلب لأنفسهم<sup>(٢)</sup> واصبح المسلمون بعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم الظمأ وهم لا يصون إلى الماء لسبق المشركين اليه ووسوس الشيطان لبعضهم وقال تزعمون انكم على الحق وفيكم نبي الله وتزعمون أنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وانتم عطاش وتصلون محدثين مجنبيين ولم تكن آية التيمم نزلت فأرسل الله عليهم مطرا سال منه الوادي فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب<sup>(٣)</sup> وملئوا الأسقية وأطفأ المطر الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت نفوسهم .

يقول ابن القيم عليه رحمة الله : وانزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين وابلاً شديداً منهم من التقدم وكان على المسلمين طلاً طهرهم به وذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه .

وروى ابن جرير بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنها قال نزل النبي صلى

(١) : رمل مجتمع احمر او ابيض ليس بالشديد .

(٢) : القلب جمع قلب البئر قبل ان تبني بالحجارة ونحوها .

(٣) : الركاب الابل التي يسار عليها واحدها راحلة ولا واحد لها من لفظها .

لأنه عليه وسلم يعني حين سار الى بدر والمسلمين بينهم وبين الماء رملة دعصة (١) فأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس بينهم تزعمون انكم اولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وانتم تصلون مجنين ، فأمر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا واذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا الى القوم وأمد الله نبيه بألف من الملائكة فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة .

يقول صاحب تفسير المنار « ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لأنهم كانوا رجالة ليس فيهم الا فارس واحد هو المقداد وكانت الأرض دهاسا تسيخ فيها الأقدام ولا تثبت عليها .

قال ابن اسحاق فخرج صلى الله عليه وسلم ييادهم الى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله هذا منزل انزلك الله لا تتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة قال فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فنزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نسيني عليه حوضاً فتملؤه ماء فنشرب ولا يشربون فقال صلى الله عليه وسلم أشرت بالرأي (٢) .

قال رشيد رضا : ذكر تعالى لذلك المطر اربع منافع الأولى تطهيرهم به تطهيراً حسياً بالنظافة التي تشرح الصدر وتنشط الأعضاء في كل عمل وشرعياً بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر الثانية إذهاب رجز الشيطان والرجز والرجس والركس كلها بمعنى وهو الشيء المستقذر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسة الشيطان كما تقدم في الأثر الذى أورده ابن جرير الثالثة الربط على القلوب وهو تعبير عن تشبيهاً وتوطئتها على الصبر الرابعة تشييت الأقدام فإن من كان يعلم أنه يقاتل في أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك

(١) جاء في اللسان للدعص جبل صغير من الرمل مجتمع والطائفة منه دعصة .

(٢) يروى هذا الحديث ابن اسحاق يقول فحدثت عن رجال من بنى سلمة . يقول ناصر الدين الألباني وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن اسحاق والرجال من بنى سلمة والحديث يورده ابن حجر في الإصابة في ترجمة الحباب بن المنذر وقد ذكر الواسطة في السند الذى أورده يقول : قال ابن اسحاق في السيرة حدثنى يزيد بن رومان عن عمرو وغير واحد في قضية بدر ، فذكر قول الحباب ، وهذا يزول ضعف السند الذى ذكره .

وهو قد يقاتل فارساً لا رجلاً لا يكون الا رجلاً مضطرب القلب .

قَالَ تَعَالَى : « اذ يوحى ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

يقول ابن كثير عليه الرحمة : هذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى للمؤمنين ليشكروه تعالى عليها وهو انه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى الى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين أوحى اليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن اسحاق أي آزرهم وقال غيره قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم حكاية ابن جرير .

وارتباط الآية الكريمة بما قبلها أنها من جملة المنن التي وقعت في بدر يذكر الله بها عباده المؤمنين يقول لهم تباركت أسماؤه اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم إذ تستغيثون ربكم واذكروا إذ يغشيكم النعاس أمنة منه واذكروا إذ يوحى جل شأنه الى الملائكة اني معكم وجعل صاحب فتح البيان التذكير الأخير لمحمد عليه الصلاة والسلام معنى الآية ذاكريا محمد وقت ايجاء ربك الى الملائكة اني معكم و بين علة ذلك بقوله : (لأنه لا يقف على ذلك سواه) ، يعني أن الأصحاب رضوان الله عليهم ما عملوا حين القتال بما أوحى الله تباركت أسماؤه إلى الملائكة وقد علم بذلك رسول الله فالتذكير انما يكون له عليه صلوات الله وسلامه وهذا التذكير علم أصحابه رضوان الله عليهم بنعمة الله على رسوله وعليهم .

ويذهب السيد رشيد رضا الى ان الآية الكريمة مرتبطة بالآية التي قبلها يعني بتثبيت الأقدام يقول والمعنى انه يثبت الأقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحى ربك فيه الى الملائكة أمراً لهم ان يثبتوا الذين آمنوا .

فتثبيت الأقدام كان في المعركة حين أوحى الله الى الملائكة بتثبيت الذين آمنوا والذي ذهب اليه المفسرون الآخرون عدم التقييد والتبادر أن الله ذكر المؤمنين بإنزال المطر وما كان له من نتائج في غلبتهم على عدوهم ومنها تثبيت اقدامهم ساعة القتال ثم

ذكرهم جل شأنه بإمدادهم بالملائكة . والمعنى الذى يريد به السيد رشيد لا يتم على هذا الوجه وقد قال صاحب فتح البيان (وقيل يثبت الأقدام وقت الوحي وليس لهذا التقييد معنى) .

وقوله تعالى الى الملائكة قالوا أي الملائكة الذين سبق ذكرهم بقوله تعالى « اني مدمكم بألف من الملائكة » وقوله تعالى « اني معكم » هذا هو الموحى به الى الملائكة واكثر المفسرين على ان الموحى به من قوله تعالى ( اني معكم الى قوله تعالى كل بنان ) .

وخالف في هذا صاحب تفسير المنار ليم له رايه الذي سبق بأن الملائكة لم تقاتل فهو يقول : مقتضى السياق أن وحي الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن امداد الملائكة ( وما جعله الله إلا بشري )

يقول : وقوله تعالى « سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب » بدء كلام خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تنمة للبشرى فيكون الأمر بالضرب موجها الى المؤمنين قطعاً وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر .

ويذهب ابن جرير في تفسيره الى ما يؤيد ما قاله صاحب تفسير المنار يقول القول في تأويل قوله « سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

يقول تعالى ذكره سأرعب قلوب الذين كفروا بي ، ايها المؤمنون ، منكم واملؤها فرقاً حتى يهزموا عنكم . الى ان يقول : ان الله امر المؤمنين ، فعلمهم كيفية قتل المشركين وضرهم بالسيف ان يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل .

ويؤخذ من كلام ابن كثير انه يرى ان قوله تعالى ( ثبتوا ) خطاب للملائكة و يلحق بذلك قوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق .

يقول عليه الرحمة ثبتوا انتم المؤمنون وقوا انفسهم على اعدائهم عن امري لكم بذلك سألقى الرعب والذلة والصفار على من خالف امري وكذب رسولي فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان أى اضربوا الهام ففلقوها واحتزوا الرقاب فقطعوها وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم .

والذي قيل اليه الأخذ برأي جمهور المفسرين من أن الأمر بضرب فوق الأعناق داخل فيما أوحى الله به الى الملائكة ذلك هو المتبادر من الآيات الكريمة وما ذهب اليه صاحب تفسير المنار يحتاج الى تكلف غير يسير والأخذ المتبادر والبعد عن التكلف هو الأولى .

قال تعالى « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » .

امر الله تباركت اسماؤه في الآية السابقة بأن يضرب الذين كفروا فوق الأعناق أي يضربوا في المكان الذي هو فوق الأعناق وذلك هو الرأس او يضربوا فوق الأعناق نفسها اي على الأعناق لتفلق هاماتهم وتحترق ارجلهم وامر جل شأنه بأن يضرب منهم كل بنان .

قال في اللسان : والبنان الأصابع وقيل اطرافها واحدها بنانة وقال قوله عز وجل فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان قال ابو اسحاق البندن ههنا جميع اعضاء البدن وقال الليث اطراف الأصابع من اليدين والرجلين قال والبنان في كتاب الله وهي الأيدي والأرجل وهذا الذي اختاره ابن كثير قال وقطعوا اطرافاً منهم وهي أيديهم وأرجلهم . وكل هذا بعد ان وعد جل شأنه بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا والرعب هو الخوف الذي يملأ القلوب ومادة رعب تفيد الملء يقال رعب السيل الوادي أي ملاء وهي تفيد القطع أيضاً ولذا فسر الراغب الخوف بالانقطاع من امتلاء الخوف .

وهكذا جزاء الذين كفروا أن تضرب هامهم وتقطع أطرافهم وهذا الوصف يملأ المؤمن شدة على الكافرين وهذا وصف الله المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم وقد فارقت هذه المعاني قلوب المؤمنين في الأيام المتأخرة وازداد أهل الكفر ضراوة على المؤمنين ونزع الله مهابتهم من قلوبهم .

والاسلام يعرف المسلمين بالسبيل الأقوم ففي النزاع بين الحق والباطل يجب ان يجد البطل شدة وطأة الحق ليدعن له شاء أم أبى فإن لم يفعل فالباطل عدوته ان يجتث شجرة الخير في أصولها والاسلام يريد من أتباعه أن يعرضوا أنفسهم للابتلاء ولتقن أعداء الاسلام وكيدهم وشدهم وعداوتهم متوكلين على الله واتقين بنصره ويخذره أشد تحذير أن يوثروا العافية ويخدوا للراحة والدعة والشريستشري ويستفحل أمره .

قال تعالى « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله » والمشاقة والشقاق غلبة العداوة والخلاف ، وشاقه : خالفه ، وقال الزجاج الشقاق : العداوة بين فريقين والخلاف بين اثنين سمي ذلك شقاقاً لأن كل فريق قد اتخذ شقاً أي ناحية غير شق صاحبه .

فهؤلاء الذين استحقوا فلق الهام واحتراز الرقاب وقطع الأطراف إنما استحقوا ذلك بتصریح القرآن بسبب غلبة العداوة على قلوبهم لله ولرسوله فلا يأمر الله ورسوله بسبيل الا ويسلكون سبيلاً مخالفة معادية .

لقد وجد هؤلاء ليبتلي الله بهم المؤمنين واقتضت حكمته جل شأنه ان يذيق هؤلاء الكفرة المؤمنين أنواع البأس والوان العذاب ليقابل المؤمنون بأسهم ببأس اشد وليواجهوا عنادهم وكفرهم واستمساکهم بباطلهم بصبر يغلب عنادهم وثبات على الايمان يزعزع باطلهم و يصدع قلوبهم .

هذه تعاليم الاسلام واضحة جلية من شاق الله ورسوله فليس له إلا أن يضرب فوق الرقاب و يضرب منه كل بنان فلا هوادة ولا ملاينة بعد أن يبدي الباطل ناجذيه و يكشر الشر عن أنيابه .

ومتى وجد الباطل وجد مسلحاً بأسلحة الشر كلها جامحاً شديداً مستكبراً طاغياً لا يقر ولا يستقر وقد علمنا القرآن الكريم أن نقطع دابره ونعفي على اثره فان لم نفعل فلننتظر شراً كبيراً وبلاءً مستطيراً .

قال تعالى « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » قال ابن كثير هو الطالب جل شأنه الغالب لمن خالفه وناواه لا يفوته شيء ولا يقوم لفضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه .

ولا يقال للمسلمين اليوم في مجتمعاتهم إنهم ليسوا مشاقين لله ورسوله ذلك أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات الاسلامية من ضرب أو ضروب من الجاهلية التي تتابع جاهلية المدتبية الغربية وتنافي الاسلام وتعارض مبادئه وقواعده وأسسها ، وأفراد ذلك المجتمع راضون ساكتون لا يبذلون جهداً في تغيير منكر ولا يقدمون في سبيل ذلك عز يزا .

وهذه الخاتمة التي ختمت بها الآية الكريمة أعني قوله تعالى « ومن يشاقق الله



ورسوله فإن الله شديد العقاب» لظنين قلوب المؤمنين وثبتت فندتهم في صراعهم مع الباطل وأهله فهم يعملون في مرضاة الله والله معهم وأهل الباطل يعملون فيما يغضب الله والله منزل عليهم عقابه يحل بهم سخطه . يقول سيد قطب عليه رحمة الله : ( قاعدة وسنة لا فلتة ولا مصادفة ، قاعدة وسنة أنه حينما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده وإقامة منهج الله وحده ثم وقف منها عدوها موقف المشقة لله ورسوله . كان التشبث والنصر للعصبة المسلمة وكان الرعب والهزيمة للذين يشاققون الله ورسوله ما استقامت العصبة على الطريق واطمأنت إلى ربها وتوكلت عليه وحده ) .

ومن الأمثلة التي شاهدها المؤمنون ما وقع لمشركي قريش في بدر، وخطب الله حين شأنه المشركين في هذه المناسبة فيقول لهم في كتابه المنزل « ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار» والمعنى العقاب ذلكم ، والأمر ذلكم الذي وقع بكم وشاهدتموه وقوله تعالى فذوقوه كلام مستأنف لزيادة إيلاهم وتبكيهم وقوله تعالى ( وان للكافرين عذاب النار) معطوف على ذلكم فالمعنى العقاب ذلكم الذي عجل لكم في الدنيا والعقاب إن لكم أيضا أيها الكافرون عذاب النار، فبعد أن ذكر الله جل شأنه انه شديد العقاب بين لهم مثلا من العقاب في الدنيا وأعلمهم بأنه مشعوب بعقاب آخر في الآخرة . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفوا فلا تولوهم الأدبار» .

### لا فرار يوم الزحف

الزحف مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دب على مقعده كالصبي أو على ركبتيه . والمشي بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف الدبب وهي صغار الجراد قبل طيرانها وزحف العسكر الى العدو مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم والزحف الجيش ونجم على زحوف .

والأدبار جمع دبر وهو الخلف ومقابلة القبل وهو القدام ولذلك يكنى بالقبل والدبر من السوءتين وتولية الدبر والأدبار كناية عن الهزيمة . قال ابن كثير : يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا » أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم متزحفا بعضكم الى بعض فلا تولوهم الأدبار قال ابن جرير : فلا تفروا وتتركوا أصحابكم .

و يقول صاحب تفسير المنار: اذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم ( كما كان الحال في غزوة بدر فإن الكفار هم الذين زحفوا من مكة الى المدينة لقتال المؤمنين فشققوهم في بدر) إذا لقيتموهم زاحفين لقتالكم زحفا فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عددا وعدداً. واذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى ولفظ لقيتموهم زحفا يصلح للأحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التي نزلت فيها الآية .

والآية الكريمة توحى بأسئلة عدة أولها ارتباط الآية بما سبقها ومكانها في السورة الكريمة .

والثاني الأحكام الفقهية التي تؤخذ من الآية الكريمة والثالث ما هو موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة .

وللإجابة عن السؤال الأول نقول :

عوقب الأصحاب على سؤالهم عن الأنفال في مطلع السورة ووجهوا ذلك التوجيه الرائع الذي تبوؤ مراتب الايمان الرفيعة ثم عوتبوا على كراهية فريق منهم للقتال وجدالهم رسول الله في شأنه وهو حق أراد الله ثم ذكروا بنعم الله عليهم الجسيمة تذكيراً يعيد الى الذهن ما وقع من المؤمنين قبل المعركة من رغبتهم في الغلبة على العير وإرادة الله جل شأنه أمراً جليلاً يمهّد للقضاء على الكفر وإخماد أنفاسه ذكروا باستغاثتهم بهم وذكروا بما غشي قلوبهم من هدوء وطمأنينة وبما ألقى عليهم من النعاس وذكروا بالمطر الذي أنعش قلوبهم وطمأن نفوسهم وطهر أجسادهم وثبت أقدامهم وأذهب عنهم رجس الشيطان وذكروا بأن الله أوحى الى الملائكة بأنه جل شأنه معهم في نصرة المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وماذا يكون بعد إمداد الله المؤمنين بالملائكة وأمرهم جل شأنه بضرب الكافرين فوق الرقاب وضرب كل بنان كان من بعد ذلك ايمان المؤمنين ايماناً مبنياً على ما جربوه وشاهدوه بأن الله معهم في جهادهم للكافرين وبأن الله ناصرهم في كل موقعة يتصدون فيها لإنزال العذاب بالمجرمين وما هي النتيجة التي تترتب على ذلك ؟ يترتب على ذلك أن يتقدم المؤمنون لملاقاة أعداء الله غير هيايين ولا وجلين ولو كان الأعداء زاحفين زحفا الجراد .

هذه النتيجة هي النتيجة الحتمية للتجربة الواقعية التي تمت صيغت ببناء موجه

للمؤمنين يعطي حكماً شرعياً و يضع قاعدة فقهية ليس للمؤمن أن يفر من الزحف وليس له أن يفر من لقاء العدو .

ولقد جاء الحكم مدعماً بأدلته التي تؤيده وتبين أسبابه ليس للمؤمن أن يفر من لقاء العدو لأن هذا الفرار جبن لا يتصف به المؤمن ولأنه خوف من لقاء العدو وحرص على الحياة وجزع من الموت وضعف ثقة بالله وبنصره ، كل ذلك انطوت عليه الآيات السابقة التي مهدت لهذا الحكم الجليل الذي يجعل التولي يوم الزحف مما يتوعد به الله المؤمن بأنه يئوه بغضب الله ومأواه جهنم .

إذا كان الله مع المؤمنين وهو ناصرهم ومؤيدهم فكيف يخالفون عن أمره وكيف يضنون بأرواحهم في سبيله .

وقد أعقب هذا النداء نداءات أربع تؤيد معناه وتدعم غايته ثم دُكر المؤمنون بما كانوا عليه من قبل من قلة وضعف فأواهم جل شأنه وأيدهم ونصر قضيتهم ونمى دعوتهم وذكروا أيضاً بما كان عليه المشركون من قبل من شدة على المؤمنين ومكرهم بهم وبرسول الله وقد أخزاهم الله اليوم في بدر وأذمهم وكل هذا يؤيد قضية واحدة هي أن يكون المؤمن في امتثال مرضاة الله ولن يضيعه الله ولن يخذله .

وتعود الآيات ثمانية إلى الغنائم وإلى الموقعة و يعود النداء ثانية بعد ذكر الموقعة إلى القضية الهامة وإلى المسألة التي كأنها غرض السورة كلها .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »  
و يعود السياق إلى المشركين وكفرهم واخذ الله إياهم بذنوبهم وتذكر خيانتهم وينادي بالمؤمنين ثالثة ان يعدوا العدة لمقابلتهم وخضد شوكتهم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »

و يتخلل ذلك قواعد حربية تتعلق بالسلم وبالأسرى والتحرىض على القتال وقوة المؤمنين في مقابلة المشركين وتحمم السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض ومن هذا الاستعراض يمكن ان تدرك أن الآية التي نحن بصدددها هي محور البحث وهي الغرض الرئيسي في السورة كلها .

قال تعالى « ومن يومهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »

المتحرف للقتال هو المنحرف من جانب الى آخر وأصله من الحرف وهو الطرف وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج .  
والمتحيز في معناه وهو المنتقل من حيز إلى آخر والحيز المكان وأصل مادته بالواو والحوز المكان يبنى حوله حائط .

وانحاز عن القوم اعتزلهم وانحاز اليهم وتحيز انضم والفئة الطائفة من الناس والمأوى الملجأ الذي يأوي اليه الانسان وينضم .

وقوله تعالى الا متحرفا لقتال أي متحرفا لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج الى القتال فيه أو متحرفا لضرب من ضروب القتال رآه أبلغ في النكاية بالعدو .

وقوله تعالى أو متحيزا الى فئة أي متنقلا الى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدوتكائر جمعهم عليهم فصاروا أحوج اليه ممن كان في حيزهم .

وقوله تعالى فقد باء بغضب الله أي فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه .

ومأواه جهنم وبئس المصير ومأواه الذي يلجأ اليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم كأن المنهزم أراد ان يأوي الى مكان يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التي يصير إليها دار الهلاك والعذاب الدائم أي جوزي بضد غرضه من معصية الفرار .

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي وقد جاء التصريح بذلك في احاديث أصحابها عن ابي هريرة مرفوعاً عند الشيخين « اجتنبوا السبع الموبقات ( اي المهلكات ) قالوا يارسول الله وما هن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتسولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات » .

يقول ابن جرير :

واختلف أهل العلم في حكم الله عز وجل « ومن يومهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم » أهو خاص في أهل بدر أم هو في

المؤمنين جميعا؟ فقال قوم هو لأهل بدر خاصة لأنه لم يكن لهم ان يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدوه و ينهزموا عنه فأما اليوم فلهم الانهزام و يروي ابن جرير بإسناده عن ابي نضرة في قول الله عز وجل ومن يولهم يومئذ دبره قال ذلك يوم بدر ولم يكن لهم أن ينحازوا ولو انحاز أحد لم ينحز إلا الى المشركين .

يقول ابن جرير وقال آخرون بئله هذه الآية حكمها عام في كل من ولى الدبر عن العدو منهزما و يروي ابن جرير بسنده عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قال اكبر الكبائر الشرك بالله ، والفرار من الزحف لأن الله عز وجل يقول : « ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم » .

قال ابو جعفر وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قول من قال حكمها محكم وأنها نزلت في أهل بدر وحكمها ثابت في جميع المؤمنين وان الله حرم على المؤمنين اذا لفقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتجرف لقتال او لتحيز الى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الاسلام ، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بها فقد استوجب من الله وعيده إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

يقول : وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ ، وله في غير النسخ وجه إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر يقطع العذر أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله عز وجل « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب الله »

### قول ابن العربي

و يقول ابن العربي في احكام القرآن :

اختلف الناس في الفرار يوم الزحف مخصوص هو بيوم بدر أم عام في الزحف كلها الى يوم القيامة ؟

فروي عن ابي سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله وبه قال نافع والحسن وقتادة و يزيد بن حبيب والضحاك و يروي عن ابن عباس وسائر العلماء أن

الآية باقية الى يوم القيامة وانما شذ من شذ بقوله تعالى « ومن يومهم يومئذ دبره فظن قوم أن ذلك اشارة الى يوم بدر وليس به وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ان الكباثر كذا ... وعد الفرار يوم الزحف ، وهذا نص في المسألة يرفع الخلاف و يبين الحكم .

والقول الذي لا يحتمل الخلاف في نظرنا ما ذهب اليه ابن جرير وابن العربي وما نقلاه عن ابن عباس وسائر العلماء بأن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة الآثار التي يترتب عليها ولمساسة بأصل الاعتقاد ولذا كان في التعبير القرآني شدة في التحذير وتغليظ في العقوبة ، وتهديد بغضب من الله وإيواء في السعير .

قال القاسمي في تفسيره : ( دلت الآية الكريمة على وجوب مصابرة العدو والثبات عند القتال وتحريم الفرار من العدو يوم الزحف وعلى أن الفرار من الكباثر لأنه توعد عليه وعيدا شديدا ) وإلى أن يقول : ( والآية الكريمة تفيد العموم بمعنى أن النهي فيها يشمل المؤمنين في كل زمان وعلى كل حال إلا في الحالتين اللتين استثنتها الآية الكريمة . وهذا القول مروى عن ابن عباس وعليه أكثر الفقهاء ) .

وأراد قوم تخصيص حكم الآية في بعض الأحوال دون بعض ورووا عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى ( الآن خفف الله عنكم ) وهذا ليس لأن النسخ هو رفع الحكم بدليل شرعي والذي ذهب إليه عطاء ليس رفعا للحكم الوارد في الآية الكريمة ولكنه تخصيص له في حال معينة وهي إذا كان عدد الكافرين لا يزيد عن ضعفي عدد المسلمين فإذا زاد فالمقاتلون في مثل هذه الحال لا يدخلون في الوعيد الذي جاء في الآية الكريمة إذا لم يشبثوا أمام الأعداء وذلك مأخوذ من قوله تعالى ( الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ... الخ ) .

حرّمت الآية الكريمة الفرار ولم تحدد عددا فيؤخذ منها تحريم الفرار على المؤمنين حين مقابلة المشركين مهما كان عدد هؤلاء وآية التخفيف في السورة نفسها حددت عددا فيحمل المطلق على المقيّد والعام على الخاص وليس هذا نسخا وان سماه بعض السلف بذلك .

قال القاسمي : قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضى بوجوب المصابرة على المؤمنين وإن تضاعف عدد المشركين أضعافا كثيرة ثم قال تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا » فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة لأنه خير معناه الأمر فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى وأوجب على الواحد مصابرة الاثنین فقال تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين » .

قال الشافعي رحمه الله : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لما أوجب لهم أن يولوا. ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة .

وروى الشافعي وابن ابي شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفرو ومن فر من اثنين فقد فر .

وفي المذهب : إن زاد عدد العدو على مثلي عدد المسلمين جاز الفرار لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون فالأفضل الثبات وإن ظنوا الهلاك فوجهان: أولهما يلزم الانصراف لقوله تعالى ( ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ) والثاني يستحب ولا يجب لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين فالأصح في المذهب أنه لا يجوز الفرار حتى ولو ظن المسلمون الهلاك أخذًا بظاهر الآية الكريمة .

ويقول الجصاص ( ١ ) بأن محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ذكر أن الجيش إذا بلغوا اثني عشر ألفا فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثرت عددهم . يقول: ولم يذكر خلاف بين أصحابنا فيه يعني الحنفية واحتج الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يوتى اثنا عشر ألفاً من قلة ولن يغلب وفي بعضها ما غلب قوم يبلغون إثني عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم .

وذكر الطحاوي أن مالكا سئل فقيل له أيسعنا التخلف من قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها فقال له مالك إن كان معك إثنا عشر ألفاً مثلك لم يسعك

(١) : في احكام القرآن ج ٣ ص ٦٠ .

التخلف والا فأنت في سعة من التخلف وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن والذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثني عشر الفا فهو أصل في هذا الباب وإن كثرة عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعت كلمتهم وقد اوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم (١) .

يتصل بالحكم الفقهي الذي يؤخذ من الآية الكريمة تحديد معنى التحرف والتحيز وقد أضيف التحرف للقتال وأضيف التحيز إلى فئة فكان في الفئة التي ينحاز إليها المقاتل بعض خلاف .

قال صاحب المغني ابن قسدا عليه رحمة الله : (٢) .

معنى التحرف للقتال أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس أو الريح إلى استدبارهما أو من نزلة إلى علو أو من معطشة إلى موضع ماء أو يفر بين أيديهم لتنتفض صفوفهم أو تنفرد خيلهم من رجالهم أو ليجد فيهم فرصة أو ليستند إلى جبل ونحو ذلك مما جرت به عادة أهل الحرب وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يوما في خطبته إذ قال: ياسارية بن زينم الجبل . ظلم الذئب من استرعاه الغنم فأنكرها الناس فقال علي رضي الله عنه دعوه فلما نزل سألوه عما قال فلم يعترف به ،

(١) : الحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عباس ورمز له السيوطي بالصحة وقال الترمذي حسن غريب ولم يحكم عليه بالصحة لأنه يروى مسندا ومرسلا ومعضلا قال ابن القطان لكن هذا ليس بعله فالأقرب صحته .

وقال الحاكم في المستدرک (ج ٣ ص ١٠١) : هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لخلاف بين الناقلين فيه عن الزهري واقره الذهبي على ذلك .

وأخرجه الترمذي (ج ٥ ص ١٦٦) وقال حسن غريب لا يسنده كبير احد غير جرير بن حازم وإنما روى هذا الحديث عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا وقد رواه حبان بن علي العنزي عن عقيل عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الليث ابن سعد عن عقيل عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا .

وبعد هذا فميل إلى الحكم بالضعف على الحديث لأنه مرسل على رواية الثقات الأعلام والذين روه متصلا لا يخلو حالهم من ضعف فجرير بن حازم يقول فيه ابن حجر ثقة وله اوهام وحبان بن علي العنزي ضعيف ، والحكم الفقهي الذي يؤخذ من الحديث ليس حكما مقطوعا به بل هو مكان للنظر .

(٢) : ج ٩ ص ٣٠٨ .



وكان قد بعث سارية إلى ناحية العراق لغزوهم فلما قدم ذلك الجيش أخبروا أنهم لقوا عدوهم يوم الجمعة فظهروا عليهم فسمعوا صوت عمر فتحيزوا إلى الجبل فنجوا من عدوهم فانتصروا عليهم . (١) .

قال ابن قدامة : وأما التحيز إلى فئة أن يصير إلى فئة من المسلمين ليكون معهم فيقوى بهم على عدوهم سواء بعدت المسافة أم قربت .

قال القاضي : لو كانت الفئة بخراسان والفئة بالحجاز جاز التحيز إليها ونحوه ذكر الشافعي لأن ابن عمر روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني فئة لكم وكانوا بمكان بعيد منه وقال عمر إنا فئة كل مسلم وكان بالمدينة وجيوشه بمصر والشام والعراق وخراسان (٢) .

وقد ذهب كثير من العلماء أن لمقاتل أن يدع فئته المقاتلة و يلتحق بفئة أخرى بعيدة أو قريبة وله أيضاً أن يلحق بإمامه ، ولقد نقلنا من قبل قول الضحاك : المتحيز إلى فئة الفار إلى النبي وأصحابه وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه وجنح إلى هذا ابن كثير قال من فر من سرية إلى أميره أو إمام المسلمين دخل في هذه الرخصة ثم أورد حديث عبد الله بن عمر .

(١) : سارية ترجم له ابن حجر وقال قال ابن عساكر له صحبة ، وقال ولاء عمر ناحية فارس وقال العسكري روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه وذكر الواقدي وسيف بن عمر انه كان في الجاهلية عداء يسبق الخيل عدوا على رجله ثم اسلم وحسن اسلامه و يذكر ابن حجر القصة السابقة ويأتي علي سرد أسماء الذين رووها ويحسن بعض اسانيدها ويروي القصة عن ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر .

(٢) : حديث عبد الله بن عمر رواه الامام احمد وابوداود والترمذي وغيرهم . ولفظ الترمذي عن عبد الرحمن ابن ابي يعلى عن ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فحاص الناس حيصة ( يعني انهم فروا من القتال ) فقدمنا المدينة فاخترنا بها وقتلنا هلكنا ثم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يارسول الله نحن الفرارون قال بل انتم العكارون ( أى أنتم العائدون إلى القتال والعاطفون ) ولنا فتكم .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا تعرفه إلا من حديث يزيد بن ابي زياد . ورواية الامام احمد عن يزيد بن ابي زياد هذا وكذا رواية ابي داود .

و يزيد بن ابي زياد تكلم فيه قوم و يقول بشأن الحديث الشيخ أحمد محمد شاكر اسناده صحيح

## الارتباط بالقيادة

والسؤال الذي يرد ههنا : أيجب لفرد من أفراد جيش أرسله الامام بقاءة قائد إلى جهة ما أن يدع أفراد الجيش و يلتحق بالامام دون إذن قائده وهو مأور بالسمع والطاعة لقائده ، ألا يعتبر فراره في مثل هذه الحال فراراً من الزحف ، هذا الذي يبدو جلياً أما عودته إلى الامام فعناها تسليمه نفسه إلى الامام ليرى فيه رأيه و لينزل به ما يستحق من عقوبة .

ولا يرضى السيد رشيد رضا عن الفهم السابق لمعنى التحيز يقول : تأول بعضهم هذا الحديث ( حديث ابن عمر ) بتوسع في التحيز إلى فئة ، لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم و يقول : يزيد بن ابي زياد مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون وقال ابن حبان كان صدوقاً إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح .

يقول رشيد رضا:وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متناً ولا سنداً . يقول وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة .

والأثر الذي يشير إليه يرويه ابن جرير عن محمد أن عمر رحمة الله عليه بلغه قتل أبي عبيد فقال لو تحيز إلي ! ان كنت لفئة ( ١ ) .

وقد فسر المفسرون قوله تعالى أو متحيزا إلى فئة بقولهم أي متنقلا إلى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعهم عليهم فصاروا أحوج إليه ممن كان في حيزهم . وهذا يغير القول السابق .

إن للمقاتل أن يفر من سرية ليلحق بإمامه . والذي يبدو لنا ضرورة التمييز بين الفرد في الجيش والجيش كله . فالفرد من أفراد الجيش ليس له بدون إذن قائده أن يدع إخوانه

(١) : و ابو عبيد هو ابن مسعود الثقفي صحابي وهو صاحب يوم الجسر المعروف بجسر ابي عبيد وكان عمر لما ولى الخلافة عزل خالد بن الوليد عن العراق والأعنة وولى ابا عبيد ابن مسعود الثقفي سنة ١٣ ثلاث عشرة هـ واما وجه يزد جرد جموعه الى جيش ابي عبيد عبر ابو عبيد الجسر في المضيق فاقتتلوا قتالا شديدا وانكى ابو عبيد في الفرس وضرب ابو عبيد مشفر الفيل فبرك عليه الفيل فقتله ، واستشهد من المسلمين يومئذ الف وثمانائة و يقال اربعة آلاف ما بين قتيل وغريق .

وقائده ليلتحق بجيش آخر أو يلتحق بالامام وإلا لانفرط عقد الجيش وضاع نظامه . أما السرية بكاملها والجيش بقائده وجميع افراده فلهم أن ينسحبوا من وجه العدو إذا أيقنوا بالهلاك أو ضياع أكثرهم ، ونقول ينسحبوا ولا نقول يفروا والانسحاب هو ما فعله خالد رضي الله عنه في غزوة مؤتة ، حين أخذ الراية ودافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس ، ومع كل هذا فقد كان يفهم أصحاب رسول الله أن هؤلاء قد فروا .

وعلى هذا الفهم نحمل حديث ابن عمر الذي جاء فيه فحاص الناس حيصة وجاء فيه كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب والذي يبدو لنا فيه أن السرية بكاملها رجعت إلى رسول الله عليه صلوات الله ولا نفهم مما جاء في الحديث أن فريقا صمدوا للعدو وآخرين فروا وتركوا إخوانهم وقد قال أبو بكر بن العربي في شرحه على الجامع للترمذي بشأن هذا الحديث : يحتمل أن يكون القوم فروا في موضع الفرار يريد فرارا يعذرون فيه فلذلك لم يلهم النبي عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنهم فروا في غير موضعه فعفا النبي عليه الصلاة والسلام عنهم والأول أظهر ، أي أنه يؤثر أنهم فروا فراراً لا لوم عليهم فيه وعلى هذا الفهم نزل كلام عمر رضي الله عنه الذي يروى عنه لو تحيز لي ابو عبيد إن كنت لفئة وقد كان أبو عبيد قائد الجيش .

قال القاسمي في مسألة الفرار إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده فإن ظن المقاومة لم يحل له الفرار وإن ظن الهلاك جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهاد وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور أقول وكل هذا الذي ذكر إذا لم يكن المقاتل فرداً من أفراد جيش منظم فإذا كان كذلك فعليه الاتباع والتزام ما عليه الجيش الذي ينتمي إليه إلى النهاية وأما إذا كان منفرداً أو كان هو قائد الجيش فما ذكر صحيح . يقول القاسمي وعن الكرخي أن الشبات واجب والمصابرة كذلك إلا إذا خشي الاستئصال وعرف عدم نكايته للكفار والتجأ إلى مصر للمسلمين أو جيش وهكذا أطلق فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ولم يعتبر العدد الذي سبق ذكره .

ونجد القول الأخير أقرب إلى الصواب فليس العدد المقياس الأخير للحكم ولا سيما في أيامنا هذه التي توصل الأعداء فيها إلى سبق الصوت وتفجير الذرة والسيح في الفضاء .

وخلاصة القول الذي ارتضينا : إذا خشيت الفئة المقاتلة المسلمة الاستئصال وتيقنت في الوقت نفسه أنها ولو استؤصلت لن تبلغ في النكاية بالعدو مبلغا ذا غناء فلها أن تدع ميدان القتال ولكن لا لاستسلام للعدو ولا لترك الجهاد بل للحاق بأرض أخرى والانضمام إلى فئة أخرى لشق ميدان جديد وفتح جبهة ثانية وكل هذا لا يتم على مستوى الأفراد ولكنه يتم في رأي الجماعة .

وهذه الشروط على غاية من الأهمية ويجب أن تتم كلها معاً ومعنى هذه الشروط أن المسلمين لا يمكن أن يستسلموا كاستسلامهم الحاضر ويطمئنوا كاطمئنانهم المقترن بالذل والموت ولكنهم في حركة دائمة وفكر دائم وجهاد لا ينقطع .

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير» .

ما هو موقف المسلمين من الحكم الإلهي الذي تضمنته الآية الكريمة ؟

تشمل الإجابة نقاطاً أربعا :

أولها موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة .

وثانيها تربية الأصحاب رضوان الله عليهم تربية بيع النفس في سبيل الله وهذه التربية ذات فرعين أولها التربية المكية والثانية التربية المدنية .

الثالث موقف المسلمين الحالي من الآية الكريمة .

الرابع ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من الآية الكريمة في الأيام التي يغلب فيها المسلمون على أمرهم .

موقف المسلمين الأوّلين من الآية الكريمة :

أوجدت الآية الكريمة بندائها الحازم وجوها الرهيب وتهديدها المريع لدى المسلمين الأولين شعورا بأنه لا يجوز للمؤمن أن يفر من زحف المشركين وإن كان عددهم بعدد

الرميل والحصا وإن ملأوا السهل والجبل ، ولم يكن ليقوم في أذهان المؤمنين السابقين في مواطن اللقاء أن العدو أكثر منهم عدداً وأقوى عدداً لأن النصر بيد الله والغلبة بعونه وأنه لما يخدش في عقيدة المسلم أن يخشى مناجزة الكافرين ، وإن كثرت عددهم واشتد بأسهم ، والله تباركت أسماؤه يعتبر على المؤمنين أن يخشوا الناس يقول تعالى « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ، وفي الآية إنكار وتعجب ووعيد ، وفي قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » تعنيف وزرابة بأولئك الذين يخشون الناس والآية الكريمة نفسها تبين سر الضعف قال تعالى :

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً » ، مفتاح السر في قوله تعالى متاع الدنيا قليل وعليه مدار الأمر كله .

وهكذا كان أمر الفرار من الزحف متصلًا بالعقيدة اتصالاً واضحاً ذلك أن الباعث له الحرص على متاع الدنيا والزهد في الآخرة ، والثبات يوم الزحف مبعثه الإيمان بقوة الله جل شأنه وأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده والطمأنينة إلى نصره والثقة بما عنده وما عند الله خير وأبقى وأن الموت لا يعجل به إقدام ولا يبطله به قعود وإحجام .

من هنا كان المسلمون في مؤتة ثلاثة آلاف ، لما بلغوا معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لحم وجذام والقيين وبهراء وبلبي مائة ألف ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا فإذا أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

وهنا نجد منطقاً معقولاً لا غبار عليه ولا ثلمة فيه ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ وكان العامل في ذلك اقتراح تقدم به عبد الله بن رواحة إذ قام فقال : يا قوم والله إن التي تكروهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة مناقاتهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا وإنما هي إحدى الحسينيين إما ظهور وإما شهادة فقال الناس قد صدق والله ابن رواحة فضى الناس .

وقد استشهد في الموقعة زيد بن حارثة واستشهد جعفر بن ابي طالب واستشهد عبد الله بن رواحة . يروي البخاري في صحيحة عن عبد الله بن عمر قال : كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن ابي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية .

ولقي الروم من شدة وطأة المسلمين ما جعلهم يرضون من الغنيمة بالإياب وبأن يكف المسلمون عنهم : يقول ابن اسحاق « فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » وهذه المدافعة تشير إلى ما أبدى خالد للعدو من البأس ، يروي البخاري في صحيحة عن قيس قال سمعت خالد بن الوليد يقول : « لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية » و يقول البخاري أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم يقول ابن حجر « فن يومئذ سمي سيف الله » . ثم انحاز خالد رضي الله عنه فرأى الروم في انحيازه متنفسا للضيق الذي كانوا فيه فلما انحاز انحاز الأعداء . يقول ابن حجر وقع في المغازي لموسى بن عقبة (وهي أصح المغازي) مانصه : « ثم اصطالح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين » و يبدو بأن قوله عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه المراد به انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين . (١)

يقول ابن اسحاق حتى انصرف خالد بالناس ووصل المدينة واستقبلهم الناس وجعلوا يحثون على الجيش التراب و يقولون يا فرار ، فرتم في سبيل الله فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وقد ذكرنا حديث ابن عمر رضي الله عنها وقد جاء فيه « فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب » وهكذا كان يفهم أصحاب رسول الله أنه لا عذر لهم في الفرار مهما كانت الظروف والأحوال .

---

( ١ ) : نقل ابن حجر رواية ابن اسحاق بالنص التالي : « فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » وفي اللسان : يحوشهم أي يجمعهم والمعنى على هذا جمع أصحابه ودافع الأعداء ثم انحاز عنهم فانحازوا عنه وعن أصحابه .

تربية بيع النفس لدى أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم

كان الأصحاب في مكة رضوان الله عليهم يمثلون الجماعة التي أخذت على نفسها حماية الحق الذي آمنت به وإن كان من وراء ذلك جفوة الأهل وسخط العشيرة وإن كان من وراء ذلك العذاب والنكال .

وكانت آيات الكتاب الحكيم تقص عليهم نبأ الذين كانوا من قبلهم تفتح قلوبهم لدعوة الحق والإيمان بالله فيفتنهم الذين كفروا فلا يصرفهم العذاب عن إيمانهم ، كان الأصحاب يتلون تلك الآيات ويعاهدون على الثبات كما ثبت المؤمنون من قبلهم .

ولم تكن نفوسهم تلك النفوس التي ترضى بأن تحتل ضيما ، ولكنها التربية الحكيمة الكاملة ، الطاعة لله ولرسوله والضبط والإحكام ، قيل لهم كفوا أيديكم فكفوا أيديهم وأخذوا يروضون أنفسهم على الصبر والأناة واحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاغين .

ماذا يكون لو أن مؤمنا من المؤمنين غضب غضبة في سبيل الحق يومئذ فامتدت يده إلى رأس من رؤوس الكفر فأزاله ، لو وقع شيء من ذلك لا اتخذ المشركون ذلك ذريعة لإفناء المؤمنين جميعا وهو في قلتهم حينذاك .

ولم يكن المؤمنون ذاك اليوم في ذل ولا استخذاء ولا يأس ولا وهن ولكنهم كانوا يحتملون الأذى والموت في سبيل الله وعيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم .

ثلاثة عشر عاما تمر في تربية الضبط والإحكام وتمهد للأعوام العشرة المدنية التي تلتها التي تم فيها فتح الجزيرة العربية وهذه تمهد للأعوام التي تلتها أيضا التي امتد فيها الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب .

انتهت المرحلة الأولى ببيعة العقبة الكبرى حين بايع أصحاب العقبة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه عليه على السمع والطاعة في المنشط والمكروه والعسر واليسر وأثره عليهم وأن يقولوا بالحق أينما كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم .

وهناك أذن للذين يقاتلون .

وانتهت المرحلة الأولى وكان الإذن من عند الله العلي القدير .

وانه لأمر عظيم أن يضع مخطط المعركة الحكيم الخبير وذلك لتظل تلك الفئة المؤمنة نموذجاً في الحياة الانسانية يتطلع المؤمنون إليه كلما أرادوا العود إلى الحياة الحقيقية .

أذنَ للذين يقاتلون بسبب أنهم ظلموا ولو أنهم لم يظلموا ولم يفتنوا عن دينهم ولم يخرجوا من ديارهم لما كانت هنالك حاجة لقتال ولكنها سنة الله في خلقه : ما وجد دعاة الحق في قطر من الأقطار أو عصر من الأعصار إلا صُب عليهم العذاب والطرْد والإيذاء والاستهزاء وفي حديث عائشة عند البخاري قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل « أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي » .

وفي مدينة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه تربية ثانية يؤخذ بها المؤمنون تختلف عن التربية الأولى قليلاً في مظهرها واتجاهها لا في روحها وحقيقتها .

كانت التربية الأولى ضبطاً للنفس وصبراً على الأذى وتبليغاً للدعوة وإعداداً للعدة مع حبس دواعي الانطلاق وكف حدة الإقدام أما التربية الثانية فهي تبني على الأسس السابقة ثم تدفع المؤمنين دفْعاً قوياً إلى الانطلاق في سبيل الله للضرب على أيدي أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن .

كان طابع التربية في المدينة طابع الإقدام والموت في سبيل الله وبيع النفس ابتغاء مرضاة الله ليطمئن المؤمنون في ديارهم وليقتضي على الشر والشرك والباطل والطواغيت ، وكل هذا يحتاج إلى سهر دائم وتحفز مستمر ودفع قوي وفي كل هذا يجب أن يكون لدى المؤمنين منعة في نفوسهم وقوة في أرواحهم تربأ بهم أن يخلدوا إلى الأرض أو يضعفوا أو يستكينوا .

كان أول ما قرع اسماعهم في المرحلة الثانية الإذن : ، أذنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وقبل أن يؤذن لهم أعلموا في الآية نفسها تثبيتاً لقلوبهم بأن الله يدافع عن الذين آمنوا وبعد أن أذن لهم بشروا بأن الله على نصرهم لقدير .

وبعد أن أذن لهم وبعد أن بشروا بنصر الله ذكرت لهم أسباب مقاتلة هؤلاء قيل لهم « إن تركتم هؤلاء الآثمين فستهدم بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله » ( ولولا دفع الله



الناس بعضهم ببعض هدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) وتعود الآيات الكريمة ثانية وثالثة فتطمئن المؤمنين وتقر في قلوبهم السكينة « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » .

والله تباركت أسماؤه خلق هذا الانسان وهو أعلم به يهدئ روعه ويسكن فؤاده ويعده جل شأنه ويوثق مواعده بأنه معه وبأنه ناصره كأنما يشير ذلك إلى أن ما ركب فيه من ضعف وهلع وجزع بحاجة شديدة إلى التثبيت والتأييد والعون الدائم والتطمين .

أذن للمؤمنين في المدينة بالقتال ثم أمروا به ثم نبهوا وهم في غمرة النداء الا يعتدوا فليس الاذن بالقتال إذنا بالاعتداء ، أين هذا من مكر الأعداء الذين يزعمون أنهم تسنموا ذروة المدينة اليوم حين يعترفون أنفسهم بأنهم للوصول إلى أغراضهم من تسيير الشعوب كما يريدون واللعب بها كما يشاؤون لا يبالون باللجوء إلى وسائل شريفة أو غير شريفة .

أذن بالقتال ثم أمر به وفرض على المسلمين فرضاً فهو أمر في كتاب الله كما فرضت الفرائض وشرعت الأركان ولكن الله الخبير بالنفوس يقول انه شيء مكروه و بين جل شأنه أن هذا المكروه هو خير . « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

والجهاد وان كان مكروهاً من بعض النفوس فهو محبوب من نفوس أخرى « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » وهو وسيلة دخول الجنة ولا بد للمؤمن من أن تمسه البأساء والضراء ويزلزل زلزالاً شديداً في سبيل الله ، قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »

ومحول بين المؤمن وبين الجهاد خوف الموت ولذا ضرب الله للمؤمنين الأمثال في الأمم التي قد خلت : خرج أناس وهم ألوف من ديارهم فارين من الموت فأدركهم الموت جميعاً في خروجهم وفي فرارهم ثم أحياهم جل شأنه ليروا معنى الحياة ويدرکوا معنى الموت و يتبين لهم وللناس من بعدهم أن الموت ليس بذلك الشبح الذي يخافه المؤمن ويجزع للقياه .

« ألم تروا إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وتلا هذه الآية الأمر بالقتال والأمر بالإنفاق : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » .

أذن جل شأنه بالقتال ثم أمر به وفرضه على مؤمني المدينة ثم أمر بالإنفاق في سبيل الله وسمى تباركت أسماؤه ترك الإنفاق لإلقاء باليد إلى التهلكة قال تعالى « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »

وهذا المفهوم أعني تسمية ترك الإنفاق إلقاء باليد إلى التهلكة هو الذي تعطيه الآية الكريمة وهو التفسير الذي ذهب إليه أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله في حديث يرويه عنه أبو داود في سننه قال فيه : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله تعالى : « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، قال ابو عمران وهو الراوي عن ابي أيوب : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية . أخرجه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح .

كل هذه الآيات الكريمة التي تلونها في سورة البقرة ، وقد جاء في الجزء الأخير من السورة الكريمة دعوة إلى الإنفاق حازمة تلو من بعض آياتها قوله تعالى « وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » ونتلو أيضا « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكان محور السورة الكريمة الجهاد والإنفاق في سبيل الله كما مر بنا من قبل .

وقد ابتدئ نزول هذه السورة الكريمة أي سورة البقرة في السنة الأولى من الهجرة تمهيدا للأيام المقبلة ، وكانت آيات الله تنزل على المؤمنين فتبلغ قرارة نفوسهم وتستقر في أعماق افئدتهم حتى إذا كانت السنة الثانية جنى المسلمون ثمرات تلك التربية وكان يوم الفرقان وكان النصر الأكبر .

ولم تنته المهمة ههنا ولكنها بدت ، يوم بدر وكان يوم الفرقان أول السبيل التي

تشرف علي فتح مشارق الأرض ومغارها ولقد استقر الايمان في قلوب المؤمنين بعد الموقعة ورأوا بأعينهم نصر الله وأيقنوا أن الله معهم وأن الملائكة تثبتهم وتؤيدهم فاذا بعد هذا ؟ ليس بعد الايمان بنصر الله إلا الإقدام وليس للمؤمنين بعد رؤية النصر أن يفروا من موقعة أو يخنشوا عدوا ، وها هو حكم الله من علياء سمائه حازما صارما يفادى المسلمين ويحكم عليهم أبد الدهر بأن من يفر من الزحف فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . ولم يوضح الحكم بصيغة الأحكام ولكن صور الكافرين وهم زاحفون كموج البحر والمؤمنون في لقائهم واستقبالهم ، وفي هذه الصورة التي تضع المشهد أمام أعين المؤمنين يأتي الأمر من عند الله بأنه من يولهم دبره في هذه الحال فقد باء بغضب من الله .

وانه لحكم صارم وأمر شديد ولكن المؤمن يمثل أمر الله ويسلم نفسه الى الله وهناك تغيير المقاييس ويصبح الصعب سهلا والعسير يسيرا .

وإذن فلا بد من طاعة الله والتزام أمره ولا بد من السماع لآيات الله بقلوب واعية وأذان صاغية ، إن هنالك أناسا يسمعون ولكنهم لا يسمعون وينظرون ولكنهم لا ينظرون ، والله جل ثناؤه يصف هؤلاء ويعيدنا أن نكون منهم إن هؤلاء هم شر الدواب .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

ولا يكفي في الأمر الطاعة فحسب أو دعوى الطاعة ، إن الطاعة الحقيقية لا بد أن تثمر تلبية واستجابة ، والاستجابة أبلغ من الإجابة فهي طاعة والتزام وامثال وتعجيل بالتنفيذ ، وهذه الاستجابة استجابة لله وللرسول إذا دعانا الله ورسوله ، وهذه الاستجابة فيها الحياة وفي تركها الموت وهذا الحكم ينطبق على كل أمر يأمرنا به الله وكل دعاء يدعونا اليه .

والأمر هنا عدم الفرار من الزحف . وهذا هو النداء الثاني بعد الأول : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »

ووجب أن يعلم المؤمن أن حق الله على عباده المؤمنين أن يطيعوه والعهد اليهم أن  
يتمثلوا أمره فإن لم يفعلوا فقد خانوا الله ورسوله . فجانبه أمر الله خيانة وأمره ههنا جهاد  
وموت في سبيله فالجهاد في الآيات الكريمة محور الموضوع وعليه مدار الحديث وتركه خيانة  
لله ورسوله . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون » وثمره  
الطاعة والاستجابة للتقوى وثمره التقوى نور في وجه المؤمن وفي سلوكه وفي قلبه  
وبصيرته نور يفرق به بين الحق والباطل و يفترق به عن غير أمثاله من المتقين ، وهذا النور  
سماه الله تعالى فرقانا قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا  
ويكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

وهكذا اتبع النداء الذي يحذر من الفرار يوم الزحف بأربع نداءات متلاحقة تؤيده  
وتؤكد تدعو الى الطاعة والاستجابة وعدم الخيانة والتقوى .

وفي السياق الكريم يؤمر المؤمنون ثانية بعد آيات أن يثبتوا عند لقاء الكافرين ثم  
يؤمرون أن يعدوا العدة للقائهم ثم يؤمرون بأن يقابل الواحد منهم عشرة من الأعداء  
ويخفف الحكم فيجعل للواحد اثنان .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا القيتم فئة فائبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم  
تفلحون » .

قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله  
وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم »

وقال تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون  
صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون  
الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن  
يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين »

ولما جاءت السنة الثالثة كان ثمرة هذه التربية ثبات المؤمنين حول رسول الله عليه  
صلوات الله وسلامه بعد أن أصابهم القرع وبعد أن تصدع بناء جيش المسلمين في أحد

وكانت تلك التربية كفيّلة بلم الشعث وإعادة البناء ولولا فضل الله وثبات رسوله عليه صلوات الله وسلامه وثبات النفر اليسير حوله يبيعون أرواحهم في سبيل الله ويتساقطون عند قدمي رسول الله لما قامت للمؤمنين قائمة وتنزلت الآيات الكريمة بعد الموقعة هادية مرشدة تهيب بالمؤمنين ألا يهنوا ولا يحزنوا .

قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » وفي السنة الرابعة طرد المومنون يهود بني النضير من المدينة ونزلت الآيات مفتحة بنشيد قدسي ليس فيه ثناء على الظافرين وليس فيه إطراء للفاتحين ولكن الذي يستحق الثناء هو الله وحده .

« سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار» .

وفي السنة الخامسة للهجرة ظهرت ثمرات التربية كلّها في موقعة الأحزاب لقد اجتمع العرب جميعا على المسلمين ورموهم عن قوس واحدة وما كان أحد ليصبر كصبرهم على الخوف والشدائد والجوع والبرد كان ليلهم نهارا وكانوا يبيتون في حراسة المدينة من المشركين ومن اليهود الغادرين ولم تكن موقعة أشد على رسول الله وأخوف على المسلمين من موقعة الأحزاب .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »

هذه خمس سنوات تنقضي في جهاد المؤمنين واستبسالهم ، وهزيمة الأحزاب هي الحد الفاصل بين عهدين أيضا فلقد اعتدلت الكفة وتغيرت الوجهة واصبح المسلمون يُرهبون ولا يَرهبون وهاجمون ولا يُهاجمون قال عليه الصلاة والسلام حين رأى الأحزاب قد انكشفت « اليوم نغزوهم ولا يغزونا »

وبعد سورة الأحزاب نزلت سورة المتحنة وبعدها سورة النساء وفي سورة النساء

دعوة للمؤمنين لإنقاذ إخوانهم المستضعفين المذبذبين في مكة .

قال تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لذك وليا واجعل لنا من لذك نصيرا »

وفي السنة السادسة بدت خطة الإنقاذ وكان صلح الحديبية وكان فتحا مبينا وكان تمهيدا لدخول الناس في دين الله افواجا .

قال تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر و يتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما و ينصرك الله نصرا عزيزا »

وفي السنة السابعة توجه المسلمون من المدينة الى مشارف الشام لغزو الروم. وفي السنة الثامنة دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة مع عشرة آلاف من أصحابه خاشعا لله مطأطا رأسه ليرى الذين أخرجوه وقاتلوه وناذبوه ويقول لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفي السنة التاسعة يعاود الكفرة عليه صلوات الله وسلامه في جيش عظيم يقوده بنفسه الى بلاد الروم ويرسل في ذلك العام أبا بكر ليحج بالناس فيعقبه بعلي يتلوصدرا من سورة براءة ويخبر المشركين بأنه لا يدخل المسجد الحرام بعد اليوم مشرك ولا يطوف بالبيت عزريان ومن كان له عهد عند رسول الله فعده الى أجله وتم الغلبة للمسلمين و يعلي الله كلمته فيتبرأ الله من المشركين و يعطون مهلة مقدارها أربعة اشهر يسبحون فيها في الأرض كما يشاؤون فاذا انتهت الأشهر الأربعة أخذ المشركون وحصرها وقتلوا وقعد المسلمون لهم كل مرصد .

قال تعالى :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين » والى قوله تعالى « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » .

وهكذا ارتفع لواء الاسلام ، وأعلى الله منارته ، وما كان الاسلام دين عبادة فحسب وصلاة وصيام وحج وزكاة ولكنه قبل هذه الفرائض والى جانب هذه الأركان ، كان حركة دائمة منظمة ترمي الى جمع قوى الخير في الدنيا وتنظيمها لضرب قوى الشر ودفعها وتحطيمها .

وهذا المعنى فقدته المسلمون بكل أسف وأضاعوه واستناموا واستكانوا وكفوا ايديهم ورضوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما هي بالصلاة التي أمر بها الله ولا بالزكاة التي يحبها الله وعدو الله رابض بالقرب منهم يراوغهم مراوغة الثعلب و يأخذ في كل يوم جزءا من دينهم و يقطع قطعة من عقيدتهم و يَعدِّهمُ و يَمنِيهمُ وما يعدهم الشيطان الا غرورا .

وان الدعاة الذين لا يعرضون الاسلام هذا العرض ولا يفهمونه هذا الفهم ولا يبلغونه هذا التبليغ مسئولون عند الله محاسبون أمام ربهم .  
**موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة**

موقف المسلمين اليوم في البلاد الاسلامية واحد : عدو غاشم يكتسح الديار يوما بعد يوم ويستحل الحرمات الواحدة تلو الأخرى ولا ينقطع عن النكاية والعداوة بكل أصناف النكاية والعداوة ، وهو لا يبدو اليوم مباشرة العداء بنفسه ولكنه يعمل خلف الستار يبعث أعوانه و يبيث أجناده و يتلاعب بالشعوب .  
والمسلمون اليوم قد نسوا أمرا واحداً: صناعة الموت وحرقة القتال .

وان المرحلة التي يمر بها المسلمون اليوم لم يسبق لها مثيل في التاريخ أبداً ذلك أن كيد العدو ما بلغ في يوم في إحكامه ونفاذه واتساع مداه ما بلغ اليوم ، وما بلغ استسلام المسلمين في يوم ما بلغه استسلامهم اليوم . . . وما يؤذن كل ذلك إلا باقتراب الفرج ذلك أن الأزمة قد بلغت غايتها والعدو قد بلغ في تطويقه النهاية . . . وههنا يزداد المؤمن ثقة بالله وبعونه ونصره و يستبشر المؤمن كما كان يستبشر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه حينما تحرق الخطوب وتشتد الكروب .

إن بشائر الأمل لا تنقطع ولكن ساعة الانطلاق لم تؤذن بعد ومازلنا في مرحلة لا يشعر الفرد منا فيها أن عليه أن يحمل التبعة ولو كان وحده ولكننا يلوم بعضنا بعضا و يلقي كل منا التبعة على غيره .

وإن الأجيال ستوجه إلينا العتاب الطويل وإن الله تباركت أسماؤه سيسألنا كيف أسلمنا الأمر بأيدينا لخصومنا؟ وكيف سلونا عن واجبنا وكيف لهونا عن عدونا أين كنا حين سطا الأعداء وماذا فعلنا حين غلب الدخلاء وكيف استقرت بنا الأرض بعد أن قهرنا الأذلاء.

وإن كثيرين من أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر من أمثالي لا يجيبون أن يسمعوا كلمة القتال ولا يروق لهم أن يُتحدَّثَ عن الجهاد ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم؟ سمعت من كثيرين من الأمثال يقولون: أليس هنالك موضوع غير الجهاد؟ أليس في الإسلام فریضة إلا فریضة الجهاد؟ كيف يمكن الجهاد والمسلمون مشتتون وقلوبهم متفرقة والجهل غالب والبعد عن الروح الإسلامية عام شامل؟

ألا يشبه حال المسلمين اليوم حال أهل مكة وقد قيل لهم « كفوا ايديكم واقموا الصلاة وآتوا الزكاة »

وأقول إن العلة الحقيقية هي ما غلب على قلوب المسلمين، علمائهم وعامتهم من حب للدنيا وكرهية للموت، والذي يحول بيننا وبين العمل في سبيل الله والدعوة إلى الله والصدع بالحق هو الخوف على الدنيا والخوف من الموت.

إن التهربية على حب الدنيا وكرهية الموت غرست في قلوبنا واحكم غراسها في أعماق نفوسنا اتفق على ذلك آباؤنا ومعلمونا وإخواننا ومجتمعنا، على ذلك ربنا نحن أيضا الأبناء ونشأنا الأجيال.

إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها وهو موضوع الساعة وليس هنالك اليوم بعد الإيمان بالله وأداء الأركان فریضة أكد من فریضة الجهاد ذلك أنه الوسيلة اليوم لحفظ إيمان المؤمنين وتركه يؤدي إلى ضياع الفرائض كلها إذ يسمح لأعداء الله بفتنة المسلمين وإخراجهم من دينهم.

ولقد جُجِدَ الإله جل شأنه في الصحف الرسمية في بعض البلاد الإسلامية واستهزئ به تباركت أسماؤه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً وحرقت المسجد الأقصى على مرأى ومسمع من المسلمين كل ذلك لأن مهابة المسلمين قد نزعَت من صدور الكافرين، ولكن الأدهى من كل هذا أن تخطيط الأعداء ومكرهم لم ينته عند هذا الحد ذلك أنه ماتزال في



المسلمين بقية يخشى الأعداء نموها وعودتها الى أيامها الأولى ولن يطمئن هؤلاء حتى تزول البقية الباقية ، ولكن الله غالب على أمره واننا كما نؤمن بأن الله ربنا نؤمن بأن الله ناصر دينه مع كل كلمته وسيكون ذلك بالمسلمين أنفسهم وإن أصابهم اليوم ما أصابهم .

إن الله قد فرض علينا القتال وان المسلمين يدفعون اليوم هذه الفريضة بأعدار واهية ولو أنهم آمنوا بالله وامثلوا أمره لوجدوا السبيل لدفع الأعدار وقطع دابرها .

واما القائلون كيف يمكن الجهاد والمسلمون مشتتون جاهلون بعيدون من معاني دينهم والجواب علاج هذه كلها بالدخول في ميادين القتال ، لقد عرف النصراري الصليبيون الغربيون أنفسهم ووجدوا وحدتهم وخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه بعد أن خرجوا من قتال المسلمين مائتي عام لقد بدأت يقظتهم بعد تلك الأعوام بأعوام يسيرة وكانت نهضتهم التي استمرت إلى أيامنا هذه .

إن المسلمين لم يشعروا بتقديراً بالنكبات التي حلت بهم والخطر الذي يحفهم وما تزال وسائل التخدير ماضية لا تسمح للمسلمين أن يفتحوا عقولهم أو أبصارهم ، ولو شعر المسلمون بالخطر لاجتمعت قلوبهم فليس شيء يجمع القلوب كالمحنة حين تعم .

لم يشعر المسلمون بالمحنة لأنهم لم يدخلوا جميعا في صف واحد في قتال العدو ولو دخلوا لشعروا بوطأة المحنة .

إن العدو اليوم لا يستعمل أسلحته المادية في قتال المسلمين ولكن لديه إلى جانب ذلك أسلحة نفسية ومكتشفات علمية وهو أمضى من الأسلحة الأولى وغرض الثانية أن يستسلم المسلمون إلى نومتهم ويظلوا في رقادهم .

إن أعظم ميدان للتربية ميادين القتال ذلك أن الذي قدم نفسه للموت في سبيل الله واستطاع أن يجاهد نفسه حتى وصل إلى هذه الغاية يهون عليه أي جهاد آخر ففي هذه الميادين تخلص النفوس وتمحص النوايا وتصدق العزائم وتصفو القلوب وانه لمن الخطأ الكبير أن يقول بعض شباننا الصالحين يجب أن نكمل تربية نفوسنا ندخل الميدان بل الصواب أن يقال يجب أن ندخل نحن المؤمنون الميدان ليتم إيماننا وتكمل تربيتنا .

وأما قول القائلين بأن المسلمين اليوم في مرحلة تشبه المرحلة المكية فهو خطأ من وجوه :

أولها: أن الأصحاب رضوان الله عليهم لم يكونوا في مكة في نوم ولا استسلام لأعداء الله ولكنهم كانوا في أعلى درجات الجهاد معلنين إيمانهم بالله وكفرهم بالطواغيت

وبأنظمة المجتمع الجاهلي وعقائده وأعرافه منسحبين منه انسحاباً تاماً محاربين له مجاهدين بازدرائهم إياه خارجين عليه خروجاً تاماً في عقيدته ومثله وأعرافه وتقاليده ولقد كانوا لكل هذا في تحد دائم ، وصبر مستمر على العذاب والأذى والاضطهاد ، لقد صبروا وهاجروا مرتين وأوذوا وقوطعوا حتى أكلوا أوراق الشجر .

إن الموضوع اليوم موضوع القتال وإنها ساعة النفير العام وإنها ساعة الجهاد والتنافس في الجهاد والساعة التي يجب أن تسري فيها عدوى الجهاد في قلوب المؤمنين من فئة إلى فئة .

وإن العدو اليوم لا يجد في أمر المسلمين حيرة ولا يجد عناء بل المسلمون اليوم كما يريد الأعداء هادئون مطمئنون يساقون إلى الموت وهم غافلون ولو فرغ كل مسلم إلى سلاحه كما أمر الله لتحير العدو ودهش .

أين المسلمون اليوم من كل هذا في استسلامهم لجاهلية اليوم وسكوتهم عنها ومشاركتهم فيها وتأثرهم بها .

لقد كان أصحاب رسول الله في مكة جادين عازمين مصممين و يعدون العدة و يجمعون القوى لليوم الذي يواجهون فيه العدو ، والمسلمون اليوم في لعب .

ولا بد من الخروج من دور اللعب ودور الأمانى إلى دور الجد والعزيمة والاستخفاف بالموت وهنالك يضع المسلمون قدمهم على الجادة التي لا عثار فيها .

الأمر الثاني : إن الله قد أتم دينه وأكمل نعمته وحد حدوده وفرض فرائضه وأحكم شريعته وحكم القتال اليوم في شرعة الله فرض عين في رقبة كل مسلم من تركه كان مخالفاً لأمر الله واقعاً في الإثم ، والقتال في المرحلة المكية كان منياً عنه لم يؤذن به ولم يسمح للمؤمنين فكيف يصح أن تقاس الحال التي لم يفرض فيها القتال ولم يؤذن به بالحال التي يكون القتال فيها فرضاً عينياً من قصر فيه كان من أهل الإثم والوعيد .

الأمر الثالث : كان عدد الأصحاب في العهد المكي لا يزيد عن بضعة مئات وعدد المسلمين اليوم سبعمائة مليون كلهم رجالاً ونساء شباباً وشيوخاً فرض الله جل شأنه عليهم القتال فرض عين في هذه الساعات الرهيبة فكيف تقاس مئات الملايين على بضعة مئتين ؟

ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة بيئته قوله تعالى :  
« وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا  
يحب الظالمين ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »

كل أمر في هذا الكون لا يتم الا بتدبيره جل شأنه وتقديره وفي كل ذلك تحاط  
الوقائع بحكمته ويتخللها مته وكرمه ورحمته ومن الحوادث أن يرفع أقواماً جل شأنه ويضع  
آخرين ، وقد يكون اولئك الذين رفعهم وأعلى ألويتهم أنصار الباطل دعاء الشر ، وما يرفع  
الله ألوية هؤلاء لأنهم أثيرون لديه جل شأنه ( والله لا يحب الظالمين ) ولكن الموضوع أمر  
آخر هو أنه لا بد من أن تنفذ سنن الله في مخلوقاته والآية التي سبقت هذه الآية هي قوله  
تعالى ( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين )  
فللأمم سنن وللمجتمعات قوانين وضعها الخالق البارئ جل شأنه ومن أمثلة هذه السنن  
قوله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها  
تدميراً » والآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن المترفين هم الآلة المسخرة بيد القدرة  
الإلهية لتدمير قرية وإفناء أمة . والمترفون هم الذين يجمعون بين النعمة والرخاء والتوسع  
في ملاذ الدنيا وشهواتها وقد أبطرتهم النعمة وأطفتهم الشهوات ووسيلة هؤلاء الفسوق وهو  
الخروج عن طاعة الله جل شأنه .

والآيات الكريمة نزلت بعد غزوة أحد وقد كان النصر فيها للمؤمنين ولكن أسباباً  
وقعت حولت ميزان النصر وغيرت اتجاه الغلبة واضاع المسلمون النصر وكان الأمر لهم  
فأصبح عليهم والأسباب جلية فيما أخبر به تعالى من أن الله صدق المؤمنين وعده فأخذوا  
بقتل المشركين واخذوا أنفاسهم ثم حدث أمر توجزه الآية الكريمة قال تعالى : « حتى إذا  
فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم  
من يريد الآخرة »

حين وقع الفشل وهو الكسل والضعف والتراخي والجبن ، والتنازع والعصيان وإرادة  
الدنيا أضاع النصر أصحاب رسول الله .

وهكذا ترشد الآيات الكريمة الى ان الله سنناً اجتماعية تنطبق على المجتمعات  
الإسلامية وعلى غير المجتمعات الإسلامية وأن هنالك شروطاً إذا أضاعتها الجماعات

المسلمة فقدت قيادتها وأسلمت القيادة إلى أعدائها .

ولكن الآية الكريمة ترشد إلى أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو مندرج في سنن الله جل شأنه ونظامه الكوني وهو أن المحن والشدائد التي تصيب المسلمين ليست شراً كلها وحين يغلب المسلمون و يدال عليهم فليس معنى ذلك ان الأمة قد تودع منها .  
إن للشدائد غرضاً هاماً جداً أن توظف العيون النائمة وتوجع الضمائر الهادئة وتثير إيمان ذوي الإيمان فتدفعهم إلى الوقوف أمام الباطل لمناجزته .

وهنا تقدم الضحايا وتقدم الشهداء ويميز الله الخبيث من الطيب و يعلو صوت الايمان وتشتد الأمور حتى يدرك الخطر الجميع وحينما يضيق الخناق و يشعر الأفراد جميعا بشدة وطأة الأعداء تنطلق الصيحات مستغيثة مستجيبة وتشرئب الأعناق لترى تبشير النصر وتطلع القلوب لتنظر آفاق الأمل وهناك تتقدم طلائع الايمان تستقبل الموت وتحمل في اعماق نفوسها الثقة والرجاء والأمل .

« وتلك الايام نداؤها بين الناس » هذه الكلمات اليسيرة تنطوي على تقلبات الأيام وعاديات الزمان وتشير الى التاريخ الطويل في حساب الناس حين تصل أمة الى الذروة ثم تطرأ عليها الطوارئ وتعصف بها العواصف فتتغير القلوب على مر الزمن وتبديل النفوس وتنحدر الأمة ثم تفيق من غفوتها فإذا هي مستذلة مغلوبة مقهورة .

فداولة الأيام يقدرها الله لحكم يعلمها جل شأنه .

وقد أشاد تباركت اسماؤه بذكر صنفين من الناس يعلو شأنهم في أيام الشدائد وتسمو مكانتهم اولئك المؤمنون والشهداء قال تعالى : « وليعلم الذين آمنوا و يتخذ منهم شهداء » .

وهكذا كان من حكمة الشدائد التي تصيب الأمة أن يعلم حال الذين آمنوا وأن يتكرم الله جل شأنه فيتخذ الشهداء منهم كما يتخذ أحدنا الأصفياء والأخلاء والله المثل الأعلى .

وان الآية الكريمة لجديرة بأن تدفع المؤمنين دفعاً قويا إلى إدراك مراميها والعمل بهديها .

والآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال التي يدال فيها على المؤمنين و يغلبون على أمرهم فلها أغراض كريمة في ثنايا هديها :

**الغرض الأول** أن يعلم المؤمنون أن الله سننا لا تختلف فالعاملون المجدون يجنون ثمرات عملهم والخاسرون الفاشلون الذين لا يعملون والذين ينتظرون فرج الله ويرجون بزعمهم نصراً دون أن يبذلوا جهداً أو مالاً أو نفساً هؤلاء يكذبون على أنفسهم ويخادعونها ويتجاهلون أن نصر الله لا يكون إلا لمن ينصر الله .

**الغرض الثاني** أن يعلم المؤمن أن الشدائد التي تصيب المؤمنين يريد الله جل شأنه بها تمحيص قلوب المؤمنين بتنقية الضمائر من الأغراض الدنيوية والمنافع الشخصية وتطهير النفوس من أوشابها برجوعها بسبب الشدائد إلى ربها وإخلاصها لخالقها ، وبعد ذلك كله يريد الله جل شأنه أن يتبارى المؤمنون ويتقدم المخلصون الذين هم طلائع الخير ورواد الحق ووسيلة إنقاذ الأمة .

إن الشدائد تخرج أبطالاً وتقدم رجالاً ينسون أنفسهم ومصالحهم ويدعون أغراضهم ويعملون في سبيل الله ويرضى عنهم الله جل شأنه ويرضى عنهم الناس ويعلي الله شأنهم ويكثر أتباعهم وينصر الله بهم ، كل هذه المعاني مندرجة في قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » وفي قوله : « وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »

**والغرض الثالث** من هدي الآيات الكريمة ألا يتسرب الوهن في الساعات الرهيبة إلى قلوب المؤمنين ولا يغلب عليهم الحزن ولا يجد اليأس إليها سبيلاً .

إن الوهن من صفات النفوس الضعيفة التي عدت ثقها بنفسها وضعفت صلتها بخالقها ولم يكن لديها ذلك الإدراك النافذ والنظر الثاقب والرأي الحصيف ولم يكن لديها ذلك الضمير النقي الخالص وتلك العزيمة الماضية، تلك هي النفوس التي غلبت عليها شهواتها .

أما النفوس المؤمنة فهي النفوس الواعية اليقظة المدركة النقية الخالصة التي تؤمن بأن الأمور مهما عظمت فهي حقيرة بجانب عون الله ، وهذه النفوس هي التي غلب عليها إيمانها فلا تهن ولا تحزن وتؤمن أنها الغالبة المستعلية باذن الله .

لا يجوز للمؤمن أن يتسرب الوهن إلى قلبه. والسبيل لذلك أن يكون مع الفئة المؤمنة

تلك الفئة التي ذكرها رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ووصفها ليعلم الناس ما يجب أن يكونوا عليه في أيام الشدائد والخطوب قال عليه الصلاة والسلام « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » والرواية الثانية في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » .

وكثير من المسلمين يظنون بأنفسهم خيرا ومحسبون أنهم من الطائفة التي ذكر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكن المؤمن فطن لقن يحسن محاسبة نفسه ولا تغره دعاؤها وفي هذه الروايات الثلاث وصفت الطائفة بأنها تقاتل على الحق وبأنها غالبية .

وأقول ، أفراد هذه الطائفة هم المؤمنون وهم الشهداء الذين ذكر الله تبارك وتعالى أسماءهم وهؤلاء لا يهنون ولا يجزون وهم الأعلون .

**الغرض الرابع** في هدي الآيات الكريمة أن يعلم المؤمنون أن أيام الشدائد لا بد فيها من توضيحات في الأموال والأنفس قال تعالى ( ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ) .

ويتصل بهذا ان يرى المؤمن الحياة رخيصة في سبيل الله وان يصدق في عدم خوفه من الموت فاذا ادعى أنه لا يخاف الموت في ساعات الأمن فيجب ان يصدق قوله فعله في ساعات اللقاء . قال تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون » .

ويؤكد عدم الخوف من الموت قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين »

**الغرض الخامس** في هدي الآيات الكريمة في الساعات التي يدال فيها على المؤمنين أنه لا عذر للمؤمنين في قولهم ليس لنا قيادة نقاتل تحت لوائها ولا نعرف جماعة نظمنا إلى الانضواء تحت رايها لا عذر لهم في ذلك لأن أصحاب رسول الله حين قعد بعضهم وتركوا القتال في غزوة أحد حين نادى مناد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد مات عنفوا على قعودهم وعتبوا عتاباً شديداً قال تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من

قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين .

**والغرض الأخير في هذه الآيات الكريمة؛ التأكيد على وجود الطليعة وأنصار الحق** الذين يتقدمون و يستبقون الناس. وصفات هؤلاء أنهم ربيون غلبت عليهم النسبة لله جل شأنه لا يشار بجانب الله عندهم على كل جانب سواه لا يهنون ولا يضعفون ولا يستكينون . قال تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

والخلاصة أن الأمة لا ينقذها في مثل هذه الأيام الا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين تدعو الى الله وتحتمل أنواع الأذى في سبيل ذلك .

قال تعالى :  
« فلم تقتلهم <sup>منه</sup> ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

يقول السيد رشيد في تفسيره :

كأنه تعالى يقول : « يا أيها المؤمنون لا تولوا الكفار ظهوركم في القتال أبدا أنتم أولى منهم بالشباب والصبر ثم بنصر الله فيها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعددكم وكشرتهم واستعدادهم وإنما ذلك بتأييد الله لكم وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادي ولكن الله قتلهم بما كان من تثبيت قلوبكم وإمدادكم بالملائكة وإلقاء الرعب في قلوبهم » .  
فالآية بمعنى قوله « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم »

وقال ابن كثير :

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم ولهذا قال ( فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ) أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما

قال ( ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة ) .

وقال المفسرون الفاء جواب شرط مقدر، والتقدير اذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم بقوتكم وقدرتكم واذا كان الله جل شأنه هو الذي أخرج رسوله من بيته وهو الذي أراد أمراً غير الذي أراده المؤمنون حين أرادوا الفوز بالغير وأراد الله أن يحق الحق وهو جل شأنه الذي غشاهم النعاس وأنزل عليهم الماء من السماء يظهرهم و يثبت أقدامهم وهو الذي أمدهم بالملائكة وأوحى إليهم أن ثبتوا الذين آمنوا والقي الرعب في قلوب الذين كفروا ، اذا كان الله جل شأنه برحمته قد يسر كل هذا فما الذي فعله المؤمنون وما هي مكانتهم في هذا الأمر العظيم الذي تم ؟ أجاب تباركت أسماؤه بقوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم »

### الآية ذات غرضين

والإجابة الكريمة تنزع من المؤمن غروره أولاً وتدفعه دفعا قويا في مواطن البأس التي يرضى بها الله ثانيا .

وهكذا كانت الآية الكريمة ذات غرض مزدوج وكانت تربيتها للمؤمنين في مواطن: أولها موطن الظفر تطمئن من غلواء المؤمن وكبريائه ساعة النصر وثانيها في موطن الإقدام تدفع بالمؤمن دفعا لا تردد فيه ولا وجل .

ومن أجل هذا كان ارتباطها بكل ما سبق وبالآية التي قبلها ارتباطا وثيقا محكما فهي خلاصة ما جاء في الآيات الكريمة من ذكر من الله ومعونته وهي لذلك من تمام الدفع الذي جاء في الآية التي سبقتها دفع المؤمنين للهجوم على أعداء الله والاستبسال في ذلك . وانه لعجب أمر المؤمن في صلته بالذي خلقه فهو:

١ - يبذل نفسه ويقدم مهجته في سبيل الله رب الخلائق مصدر الخير والرحمة باذل الفضل ناصر الحق .

٢ - والمؤمن في بذله هذا لا يستقل بإرادته ولا يصدر عن رأيه ولكنه يستمد كل حركة من حركاته وكل نفس من أنفاسه من الذي خلقه و يوقن بأن الأمر له جل شأنه فهو يتبرأ من حوله وقوته و يلجأ إلى حول الله وقوته و يوقن بأن الذي تم كله إنما هو بإرادة الله وتدبيره .



٣ - وحين يكتب له النصر فالنصر من عند الله وقد صنع بيد الله ليس للمؤمن منه إلا أنه جل شأنه اختاره موضعاً لإنفاذ إرادته ومكاناً لإتمام أمره فهو الذي هدى قلبه وربط جأشه وقوى عزيمته .

٤ - فالمؤمن أداة بيد الله يسير قلبه ويملك ناصيته و يوجه جل شأنه إرادته و يده. وهذا المعنى يحمل المؤمن على الإقدام في أمر الله وليس أمر الله بالهوى ولا اللعب ولكنه الحق والخير يقدم المؤمن على أمر الله راضياً مطمئناً لا يتردد ولا يخلف ولا يخشى لأنه إنما يفعل ما يريد الله ولأن الله معه يرعاه فكل ما يصيبه من أذى فالله جل شأنه أولى بعونه .

٥ - وهذا الاعتقاد دافع للمؤمن قبل الإقدام دفعا قويا ينزع من نفسه كل جبن ضعف وتردد ثم إنه بعد الفوز يناديه لست الظافر بقدرتك ولست المنتصر بقوتك ولكن هنالك قدرة الله وقوته قد يسرتا لك أسباب الفوز والنجاة فاسجد للذي أعانك و يسر لك وهكذا يطأطئ المسلم الفاتح رأسه خاشعاً لله متواضعاً أمام عظمته .

٦ - وليس معنى كل ما سبق أن المؤمنين أشباح لا أرواح فيها وصور لا معنى لها وجمادات لا إرادة تحركها ليس شيء من ذلك كذلك ولكنهم ذوو قلوب ربط الله عليها وثبتها وذوو إرادات قواها الله وأيدها وذوو عزائم شحذها الله وأمضاها .

وقد أودع الله جل شأنه كل نفس من القوى والطاقات ما لا يعرف حدوده ومداه الا الذي برأه فلدى العبد قدرة وقوة وإرادة منحها إياه القادر القوي المرید .

ولكن أكثر الناس يستمرثون الكسل و يسلمون أنفسهم الى الأرض و يعيشون لشهواتهم الرخيصة و محرضون على دنيا مهينة لا تعدل جناح بعوضة فتفسد القيم الحقيقية لديهم ولا يدركون الحق حقاً ولا الباطل باطلاً وهؤلاء لا يعرفون جهاداً ولا يغمون بقتال وتظل قواهم التي أودعها الله في نفوسهم معطلة وطاقاتهم دفينه .

أما المؤمنون فيدركون المعاني السامية يدركون معاني الخير والحق والمثل القوية فتملاً قلوبهم و يعيشون للنضال في سبيل الحق ...

وهؤلاء تنطلق قواهم وتوضع طاقاتهم كاملة في موضع العمل والتنفيذ .

فالقوى من عند الله والاستعدادات من خلقه واختيار العبد يتم بصنعه وكسبه واجتهاده يشعر به كما يشعر بوجوده ولا يرضى انسان بأن يوصف بفقدان الإرادة والاختيار ذلك أن فقدانها لغير الانسان السوي .

ولا يزال العبد في امتحان وابتلاء يصارع هواه ويجادل شهواته فإن غلبها بحول الله سار في ركب عباد الله المقربين وكان في زمرة المخلصين .

والأمر معجز لمن أراد الوصول الى كنهه وكشف سره وكيف يتاح للمخلوق ان يعرف سر الخالق وكنهه تدبيره والحجة قائمة. وخير للعبد أن ينصرف لجهاده ولما خلق له من ان يشغل نفسه بما لا يعنيه ولا يجديه نفعا .  
« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

روى ابن جرير وابن كثير قالوا: قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يوم بدر فقال « يارب ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا » فقال له جبريل « خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم » فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

وعن السدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين التقى الجمعان يوم بدر لعلي « اعطني حصا من الأرض » فناوله حصا عليه تراب فرمى به وجوه القوم ، فلم يبق مشرك الا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم فذكر تعالى رمية النبي صلى الله عليه وسلم فقال « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

وقال ابو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالوا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال شامت الوجوه! فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

قرن جل شأنه في الآية الكريمة بين فعلين أولهما صدر عن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه فأمر خارق ومعجزة تمت بأمر الله وعونه وأما فعل الأصحاب وهو قتل المشركين

فأمر جرت به العادة وألفه الناس وإن كان الغريب فيه انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

وهذا الاقتران بين الموضوعين يوحى بعمان منها أن كل ما يتم إنما يتم بأمر الله سواء في ذلك الأمور الخارقة للعادة والأمور المعتادة المألوفة فليست الأمور الخارقة للعادة وحدها من صنع الله ولكن كل ما يتم سواء أكان من صنع البشر أو من غير صنعهم إنما يتم بأمره « والله خلقكم وما تعملون » .

الأمور الخارقة التي تبدو لنا غريبة معجزة ليست الأمور المعتادة المألوفة بأقل منها غرابة وإعجازاً ولو أن إنساناً عاقلاً قيل له إن بذرة صغيرة تلقى في الأرض ستكون منها بعد قليل شجرة عظيمة باسقة ذات أغصان وفروع لاستبعد ذلك وكذبه فإذا قيل له إن هذه النطفة التي ألقيت في الرحم سيكون منها بعد قليل إنسان مثلك يفكر ويفض ويملأ الدنيا خيراً وبراً أو يعيث في الأرض فساداً ويملؤها شراً وبطراً لأنكر ذلك واستبعده وليس أمر النطفة بأقل إعجازاً من حفنة من تراب يرمى بها رسول الله فيصيب بها عيون ألف من البشر .

كان قتل المؤمنين للمشركين أمراً داخلياً في نطاق القدرة البشرية ورمي الرسول وإصابته العيون جميعاً أمراً بعيداً كل البعد عن الطاقة البشرية وقد قرن بين الأمرين ليستوثق الذين آمنوا بأن الفرق بينها ضئيل جداً في ميزان الإرادة الإلهية والتدبير الإلهي ، والكتاب الحكيم بدقة أسلوبه وإحكام تعبيره يقرن بينهما ليعلم أنها في الأصل لا يختلفان ثم يتأمل المتأمل فإذا التعبيران متميزان وتمايز التعبيرين ليعطي فرقاً دقيقاً بين المعنيين أما التمايز ففي أمرين أولهما أن رمي الرسول عليه صلوات الله وسلامه وجوه المشركين لم يذكر له مفعول فقال تعالى « وما رميت » في شأن الرسول وفي شأن الأصحاب « فلم تقتلوهم » وفي ذكر المفعول هنا إيناس للسامع وإشارة بأن القتل الذي وقع من الأصحاب هو قتل قد أوقعه المسلمون بالمشركين إيقاعاً محسوساً مشاهداً ولكن رمي الرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان مشاهداً ولكن يد القدرة الخفية كانت من ورائه ولذا نفي أصل الرمي عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينف أصل القتل بالنسبة للمؤمنين ولكن نفي تعلقه ليؤدي المعنى الذي سبق وخلاصته ان قتلكم المشركين المشاهد المحسوس لستم انتم الفاعلين له حقيقة ولكن الفاعل الحقيقي هو الله الذي أوجد أسبابه وأراد إيقاعه

فالجانب البشري في قتل المؤمنين للمشركين أشد ظهوراً من رمي الرسول وجوه المشركين .

والأمر الثاني قيل بشأن الرسول « وما رميت إذ رميت » ولم يقل بشأن الأصحاب « فلم تقتلوا حين قتلتكم » إذ المعنى رميتك التي رميتها لست أنت الذي رميتها فهو نفي للمشاهد المحسوس ولو قال ما قتلتكم حين قتلتكم لكان تناقضاً لأنه يكون نفيًا للقتل المحسوس المشاهد ولا يصح ذلك إذ المراد في حق الأصحاب إثبات القتل المشاهد ونفي كون المؤمنين هم الفاعلين له حقيقة وبالنسبة لرمي الرسول عليه الصلاة والسلام نفي الرمي حتى المشاهد المحسوس منه لأنه كان معجزة وراء الأسباب الظاهرة . وهكذا اجتمع الموضوعان وافترقا ، اجتمعا في الأصل وافترقا في الفروع وهذا إعجاز الله جل شأنه في خلقه وفي كتابه .

الآية الكريمة تدل على صدق الروايات التي وردت في موضوع رمية الرسول عليه صلوات الله وسلامه في غزوة بدر والروايات التي سبقت أسانيدھا صحيحة لا غبار عليها وإن المتأمل ليعجب لما لقيت الفئة القليلة المستضعفة من عناية الله وممته وجزيل إحسانه ، غشاهم النعاس وأنزل الله عليهم من السماء ماء ثبت به أقدام المسلمين وكان الماء عذاباً على الكافرين وأمدهم بالملائكة تثبت قلوبهم وأوحى جل شأنه إلى الملائكة أنه معهم وأنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين وأمر الملائكة بضرب الرؤوس وتفليق هام المشركين وحز رقابهم وبعد هذا كله أوحى إلى نبيه أن يرمي المشركين بالتراب والحصباء فلا يبقى مشرك إلا وقد دخل التراب في عينيه وفمه ومنخره . التراب في العيون والفرع في القلوب والملائكة تقبل من السماء ، لقد أطبقت المصائب إطباقاً فلم تدع لهم متنفساً .

كل هذا لأن الفئة القليلة أمثلت أمر الله وأطاعت رسوله وانتهى به الأمر إلى ساعة من ساعات الشدة التي يفرغ فيها المؤمن إلى الله ويستغيث بمن يجيب المضطر إذا دعاه فكان ما كان من عون الله ولطفه وحسن رعايته أما الذين يأوون اليوم إلى فراشهم آمنين رافلين بالنعمة لاهين عن المصيبة يسألون الله بألسنتهم لا بقلوبهم أن يدفع كيد الظالمين وهم في منازلهم دون أن يصل إليهم أذى ودون أن يمسه سوء هؤلاء قد زين الشيطان أعمالهم وصرفهم عن فهم كتاب ربهم وطاعته وامتثال أمره .

قال تعالى :

« وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ذكركم وأن الله موهن كيد الكافرين » .

خلق الله جل شأنه الموت والحياة ليبلي الناس أيهم أحسن عملا ولذا كان غرض الحياة الجهاد وليس مخلوق لا يناضل مكان فوق الأرض ، وأشرف أنواع الجهاد الجهاد في سبيل الحق ، ولا يزال الصراع قائما لا ينقطع ولا يهدأ بين أولياء الرحمن وأعدائه ، والمؤمن في كنف الله ورعايته وهب نفسه لخالقه وقدم حياته في سبيله والله من رحمته بالمؤمنين يشبت قلوبهم ويطمئن نفوسهم بأنه معهم ... ذلك أن المجاهد في سبيل الله أشد ما يكون حاجة إلى رعاية الله تثبت فؤاده وتربط على قلبه. وهذا غرض القرآن دفع المؤمنين إلى الجهاد ثم تشببت قلوبهم ففي كل طائفة من آيات الكتاب نداء للمؤمنين بأنه جل شأنه معهم وأنه ناصرهم وخاذل أعدائهم ومعذبهم .

كل ذلك ليثوب قلب المؤمن إلى ربه ولتسكن نفسه إلى خالقها وليتقدم في سبيل الله لا يعرف عجزاً ولا وهناً .

والآية الكريمة التي نحن بصددھا تصرخ بالمسلمين بأن الله جل شأنه قتل الكافرين في الموقعة التي تمت وهوقاتلهم في كل موقعة يتقابل فيها الفريقان: المؤمنون وهم صادقون مخلصون، والكافرون وهم مستكبرون ظالمون .

ثم قال تعالى : « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » .

أي أنه جل شأنه فعل ما ذكر لأموه يقدرها النظر منها : إقامة حجته وتأييد رسوله وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة ، وبالسيء ، فهو يستعمل في الخير والشر على حد قوله تعالى في بني إسرائيل « وبلوناهم بالحسنات والسيئات »

وفسر ابن جرير الآية بأثر يرويه عن ابن اسحاق عن عروة بن الزبير قال أي ليعرف المؤمنون نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه وليشكروا بذلك نعمته .

وقال ابو السعود : ليبلي المؤمنين أي ليعطيهم من عنده جل شأنه ( بلاء حسنا ) أي عطاء جيلاً غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره .

والتقدير رمى جل شأنه ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين .

قال في اللسان :

أبلى بمعنى أخبر وفي حديث ام سلمة : إن من أصحابي من لا يراني بعد أن فارقتني فقال لها عمر بالله أمنهم أنا ؟ قالت لا ولن أبلي احدا بعدك أي لا أخبر بعدك أحداً وأصله من قولهم أبليت فلانا يمينا إذا حلفت له بيمين طيبت بها نفسه .

ثم قال :

والله تعالى يبلي العبد بلاء حسناً و يبليه بلاء سيئاً وفي الحديث: اللهم لا تبلنا إلا بالتي هي أحسن أي لا تمتحننا . ويقال أبلاه يبليه إبلاء حسناً إذا صنع به صنعا جيلاً .  
والإبلاء الإنعام والإحسان والبلاء الاسم وهو الإنعام يقال: أبلاه بلاء حسناً وأبليته معروفًا وأبلاه خير البلاء أي صنعت به خير الصنيع .

وعلى هذا فأبلى بمعنى أخبر وبمعنى امتحن وبمعنى أنعم وأحسن وقد اختار الزمخشري الثالث ففسر لبلي بلاء حسناً بقوله ليعطي عطاء جيلاً وتابعه ابو السعود في ذلك والكلمة في أصل معناها تفيد الاختيار والامتحان وقد ضمن معنى العطاء ولذا كان البلاء بمعنى النعمة كما في الآية الكريمة ويجيء بمعنى النعمة .

والآية الكريمة تشعر بالإحسان من قبل الله جل شأنه وتشعر بالاختبار بالإحسان ليظل المؤمن في حال الإحسان إليه يقظ الضمير واعي الفؤاد لا يسترسل في النعمة ولا يركن إلى السبحوحة ولكنه يرى في أعماق نفسه أنه مبتلى بها ، موضوع تحت الاختبار والتجربة .

وهكذا لا يغفل المؤمنون ساعة النصر عن ذكر الله ولا ينسون شكر نعمته ويزدادون إيماناً بحمل رسالة الحق ويزدادون إمعاناً في تقديم أنفسهم في سبيلها ، وذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى « إن الله سميع عليم » فهو جل شأنه سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب ، وقد سمع جل شأنه استغاثة المؤمنين ربهم ودعاءهم إياه وحده وعلم صدقهم وإخلاصهم وهو جل شأنه سميع لكل دعاء ونداء يصدر منهم بعد ذلك اليوم ومن إخوانهم الذين يأتون من بعدهم وهو يسمع تباركت أسماؤه نداء المسلمين اليوم وهو عليم بما تنطوي عليه نفوسهم من ضعف ووهن ولن يغير الله ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال تعالى « ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » :

الأمر ذلكم الذي سبق والذي رأيتم وعلمتم في كل نزاع بين الحق والباطل والإيمان والكفر، ينصر الله الإيمان ويعلي كلمة الحق والأمر ذلكم الذي تحقق لديكم أيها المؤمنون إعزاز دينه ونصر كلمته والأمر أيضاً أن الله موهن أي مضعف كيد الكافرين يقول ابن كثير وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين مصغر أمرهم وتأكيدهم في أثر تأكيد ونص صريح بأن الله مع المؤمنين وأن كيد الكافرين مهما عظم فآله إلى الدمار وقد بلغ كيد أعداء الإسلام اليوم غايته تستم ذروته وأضحى المسلمون يكادون يرتابون في وعد الله و يكادون لا يصدقون بأن هؤلاء الذين ملكوا البحار والسهول والجبال وبلغ غزوهم الفضاء ما بلغ قد تكون ساعة دمارهم قريبة جدا فهي قوة مادية تبهرا الانظار وتأخذ بالألباب ولكنها ليست مقترنة بالأمن ولا بالسلام بل هي قوة تجعل العالم كله على بركان مستعر لا يدري متى تنطلق حممه وتنقذ نيرانه ومهما بلغ إليه حال المسلمين فبقية الخير لا تزال كامنة فيهم والحق الأبلج لا يزال فيما انطوى عليه كتابهم والأمل الوحيد في انتباهتهم .

قال تعالى « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فتكم شيئا ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين » .

روى ابن جرير وابن كثير عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير العدوي حليف بني زهرة أن المستفتح يومئذ أبو جهل وأنه قال حين التقى القوم : « أينا أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة » وكان ذلك استفتاحه فأنزل الله في ذلك « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » الآية (١) .

(١) قال الشيخ احمد محمد شاكر نبي تعليقه على تفسير ابن جرير : « عبد الله بن ثعلبة بن صغير العدوي » مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ورأسه زمن الفتح وقال ابو حاتم : رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير »

وقال البخاري في التاريخ : « عبد الله بن ثعلبة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلا أن يكون عن ابيه وهو أشبه ( وقد ذكرت ترجمته في الإصابة والتهديب ، وأسد الغابة ، والاستيعاب ) . وهذا الخبر رواه ابن اسحاق عن الزهري ورواه احمد في مسنده ( ٥ : ٤٣١ ) عن ابن اسحاق عن الزهري . ورواه الحاكم في المستدرک ( ٢ : ٣٢٨ ) عن محمد بن اسحاق عن الزهري . وقال « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .  
وقولهم أحنه أي أهلكه من حان الرجل أي هلك وأحانه الله أهلكه .

وروى ابن جرير عن السدي قال : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا : « اللهم انصر أعز الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين » فقال الله « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » يقول نصرت ما قلتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى ابن جرير عن يزيد بن رومان وغيره قال : قال ابو جهل يوم بدر اللهم انصر احب الدينين اليك ديننا العتيق أم دينهم الحديث فأنزل الله : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح »

يقول رشيد رضا وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغرورا بشركه واثقا بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمي مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبي صلى الله عليه وسلم وأقول هذا الذي ذكر من الكبر والعلو والحسد إنما كان يتمثل في ابي جهل في أقوى درجاته أليس هو القائل (١) حين سئل عما سمع من رسول الله عليه صلوات الله وسلامه من القرآن : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه من السماء فتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به ابدأ ولا نصدقه » .

ولعل استفتاح أبي جهل ودعائه السابق إنما كان يمليه عليه الغرور والتفاهم أمام أصحابه وأتباعه بأنه ما يريد إلا الحق وما يبغى إلا الخير وقد سبق إلى هذا فرعون إذ قال للملأ من قومه « ما أرى لكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » وهذا شأن أنصار الباطل اليوم يحملون شعارات هم أبعد الناس عنها وينادون بمبادئهم أعدى أعدائها ينادون بجمع شمل الأمة وهم الذين مزقوا شملها و يدعون أنهم ينصرون الحرية وهم يطمسون معالمها .

يقول صاحب المنار :

وقيل إن الخطاب في الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى إن تستنصروا ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلّة فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاثر في القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجادلته في الحق بعد ما تبين فهو خير لكم ، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهيج العدو ولن تغني عنكم كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فهذا نحن اولاء قد ناصرناكم على قلتكم وضعفكم . يقول هذا أقوى من كل ما

(١) : ابن هشام ج ١ ص ٣١٦



رأيناه في تصوير المعنى فأكثر ما قالوه ظاهر التكلف ولولا السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر. ويقول صديق حسن خان ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى قوله تعالى (ولن تغني عنكم فتكم شيئا) ويأباه أيضا « وأن الله مع المؤمنين » وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف .

أقول ويؤيد المعنى الأول الروايات الكثيرة التي سبق ذكرها وفيها ما هو على شرط الصحيحين كما أشرنا ويؤيده السياق أيضا إذ الكلام متصل تمام الاتصال بالآيات التي سبقت وهي توهين كيد المشركين .

سياق الآيات التي سبقت فيما امتن الله به على المؤمنين من إمدادهم بكل الوسائل المادية والمعنوية التي انتهت إلى الغلب على أعدائهم وقد وضعت الآية الكريمة حكما بأن الأمر كذلك في كل موقعة يواجه فيها المؤمنون الصادقون المخلصون أعداء الله ونصت الآية الكريمة على أنه تباركت أسماؤه موهن أمر الكافرين وكيدهم وقد كانت الموقعة نفسها أعظم موهن لكيد الكافرين . فلقد كان من ثمراتها رغب ملأ قلوب المشركين ولازم افشدهم وكان من ثمراتها أن استيقن الذين عاشوا من المشركين بعد الموقعة أن ما كان يحدثهم به زعماء الكفر وطواغيت الضلال أبو جهل وأصحابه من انتصارهم على أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه ما كان الا غرورا ولعل أبلغ ما وقع من ذلك استفتاح أبي جهل ودعاؤه عند عزيمته على القتال بأن ينصر الله فثته . لقد استفتح وجاءه الفتح وكان فتحاً إلى مقره في جهنم وليس من شك في أن المشركين أنفسهم كانوا يتحدثون بكل ما قال أبو جهل وبكل أنواع كيده وتغريه وقد انتهى كله إلى ما انتهى إليه أبو جهل وهذا أكبر الوهن في صفوف المشركين فالآية مرتبطة بأوثق رباط بالآية التي سبقتها والحديث كله موجه إلى المؤمنين يتخلله شئون متصل بالمشركين .

ذكر جل شأنه في الآية الأولى أنه موهن كيد الكافرين ثم التفت الخطاب للمشركين يذكرهم باستفتاحهم ، والاستفتاح الاستنصار وفي الحديث انه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم والرواية التي جاء فيها اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر تؤيد هذا المعنى ومعها الرواية الثانية التي جاء فيها اللهم انصر احب الفئتين إليك ، يقول صاحب لسان العرب : ويجوز أن يكون معناه إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء . يقول وقد جاء التفسير بالمعنيين جميعا . روي أن أبا جهل قال يومئذ : اللهم

أقطعنا للرحم وأفسدنا للجماعة فأحنه اليوم فسأل الله ان يحكم بحين من كان كذلك ،  
فنصر الله النبي صلى الله عليه وسلم وناله هو الحين يقول صاحب اللسان وكلا القولين  
جيد .

التفت الخطاب للمشركين يذكرهم باستفتاحهم ولم يكن التذكير بصورة الأخبار  
ولكنه جاء بصيغة الشرط والاستفهام وكان الجواب تهماً بالغا غايته فقد جاءهم الفتح  
الذي طلبوه وكان الفتح الذي توقعوه ما رجعوا به من ذل وانكسار وصغار، وفي هذا  
تثبيط لعزائم المشركين ليس بعده تثبيط وتيئيس لهم ، وكل ذلك توهين لكيدهم  
وإضعاف لأمرهم .

وبعد هذا كله فباب الرجوع إلى الحق مفتوح أمامهم ولا تألوا الآيات الكريمة جهدا  
في دعوتهم إلى نبيذ ضلالهم قال تعالى : « وإن تنتهوا فهو خير لكم » يقول ابن جرير  
معناه يامعشر قریش وجماعة الكفار إن تنتهوا عن الكفر بالله ورسوله وقاتل نبيه صلى الله  
عليه وسلم والمؤمنين به « فهو خير لكم » في دنياكم وآخرتكم ، ودعوة الناصح لا بد فيها  
من قول مرير ولا بد من بيان عاقبة المبطل إذا أصر على باطله وكان عازماً على الاستمرار  
في شروبه قال تعالى « وإن تعودوا نعد » أي إن تعودوا لحر به عليه الصلاة والسلام وقاتله  
وقاتل أتباعه نعد لمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر .

« ولن تغني عنكم فتكم شيئا ولو كثرت » والفئة الطائفة يقول ابن جرير : وإن  
تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أولياء الله وهزيمتكم ولن تغني عنكم عند العود إلى قتلكم  
وسبيكم « فتكم شيئا ولو كثرت » أي جندكم وجماعتكم كما لم يغنوا شيئا يوم بدر مع  
كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين « وأن الله مع المؤمنين » يقول جل ذكره وان الله مع من  
آمن به من عباده على من كفر به منهم ينصرهم عليهم و يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على  
المشركين والهمزة مفتوحة والتقدير ولأن الله مع المؤمنين كان كل ما ذكر .

وبعد هذا كله أفلا يجدر بالمؤمنين أن يكونوا حزب الله وأنصار رسوله أفلا يجدر بهم أن  
يسمعوا ويطيعوا وألا يتولوا عن أمر الله وأمر رسوله وهم معرضون يسمعون وكأنهم لا  
يسمعون . وإنما لصورة من أشنع الصور وأقبحها أن يسمع المؤمن نداء الله يناديه باسمه ثم  
يصم أذنيه وينكس رأسه ويمضي في سبيله صامتا متجاهلا أن النداء نداء القاهر فوق

عبادة وأن الصمت صمت القسوة والغفلة والإعراض إعراض العناد، وأن هذا الذي يدعي الإيمان و يسمع نداء الله ثم يصم اذنيه لهو جامد القلب متبلد الحس يخشى أن تكون هنالك وصلة بينه وبين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وهؤلاء عند الله شر مخلوق يدب على وجه الأرض .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .  
بعد الذي سبق كله ، من الآيات البينة والوعود الصادقة والتثبيت والتأييد وأنه جل شأنه مع المؤمنين بعد هذا كله ينادي الله المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله » .

إنه نداء الحليم الرحيم المشفق على أوليائه أن يتصفوا في حال من الأحوال بصفات الصم عن سماع الحق ، البكم عن النطق به ، والدعوة إليه ، الذين لا يعقلون للحق معنى ، ولا يدركون له فرضا .

إنه نداء المشفق على أوليائه المحذر لهم الذي يخشى أن يقع من بعضهم شيء مما يقع من أولئك الذين يخالفونهم في الإيمان و يباينونهم في إدراك الحق أولئك الذين فارقوا صفات البشرية وانخطوا إلى أدنى الدرجات واستحقوا أن يوصفوا بأنهم شر الدواب : إنهم ينظرون ولكنهم لا يبصرون و يسمعون ولكنهم لا يعون و يفكرون ولكنهم لا يعقلون « لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعمى لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . وإن الذين يحملون اسم الإيمان إذا سمعوا نداء الله ونداء رسوله فتولوا وأعرضوا عنه فشأنهم شأن الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

والأمر بطاعة الله في أمر الجهاد فهو موضوع الآيات وعليه يدور الحديث .

نهى الله المؤمنين عن التولي وهو الانصراف والإعراض قال تعالى ( ولا تولوا عنه ) أي عن الرسول لأن طاعة الرسول عليه صلوات الله وسلامه من طاعة الله ، قال تعالى ( ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ) ، : نهى الله المؤمنين عن التولي والحال أنهم يسمعون ما يتلى عليهم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وفيها الأمر بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره وهم يصدقون بها وليسوا كالصم البكم .

والسمع ههنا سماع الفهم والتصديق والإذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين يقولون « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » الذي يصفهم جل شأنه بقوله « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

وحذر الله المؤمنين أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون قال تعالى « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » هؤلاء هم اليهود والمشركون المعاندون والمنافقون. وقد قال تباركت أسماؤه في الفريق الأول « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » وقال تعالى في المنافقين « ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟ »

نهى الله المؤمنين أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وبيّن جل شأنه أن هؤلاء هم الصم البكم الذين لا يعقلون وهم شر الدواب قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » الدواب جمع دابة وهي كل ما يدب على وجه الأرض قال تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » وقيل يستعمل هذا اللفظ ( الدواب ) في الإنسان وحده وإنما يغلب في الحشرات ودواب الركوب فإذا استعمل في الدلالة على الإنسان كما هو الشأن في الآية الكريمة فهو يشعر بالاحتقار، على أن إطلاق الدابة على الإنسان حقيقة لا مجاز، جاء في المصباح الدابة كل حيوان في الأرض مميزا أو غير مميز. والمعنى على هذا إن شر ما يدب على الأرض في حكم الله جل شأنه هم الأشرار من البشر « الصم » الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا يفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته « البكم » الذين لا يقولون الحق كأنهم فقدوا قوة النطق « الذين لا يعقلون » أى فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل و يفرق بين الخير والشر .

قال القرطبي :

دلّت الآية على أن قول المؤمن سمعت وأطعت لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه

بامثال فعله فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها واعتمد النواهي فافتحمها فأني سمع عنده وأي طاعة؟ وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان ويسر الكفر وذلك هو المراد بقوله «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» يعني بذلك المنافقين أو اليهود أو المشركين. ثم أخبر الله تعالى أن الكفار شر ما دب على الأرض. وفي البخاري عن ابن عباس «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» قال هم نفر من بني عبد الدار.

والآية الكريمة تشير إلى موضوع هام يتصل بهذه النفوس البشرية وموقفها من كلمة الحق فبعض النفوس إذا استمعت إلى نداء الحق كانت كالأرض الخصبة الندية الطيبة تهش للفكرة الصالحة كما تهش الأرض الطيبة لقطرة الغيث ثم تهتز وتربو ثم تنبت أطيب النباتات. تتقبل الأرض الطيبة قطرة الغيث فتدخل في ثناياها وتختلط في أجزائها وتتحد وعناصرها وتكون وحدة متداخلة متمازجة لا يمكن فك عنصر منها من العناصر الأخرى ومن هذا الامتزاج يتغذى النبات وينمو ويزدهر ويثمر. وبعض النفوس إذا استمعت إلى صرخة الحق كانت كالأرض الصلبة القاسية تماسكت ذراتها وغلفت قشرتها فهي لا تسمح بقطرة تنفذ إلى داخلها وذرات القطر مهما انهمرت فوقها لا تلبث أن تمر على قشرتها وتزول على سطحها.

وهكذا تدخل دعوة الحق إلى بعض النفوس فتغلغل في ثناياها وتختلط بأجزائها وتتحد بعناصرها وتصبح جزءا من النفس فعلا مؤثرا فيها دافعا قويا بل قد تهيم الفكرة على النفس حتى تكون شغل المرء الشاغل ليله ونهاره غدوه ورواحه وتصبح غاية الجهد وأمل الحياة.

وهكذا تلقى أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه دعوة الإيمان، فتحوها قلوبهم فاستقرت في أعماقها واختلطت بأجزائها وعاشوا من أجلها وماتوا في سبيلها. وصد عن دعوة الحق أكابر مجرمي قریش فلم يفقهوا لها معنى ولم يفتحوا لها قلبا ولم يسمحوا لقطرة من دعوة الحق أن تجد سبيلا إلى نفوسهم ولم يقتصروا على ذلك ولكنهم صدوا الناس عنها وبذلوا دماءهم في حربها ومات كثير منهم وقلوبهم خواء مظلمة.

لم يقبل بعض الناس دعوة الحق ولم يعرض عنها آخرون، يقابل كل انسان كل دعوة

تعرض عليه وكل فكرة تقدم إليه بالرصيد النفسي الذي لديه والرصيد النفسي يتكون من المواهب التي منحها الله جل شأنه كل إنسان والاستعدادات التي فطر الله كل إنسان عليها يضاف إلى ذلك البيئة التي يعيش فيها الإنسان والظروف التي يتقلب فيها والتربية التي يتلقاها . وكل هذه العوامل والأسباب تجعل الناس مختلفين متباينين فكل إنسان عالم مستقل لا يصل إلى داخله إلا صاحبه ولا يدري بحقيقته إلا الذي خلقه وصوره فإذا ألقينا فكرة واحدة على عشرين إنسانا تقبلها كل إنسان تقبلا خاصا وفهمها فهما خاصا وكان لدينا مقابل فكرة واحدة يعرضها إنسان واحد عشرون فهما يتقارب بعضها ويتباعد بعضها الآخر حسب تقارب الأفراد في الذكاء وظروف الحياة والتربية والثقافة .

إنك لتلقي فكرة على جمهور من الناس يعد بالمئات فتجد أن الذين استجابوا لك استجابة تامة وفهموا عنك فهما تاما لا يكادون يجاوزون أصابع اليد وهكذا كانت استجابة قريش لدعوة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه .

يتقبل المرء الفكرة بالرصيد النفسي الذي لديه وتنزل الفكرة فتجد أفكاراً سابقة وعواطف متعددة واستعدادا خاصا فإما أن تجد لها مكانا بين هذا كله وإما أن تنبذ وتستبعد وتطرح ، فالفكرة الجديدة كقادم جديد يأتي جماعة إما أن يجد الإلف لديهم وحسن الصحبة فيألف ويؤلف وإما أن يجد فيهم جفوة ومجدوا فيه نبوة فيلفظوه ويبعدوه .

ومن كل هذا يتبين أثر الرصيد النفسي في تقبل دعوة تطرق باب نفس من النفوس فهي إما أن تجد لها أنصارا وأعواناً ومعارف وإما أن تجد أعداء منابذين منكرين .

والذي نشأ على الجشع والطمع والحرص على دنياه وملذاته ومنافعه ماذا يكون موقفه إذا دعي للخروج من ماله في سبيل الله أو تقديم نفسه أو ولده؟ لا تجد هذه الدعوة أنصاراً في نفسه ولا تجد لها مكانا في قلبه وهي دعوة حق يجب أن تنفذ ولكن النفس تأبأها ولا تألفها ، فهي وإن كانت حقا فلتجد النفس التعلات للخروج منها .

عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله أمورا وهو يرجو أن يقبل عليه صلوات الله وسلامه بعضها ويكف عن دعوته إلى عبادة الله وحده . عرض عليه المال وعرض عليه الجاه والسؤدد وعرض عليه الملك وعرض عليه النساء وقد عرض عليه في الحقيقة رصيد نفسه ومطمح أمله وغاية ما يرجو في الحياة ومن كان هذا رصيده النفسي صعّب عليه جدا

أن يفقه مثل دعوة محمد عليه صلوات الله وسلامه ولعله لم يستطع أن يتصور بشراً يدعو إلى مثل ما يدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام .

وأكثر المسلمين اليوم لا يختلف رصيدهم النفسي عن الرصيد الذي لدى عتبة بن ربيعة يضاف إليه معان إسلامية موروثية ليست في صميم النفس ولكنها على هامش الحياة وفي قشرتها والمسئول عن ذلك التربية في المنازل وفي المدرسة ، تلك التربية التي لا تؤدي إلى غرس المعاني الإسلامية ولا تكون رصيذا نفسيا إسلاميا ووسيلة ذلك أن يعيش الطفل في جو متطلع تطلعا حقيقيا إلى المعاني الإسلامية جوتشيع في جنباته ذكريات أبطال الإسلام وشهداء الإسلام ورجالات الإسلام وتغلب عليها معاني الايمان والتضحية في سبيل الإسلام .

قال تعالى « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » وصف الله تباركت أسماؤه الذين سكرت أبصارهم وعميت قلوبهم عن الحق بأنهم صم بكم ووصفهم جل شأنه بقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ووصفهم بقوله « صم بكم عمي فهم لا يعقلون »

والذي فعله هؤلاء بأنفسهم وفعله بهم مُرَبُّوهم أنهم غمسوهم في شهواتهم وأسلموهم إلى أهوائهم ففسدت فطرتهم واعتلت قلوبهم واختلت موازينهم ونكست المعاني والقيم لديهم ، ولا يحمي ضلال هؤلاء إلا الباطل والزيف والانحراف أما الحق الواضح الأبلج فلا يريدون أن يروه أو يسموه وأنه لسير على هؤلاء أن يدركوا حقيقة أو ينكشف لهم هدى لأن بصائرهم قد طمست وفطرتهم قد غشيت .

وتقترن دعوة هؤلاء بالظلم والكبر والطفيان كما تقترن بالاستسلام للشهوات فإذا دعي هؤلاء إلى الحق والعدل والإنصاف والكف عن الاسترسال في الشهوات وجدوا أنهم يدعون إلى ما لا قبل لهم به .

لم يبق في نفوس هؤلاء مقدار ذرة من خير ولو وجدت لكانت سبيلا إلى هدايتهم إلى الحق ولكنهم عدموا كل خير وكانوا في ظلمة مطبقة . قال تعالى « ولو علم الله فيهم خيرا » أي خير ولو خيرا يسيراً لأسمعهم والآية نص صريح بأن هؤلاء فقدوا دواعي الخير كلها .

فإذا لاحت لأنفسهم بارقة من بوارق الأدلة الناصعة وإذا مرت في خواطرهم ومضة من ومضات الحق المشرقة أعرضوا عنها وبعادوا بينهم وبينها ، فإذا ذكر أحد هؤلاء أو ذكر أن حياته ستنتضي ، ما في ذلك ريب ، وسيصل إلى نهايته وفي الموت عبرة مها قست القلوب وله هزة مها غلظ حجاب النفوس ولكن المعاند يضيق صدره قليلاً لحاظر الموت ويشعر بحيرة وظلمة ثم لا يلبث أن يطرح كل هذا ليعود إلى غيه .

يقول تعالى لم يبق في قلوبهم مثقال ذرة من خير ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم جل شأنه ولو جاءهم ما يصدم قلوبهم ويزلزل أفئدتهم لما تنازلوا عن عنادهم قال تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » ولو أسمعهم جل شأنه لتولوا وحالمهم أن الإعراض مستقر في نفوسهم راسخ في طباعهم .

يقول ابن جرير في تفسير الآية الكريمة ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيراً لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان معاندون للحق بعد العلم به .

وقال سيد قطب عليه رحمة الله « لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم أي لأسمع ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا : ولو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة والاستجابة هي السماع الصحيح وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب » .

وفي الآية الكريمة في نظرنا تنبيه إلى أمر خطير جداً هو التربية ، إن تربية كثيرين من الناس تؤدي بهم إلى انعدام الخير في نفوسهم فيكون حالهم كما وصفت الآية الكريمة ، أما تربيئتنا الحالية في منازلنا ومدارسنا ففيها تعهد يسير لبذور الخير التي أودعها الله قلوب أبنائنا تعهد يسير دون ما يجب ولذا لا تجد هذه البذور العناية الكافية ولا تجد الأجواء الصالحة لتنمو وترعرع وتزدهر وتثمر وحق على الآباء أن يرعوا بذور الخير هذه في أبنائهم وأن يقدموا لهم من الجهد والوقت والخبرة ما ينمي هذه المعاني ويصل بها إلى غاياتها الطيبة ، ويتصل بالموضوع أن الذي عاش في الديار الغربية على شرورها ومآسها



وسياتها يجد لدى عدد من الأفراد من الفطر المستعدة لقبول الحق ما يجعله يعود باللوم على المسلمين في تقصيرهم في تبليغ الدعوة التي وضعت في أعناقهم. ولو يسر لهؤلاء الغربيين دعاة مخلصون يدعون بالحكمة والموعظة الحسنة لكان للاسلام أنصار كثيرون في تلك الديار التي ما يزال أهلها يجهلون الاسلام على حقيقته جهلا مطبقا .

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون » .

الخطاب للمؤمنين المصدقين ، والاستجابة الاجابة ، هكذا قال في لسان العرب . يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له . ونقل صاحب تفسير المنار عن الراغب أن أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للإجابة فحل محلها . يقول صاحب المنار « والأقرب إلى الفهم قلب هذا وعكسه وهو أن الاستجابة هي الإجابة بعناية واستعداد فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة » .

والمعنى على هذا « فأجيبوا الدعوة بعناية وهمة وعزيمة وقوة فهو كقوله تعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . أقول وحبذا هذا الفهم إن أيدته كتب اللغة .

وقال صاحب الكشاف المراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالذعوة البعث والتحرير .

ولقد ذكرت الطاعة في الآية التي سبقت فالأرجح أن تكون الاستجابة أمرا زائدا عليها وأن تكون ثمرة الطاعة وأن يراد بها الإجابة الفعلية المقترنة بالمبادرة إلى امتثال الأمر واجتناب النهي بجد واهتمام .

وأما قوله تعالى لما يحييكم فقال فيه ابن كثير قال مجاهد « للحق » وقال السدي هو الاسلام فيه إحياءهم بعد موتهم بالكفر وقال محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عمرو الزبير أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وقال القرطبي المراد بقوله لما يحييكم الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر لأن العدو إذا لم يُغزغزا وفي غزوه الموت والموت في الجهاد الحياة الأبدية . قال الله عز وجل « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »

فهذه أقوال أربعة أما الثلاثة فهي متقاربة فالإسلام هو الحق والقرآن هو كتاب الإسلام وزاد بعض المفسرين التوحيد ففيه حياة القلوب والعلم بالله تعالى وسننه في خلقه وأحكام شرعه يقول الزمخشري: لأن العلم حياة كما أن الجهل موت . قال القرطبي: والصحيح العموم كما قال الجمهور يعني الاستجابة لكل ما تضمنه القرآن والإسلام من أوامر ونواهي .

وليس من شك في أن قوله « استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » يفيد العموم والاستجابة لأوامره جل شأنه كلها ولكن الحديث في الآيات يدور حول موضوع معين ويرمي إلى غرض واضح قد أعطي من العناية قسطا كبيرا وهو الجهاد ومن العناية الكبيرة به أن الأوامر جعلت نداءات يعقب بعضها بعضا وكان النداء الأول في عدم الفرار من الزحف والنداء الثاني بضرورة طاعة الله ورسوله والنداء الثالث في الاستجابة لدعوة الله ورسوله . فطلب الطاعة والاستجابة كل ذلك سبق في موضوع الجهاد ولذا فنحن نؤثر قول القائلين بأن المراد بقوله تعالى ( لما يحييكم ) الجهاد لما له من أثر كبير في حياة الأمة ولما لتركه من أثر في موت الأمة واستذلالها وكون الجهاد فيه الحياة شأنه في ذلك شأن كل ما أمر الله به فالآية تفيد أن كل ما دعا إليه الرسول عليه صلوات الله وسلامه فيه الحياة وقد دعا إلى الجهاد فالجهاد فيه الحياة .

كل ما دعا الرسول إليه فيه الحياة ، والإسلام هو متكامل لا يمكن أخذ بعضه وترك بعضه الآخر ، وأكثر المسلمين اليوم نسوا فرض الجهاد وتركوه ، فانتهى الحال بالمسلمين إلى ما انتهى إليه وما تركوا الجهاد إلا لخلل في العبادات التي يقومون بها ونقص في الإيمان ذلك أن الجهاد ثمرة الإيمان وثمره التقوى فإذا لم يؤدي إلى ثمرتها وهي بذل النفس والمال دل ذلك على أن فيها خللا ونقصا .

وقد وحد الضمير في قوله دعاكم ( أي الرسول ) لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى وقال الزمخشري لأن استجابته صلى الله عليه وسلم كاستجابته تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد .

وقال سيد قطب عليه رحمة الله ( إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يدعوهم إلى ما يحييهم ... ) إنها دعوة إلى الحياة وبكل معاني الحياة .

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول وتطلقها من إفسار الجهل وسلطان الأوهام ومن العبودية لغير الله .

و يدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الانسان وتكرمه يقف فيها البشر كلهم صفا واحدا متساوين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب ولا طبقة في أمة ولا جنس في جنس ولا قوم في قوم ولكنهم ينطلقون أحرارا متساوين في ظل شريعة صاحبها رب العباد .

و يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم وبربهم والانطلاق في الأرض كلها لتحرير الانسان واخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق انسانيته التي وهبها الله فاستلبها منه الطغاة .

و يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله لتقرير ألوهية الله سبحانه في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله سبحانه وحاكميته وسلطانه ، حتى يفيثوا إلى حاكمية الله وحده وعندئذ يكون الدين كله لله حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

والتعبير القرآني هذا كله في كلمات قليلة موحية :

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »

يتصل بالآية الكريمة حديث رواه البخارى في الصحيح عن سعيد بن المعلى قال ( كنت اصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، أو قال فلم آتته حتى صليت ثم أتيت فقلت يا رسول الله إنني كنت أصلي فقال : ألم يقل الله استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم ) الحديث وروى الترمذى والحاكم من حديث ابي هريرة انه دعا أبا بن كعب وهو في الصلاة وذكر نحو مما رواه البخارى عن أبي سعيد وصححه . وقال الحافظ بن حجر في باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث وفيه أن إجابة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لا تفسد الصلاة هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث ... الى آخر ما يقوله .

يقول السيد رشيد رضا : وفي متن الحديث شيء من الاضطراب على أنه لا يتعلق به بعده صلى الله عليه وسلم عمل .

وأحق من هذا بالبيان ان طاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه من أمر الدين كبيان لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو كان البيان بالفعل في قوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية وأما غير القطعي رواية ودلالة من سننه فهو محل الاجتهاد فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين فينبغي له الاهتداء به ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاماً يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه ، إلا الأئمة أولي الأمر فتجب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لإقامة الشرع وصيانة النظام العام وعلى هذا جرى السلف الصالح وجميع أئمة الأمصار من كلامهم أن المجتهد لا يقلد مجتهداً وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معيناً في دينه ولكن من عرض له أمر يستفتي فيه من يطمئن قلبه لعمله بالكتاب والسنة و يأخذ بفتواه إذا اطمان لها وقد امتنع الإمام مالك عن إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من إلزام الناس العمل بكتبه حتى الموطأ الذي هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها .

السيد رشيد رضا

القول من يقول أمياً من يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الامتثال بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسى به في كل زمان إلى يوم القيامة بل نقول إننا نهتدي بخلفائه الراشدين وأئمة الأمصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين ، نهتدي بهم في آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة ولا نسمى شيئاً منها ديناً ندين الله به إلا ما ثبت في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه المتقدم ، وأما السنن والإرشادات النبوية في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكراً لأنه تشريع لم يأذن به تعالى . انتهى قول السيد رشيد رضا .

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بأن نقف عندها يسيرا ولعل الشيخ عليه رحمة الله تأثر بشيخه فيها وبما كان في عصره من دعوة إلى التجديد في كل شيء في اللباس والمطعم والمشرب والعادات ونحن نحسب أن الموضوع خطر وأنه من صميم الدين ذلك لأن العادات والأعراف في المطعم والمشرب والملبس تتصل بحضارة الأمة وتتصل بمثلها ومفاهيمها وأخلاقها ومن عادة الأمم الغالبة أنها تريد أن تفرض عاداتها ومناهجها في الحياة وكل مظاهر حضارتها على الأمم المغلوبة ومن طبيعة الأمم المغلوبة أنها تأخذ في تقليد الأمم الغالبة وما تزال تسير في هذه الطريق حتى تضيع مميزاتها وتفقد شخصيتها وتذوب في أمة أخرى ومعنى ذلك ترك الأمة لمثلها ومعانيها السامية والإعجاب بمثل الأمة الغالبة، واللباس مثال واضح في الموضوع ولقد أخذت الأمم الإسلامية بارتداء اللباس الغربي وأصبح زي الآباء والأجداد الذي يتصل بعادات الأمة ومفاهيم الأمة وما ألفت من حياء وحشمة أصبح محتقرا في أكثر البلاد وأصبح الزي الغربي الذي لا يراعي حياء ولا يقدر للحشمة وزنا هو الزي المحبوب المحترم ولم تقتصر الفتنة على الرجل ولكنها بلغت النساء وكانت شرا مستطيرا . روى احمد وابوداود والطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من تشبه بقوم فهو منهم » ( ١ )

قال تعالى :

« اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »

قال ابن جرير اختلف أهل التأويل في قوله تعالى يحول بين المرء وقلبه فقال بعضهم معناه يحول بين الكافر والايامن وبين المؤمن والكفر وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال بين الكافر أن يؤمن وبين المؤمن أن يكفر . وروى ابن كثير هذا القول عن ابن عباس

( ١ ) : قال صاحب كشف الخفاء في سنه ضعف كما في اللائئ والمقاصد لكن قال العراقي سنه صحيح وله شاهد عند البزار عن حذيفة وابى هريرة وعند ابي نعيم في تاريخ اصبهان عن أنس وعند القضاعى عن طاوس مرسلا وصححه ابن حبان .

اقول وقال ابن حجر فى الفتح سنه حسن وقال ابن تيمية سنه جيد وقال ابن تيمية هذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بأهل الكتاب وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » وهو نظير قول ابن عمرو من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجاناتهم وتشبه بهم حتى يموت حشريوم القيامة معهم فقد حل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر و يقتضي تحريم أبعاض ذلك .

وقال : رواه الحاكم في مستدرکه موقوفا وقال صحيح ولم يخرجاه ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . يقول ابن كثير ولا يصح لضعف إسناده والموقوف اصح .

وقال آخرون بل معنى ذلك يحول بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل . وروى بسنده عن مجاهد قال يحول بين المرء وعقله . وفي رواية أخرى عن مجاهد يحول بين المرء وقلبه قال إذا حال بينك وبين قلبك كيف تعمل ؟

وعن السدي قال يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . وقال آخرون معنى ذلك أنه قريب من قلبه لا يخفى عليه شيء أظهره أو أسرته وروى بسنده عن قتاده أنه قال هي كقوله « أقرب إليه من حبل الوريد »

قال ابو جعفر وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال أن ذلك خير من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئا أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيته وذلك أن الحول بين الشيء إنما هو الحجز بينها وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيل .

وإذا كان ذلك معناه دخل في ذلك قول من قال يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والايان وقول من قال يحول بينه وبين عقله وقول من قال يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما منع إدراكه به على ما بينت .

غير أنه ينسغي أن يقال : إن الله عم بقوله « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخص من المعاني التي ذكرنا شيئا دون شيء والكلام محتتمل كل هذه المعاني فالخير على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له .

يقول ابن كثير: وقد وردت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يناسب هذه الآية روى الامام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك « قال فقلنا يارسول الله آمننا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله

تعالى يقلبها وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر ثم قال حسن وروى الإمام أحمد عن  
 ابي ادريس الخولاني يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول:  
 سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع  
 الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاعه » وكان يقول « يا  
 مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال « والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه » وهكذا  
 رواه النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله وروى  
 الإمام أحمد عن الحسن أن عائشة قالت : دعوات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يدعوبها « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن  
 تدعوبها بهذا الدعاء فقال « إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاعه وإذا  
 شاء أقامه »

وروى الامام أحمد أيضا عن أم سلمة تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان  
 يكثر في دعائه يقول : « اللهم مقلب القلب ثبت قلبي على دينك » قالت فقلت يا رسول  
 الله أو أن القلوب لتقلب ؟ قال نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين  
 من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه فنسألك الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد  
 إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب قالت فقلت يا رسول الله ألا  
 تعلمني دعوة أدعوبها لنفسي ؟ قال « بلى قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي  
 واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحبيتي » .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر أنه سمع صلى الله عليه وسلم يقول : إن  
 قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء ثم قال  
 صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك . انفراد بإخراجه  
 مسلم عن البخاري ورواه النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به .

ذكر المفسرون في الآية الكريمة أقوالاً أوصلها ابن الجوزي إلى عشرة أحدها يحول بين عشرة أ  
 المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الايمان » رواه ابن طلحة عن ابن عباس وبه قال لقوله تعالى  
 يحول بينه وبين  
 سعيد بن جبيرة الثاني يحول بين المؤمن وبين معصيته وبين الكافر وبين طاعته . رواه  
 العوفي عن ابن عباس وبه قال الضحاك والقراء . والثالث يحول بين المرء وقلبه حتى لا

يتركه يعقل قاله مجاهد قال ابن الأنباري المعنى يحول بين المرء وعقله فبادروا الأعمال فإنكم لا تأمنون زوال العقول . والرابع هو قريب من المرء لا يخفى عليه شيء من سره كقوله « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وهذا معنى قول قتادة . والخامس يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا بإذنه قاله السدي . والسادس : يحول بين المرء وبين هواه . والسابع : يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره . والثامن : يحول بين المرء وقلبه بالموت فبادروا الأعمال قبل وقوعه . والتاسع : يحول بين المرء وقلبه بعمله فلا يضم العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به لا يقدر على تغييبه عنه .

والعاشر : يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن فيأمن بعد خوفه ويخاف بعد أمنه وحكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم فدخل الخوف قلوبهم أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبده الخوف الأمن و يبذل عدوهم بالقوة الضعف . قال ابن الجوزي وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو مقلب القلوب المتصرف فيها .

وقد حكى أبو حيان التوحيدي القول العاشر بعبارة أوضح قال : وقيل معناه أن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسح عزائمه و يغير نيته ومقاصده و يبده بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً وبالنسيان ذكراً وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى .

ونسب القول الثامن إلى علي بن عيسى قال وقال علي بن عيسى هو أن يتوفاه لأن الأجل يحول بينه وبين أمل قلبه وهذا حث على انتهاز الفرصة قبل الوفاة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب ومخالجة أدوائه وعلله ورده سليماً كما يريد الله فآغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله . أهـ قال أبو حيان وهو على طريقة المعتزلة وعلي بن عيسى هو الرماني وهو معتزلي قال أبو حيان وقاله الزمخشري أيضاً .

والمعنى الذي نختاره هو الذي اختاره ابن جرير الطبري أن الله أملك لقلوب العباد أنفسهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته تعالى .

وكل الأقوال العشرة تتدرج تحت هذا ولا تخرج عنه ومؤداه أن الله جل شأنه مالك قلوب العباد يتصرف بها كما يشاء ومن تصرفاته ما ذكر في الأقوال السابقة ومنها أنه يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل ( وهذا هو القول الثالث من الأقوال السابقة ) وهذا المعنى هو الأنسب بسياق الآيات وعرضها في نظرنا وهو الذي يتفق وما تعطيه اللغة أيضاً ذلك أن القلب هو أداة الوعي والإدراك والتمييز بين الخطأ والصواب والخير والشر فإذا حيل



بين المرء وعقله أو بين المرء وقلبه كان كمن عطل قلبه فلا يستطيع إدراكا ولا تمييزا وقولنا حيل بينه وبين قلبه كقولنا حيل بينه وبين سمعه أو بصره أو ماله إذا افتقد سمعه أو بصره أو ماله أو كانت هذه الأدوات موجودة ولكنه غير قادر على استعمالها ومن ذلك قوله تعالى ( وحال بينهم الموج فكان من المفرقين ) لقد حال الموج بين نوح وابنه فلم يعد هنالك إمكان لعود التلاقي بينها وهكذا يحال بين المرء وعقله فيتعذر إمكان التلاقي بينها .

وهذه الحال تتحقق بالموت والإغماء وبالجنون المطبق في حالة السكر ولكن حالاً شبيهة بالسكر أو الجنون تعتري المرء وهو في حالة الإفاقة فلا يستطيع التمييز بين الخير والشر ولا الخطأ والصواب ولا يستطيع بحال أن يرى الحق حقاً ولا الباطل باطلاً وقد وصف الله جل شأنه الناس يوم القيامة بأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد والموقف الذي أسكر الناس هو يوم الزلزلة حين يعم الهلع ويستولي الفزع وتذهب الدهشة بالقلوب .

وهذا المعنى كما أسلفنا هو الذي يناسب سياق الآيات إذ الغرض تربية المؤمنين أن يمتثلوا أمر الله ويستجيبوا لندائه ، ولقد أمرت الآية الأولى المؤمنين بالطاعة لله ورسوله وحذرتهم أن يكونوا كالذين سكرت أسماعهم الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وهؤلاء هم الصمم البكم الذين لا يعقلون ثم أمرت الآية الثانية بالاستجابة لله ورسوله وحذرت المؤمنين من الوقوع في حال يفقدون معها الانتفاع بقلوبهم كمن قال تعالى في شأنهم « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ومن ذلك السكر بالدنيا بزخارفها ومفاتها والتنافس في جمعها والتكاثر فيها وما يصرف المرء عن امتثال أمر الله ورؤية الحق كحب الدنيا والانغماس فيها ولذلك قال الله تعالى « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » مخاطبا المؤمنين على أثر إنكاره جل شأنه عليهم التباطؤ في الاستجابة إلى دعوة الرسول حين دعاهم إلى النفرة في غزوة تبوك قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض »

حب الدنيا والانغماس في ملذاتها يحول بين الانسان وقلبه فلا يرى الحق حقاً ولا ينهض في مثل هذه الحال للقيام بأمر ربه ويصبح حاله حال من حيل بينه وبين قلبه .

من صفات والآية الكريمة من آيات الإعجاز بما تضمنته من معان تتصل بصفة من صفات الله <sup>تفرد به الخلق</sup> وهي تفرد جل شأنه بالخلق والتدبير واستقلاله بتصرف الأمور وتقديرها فليس له في ملكه منازع وليس في الأرض ولا في السماء سلطان غير سلطانه ولا مشيئه غير مشيئته .

ولكن السلطان الذي نتحدث عنه الآية الكريمة سلطانه جل شأنه على القلوب وملكه لها يصرفها كيف يشاء و يقلبها كما يشاء ، ولما كانت القلوب مركز الوعي والإدراك والتمييز والحكم للتمييز بين الخير والشر والحكم على الخطأ والصواب والفصل بين الحق والباطل إلى جانب الشعور والوجدان والتصميم والإرادة كان مجال الآية الكريمة النفس البشرية في ما انطوت عليه من نوازع ودوافع وغرائز وعواطف وعادات مكتسبة واستعدادات متباينة مكتسبة واستعدادات متباينة مختلفة في تقلباتها وتغيراتها وهو مجال فسيح وعالم متباعد الأرجاء وإذا كان القادر الحكيم جل شأنه هو مالك النفوس وهو المتصرف بها وهو الذي يسيرها فأين تقع مسؤولية هذه النفوس وما هو مجال عملها وما هو مدى إرادتها واختيارها؟ كل هذه المعاني قد انطوت في ثنايا الآية الكريمة التي تعد حروفها ويتعذر على القارئ أن يحيط بمعانيها ومجد التأمل في ما كتب المفسرون أن كلاً منهم قد بذل الوسع في تبين جانب من جوانب الآية الكريمة .

وأضاف كل لاحق جزءاً يسيراً إلى ذكره السابق وظلت الآية الكريمة عالية مشمخة كأموج البحر الزاخر تتوالى الأجيال وما أدرك المدركون من معانيها إلا الجزء اليسير .

«قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا» .

الحقيقة التي تقررها الآية الكريمة أن الله تباركت أسماؤه يحول بين المرء وقلبه أي يفصل ويحجز بينها وهذا الحجز بين المرء وقلبه إنما يكون في ساعة حاجة المرء إلى قلبه والقلب هو الأداة التي يكون بها الإنسان إنساناً وحاجته إلى قلبه لا تنقطع ولكنه في بعض أحيانه يكون أشد احتياجاً إلى قلبه منه في أحيان أخرى ، فاذا بحث المرء عن أداته الوحيدة ووسيلته التي لا وسيلة غيرها في ساعة من ساعات الشدة فاذا هو قد افتقدها وأضاعها وهو لا يستطيع الوصول إليها بحال فأى حرج أكبر من ذلك الحرج وأي شدة أعظم

منه وإنه لوصف رهيب توجل له القلوب وما مثله إلا الجندي في ساحة القتال عند مقابلة العدو في الساحة التي لا ينجيه فيها إلا سلاحه يفقد سلاحه ويحال بينه وبينه فلا يصل إليه بحال .

والآية الكريمة ومعها شروح المفسرين توحى بالأسئلة التالية :

السؤال الأول : الآية الكريمة أهي مساوية في معناها لقوله عليه الصلاة والسلام انه جل شأنه مقلب القلوب أم هي اخص منها ؟

السؤال الثاني : ما هي ثمرة الإيمان بأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنه جل شأنه قد يحول بين العبد وقلبه فلا يستطيع العبد أن يصل إلى قلبه أو يثوب إلى رشده ؟

السؤال الثالث : هل معنى كونه جل شأنه يحول بين العبد وقلبه أنه ليس للعبد كسب في ذلك وليس له فيه جناية ؟

الاجابة عن السؤال الأول :

فسر ابن جرير الآية الكريمة بأنه جل شأنه أملك لقلوب عباده منهم أنفسهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئاً من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئاً أو أن يفهم إلا بأذنه ومشيئته وأنزل ابن جرير على هذا المعنى ما نقل من أقوال التابعين جميعاً ، وهذا المعنى يتضمن جانبين أولهما أنه جل شأنه مالك للقلوب متصرف بها والشاني أنه يحول في بعض الأحيان بين العبد وقلبه والجانب الأول هو الأصل في المسألة والشاني فرع لها فالله جل شأنه يتصرف في القلوب ومن جملة تصرفاته فيها ومن أنواع تسييرها أنه في بعض الأحيان ولدى بعض الأفراد يحول بينهم وبين قلوبهم ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك نداء له جل شأنه بصفته وهي قدرته على القلوب وملكه لها ودعاء بطلب التثبيت على الحق فكونه مقلب القلوب صفة عامة لله جل شأنه ينشأ عنها كل الحالات التي تطرأ على القلوب ومن هذه الأحوال حالة خاصة وهي حين يحال بين المرء وقلبه فلا يدرك به شيئاً ولا يعي به أمراً والآية الكريمة إنما جاءت محذرة المؤمنين من وقوع هذه الحالة الخاصة التي يسلب المرء فيها رأيه ويضيع رشده ويذهب عنه تدبيره .

وقد جاء تفسيرات المفسرين ملاحظة الجانب الأول مرة والجانب الثاني مرة أخرى

وقد جمع ابن جرير بينهما كما رأينا والسؤال الذي يرد ما هي الأمثلة التي توضح وقوع الفرد في حالة يضيع فيها رشده ويفقد وعيه؟ الموت، غلبة الهوى، غلبة العصبية، إدمان الشر، حيرة الفتن.

### المثال الأول :

يفقد المرء رشده حين تشل إرادته و يعقد لسانه و يشخص بصره وتبرد أطرافه هنالك لا رأي ولا عقل ولا تفكير ولا إرادة وقد فسر الآية بعض المفسرين بهذا قال صديق حسن خان قبل معنى الآية : « بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم »

### المثال الثاني :

غلبة الهوى على قلب المرء أي هوى من الأهواء ذلك أن الهوى يعمي عن رؤية الحق ويصم عن سماعه قال تعالى « أفأريت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون »

هؤلاء الراسخون في الكفر ختم على سمعهم وعلى قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة وحيل بين قلوبهم وبين الحق فلا يستطيعون أن يروه أو يسمعوه أو يعوه وكان سبب ذلك أن أهواءهم غلبت على قلوبهم وكانت آلهة معبودة لهم وحالت حيلولة تامة بينهم وبين قلوبهم ، هذه القلوب التي ترى الحق بفطرتها وتذكر الخير قد عطلت عن إدراكها حتى كأنهم فقدوها وكأنها معدومة بالنسبة لهم .

### الباب الثالث :

غلبة العصبية على قلب العبد والعصبية هي ما ألف المرء اعتقاده عن أبيه وأمه وعشيرته وبيئته ونشئ عليه حتى خالط لحمه ودمه وعظامه وهذا الذي ذكر في قوله تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وهو الذي عناه عليه الصلاة والسلام بقوله « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وأنه لمن العسير جدا على الإنسان أن ينزع ما غرس في قلبه على مدى الأزمان ونما في فؤاده مع الأيام ذلك أن هذا الذي ألفه واعتاده واعتقه قد أصبح جزءا من نفسه فكيف يستطيع المرء أن ينزع جزءا من نفسه فإذا أضيف إلى هذا الإلف الهوى والكبر والعناد والإصرار انتهى إلى ما وصف الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »

وهكذا كانت العصبية للمعنى الذي نشئ عليه المرء والعقيدة التي ربي عليها حجاباً عن رؤية الحق تحول بينه وبينها .

#### المثال الرابع :

إدمان الشر ، لقد أودع الله في قلب كل إنسان ضميراً ينزع بفطرته إلى الخير يرغب فيه وينزع عن الشر ويأباه ولكن الإنسان قد يدمن الشر نعوذ بالله و يقع فيه المرة بعد المرة حتى يقسو قلبه ويموت وجدانه و يتبدل إحساسه فلا يعود يحس بكرهية للشر ولا نفرة منه بل يألفه و يستمرئه . قال تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . والرین الطبع والدينس والرین الصدأ الذي يعلو السيف والمرأة ، والرین كالصدأ يغشي القلب ، وران الذنب على قلبه غلب عليه وغطاه وقوله تعالى بل ران على قلوبهم أي غلب وطبع وختم وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يسواد القلب .

#### المثال الخامس :

الفتنة حين تصم وتطم في مجتمع من المجتمعات و يستشري أمرها و يشمل و باؤها الناس جميعاً حين ذلك يخرج الأمر من أيدي العقلاء و يجدون أنفسهم قد غلبوا على أمرهم وأصبح الأمر فوق طاقتهم وهناك تكون الفتنة في شدتها و ضراوتها حائلاً يحول بين عقلاء الأمة و حسن التدبير و إيجاد المخرج وهنا كأنما يحال بين المجتمع و عقله أمام أمواج الفتنة العارمة و قد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

فالفتنة في أول نشأتها أمرها يسير والقضاء عليها في مهدها قد يكون قريب المتناول فإذا استفحل أمرها واستشرت شرها غلبت على ذوي العقول حكمتهم وأضاعت تدبيرهم ولم يجد في شأنها علاج .

#### ما هي ثمرة الإيمان بالآية الكريمة

الآية الكريمة ذات جانبين كما أسلفنا أولهما أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء والثاني أنه جل شأنه قد يحول بين العبد و قلبه فلا يستطيع العبد أن يصل إلى قلبه أو أن يثوب إلى رشده .

ومن ثمرات الإيمان بهذا كله ما ذكره السيد رشيد رضا في تفسيره قال : « إن من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه الذي هو مركز الوجدان والادراك ذي السلطان على إرادته وعمله وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف على نفسه إذا لم يئس من روح الله فهذه الجملة أعجب جل القرآن ولعلها أبلغها في التعبير، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية وعلم الصفات الربانية وعلم التربية الدينية التي تعرف دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء .

فبينما زيد يسير على سبيل الهدى و يتقي بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوي طرية الردى إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد يميل به عن الصراط المستقيم من شبهة تززع الاعتقاد أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد ، فيطبع هواه و يتخذة لإلهه من دون الله (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ) على أنه فيه مختار، فلا جبر ولا اضطرار .

و يقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه أنه كان منهمكا في شهواته وهواه تاركا لهداه وطاعة ربه فنزل يوماً في زورق في نهر دجلة للتنزه مع رفاق له ومعهم النبيذ والمعازف فبينما هم يعزفون و يشربون إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة ( إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت وإذا المؤدة سلئت بأي ذنب قتلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت ) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة فاستمع له وأنصت حتى إذا بلغ قوله تعالى « وإذا الصحف نشرت » امتلأ قلبه خشية من الله لاطلاعها على صحيفة عمله يوم يلقاه فأخذ العود من العازف فكسره وألقاه في دجلة وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها وصار يردد الآية وعاد إلى منزله تائباً من كل معصية مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة .

اعتزله فتد كبير الله إيانا بهذا الشأن من شئون الإنسان وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى بلاءة في الإرادات والأعمال وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان وإذعان يفيدنا فائدتين لا يكمل أس بدونها الإيمان وهما أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته و يعجب بنفسه

وأن لا يئس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله فيسترسل في اتباع هواه حتى تحيط به خطاياها ومن لم يأمن عقاب الله ولم يئس من رحمة الله يكون جديراً بأن يراقب قلبه ومحاسب نفسه على خواطره ويعاقب نفسه على هفواته لتظل على صراط العدل المستقيم متجنباً الإفراط والتفريط ، ويتحرى أن يكون دائماً بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات .

وهكذا يظل المؤمن خاشعاً لله متواضعاً مهما آتاه الله من قوة وحباه من سلطان ومهما عظم جهاده وبدل نفسه وماله يخاف أن ينزع الله منه نعمته ويخشى أن يحول قلبه فهو لا يملك من الأمر شيئاً ولا يملك من أمر نفسه وأمر قلبه شيئاً وهكذا يفعل المؤمن الخير وقلبه خائف وجل فلا تبطره النعمة ولا يملكه الغرور ولا يأخذ بلبه الكبر والعجب والاستعلاء في الأرض ذلك أنه يعلم أن الساعة التي يأخذ الكبر بلبه ويستولي الغرور على فؤاده يهوي عن مكانته ويستلب نعمته ويعمى عن الحق ويصرفه عنه قلبه .

وهكذا كان بين المؤمن وعمى البصيرة لفته يسيرة جداً أن يشعر أنه هو الذي أحسن وهو الذي أعطى وأنه هو الذي فعل الخير وأن يقول في نفسه كلمة بسيطة جداً « إنما أوتيته علي علم عندي » هنالك يكون قد نسي الله جل شأنه الذي أعطاه ويسر له الخير وهنالك يعمى عن الحق ويحال بينه وبين هذا النور الذي أودعه الله في قلبه ، النور الذي يرى الحق ويكشف الظلمة لقد نسي هذا رحمة الله به ولطفه به وإحسانه إليه فكان جديراً أن يوكل إلى نفسه وشيطانه وكان جديراً ألا يبصر هدى .

وبين الكافر الضال والجاحد المعاند ورؤية الحق لفته يسيرة أيضاً أن يشعر برحمة الله ولطفه به منذ كان في عالم الأجنة هنالك ينشرح صدره للإيمان وينفتح قلبه للحق .

وهنالك ثمرة تربوية أخرى تؤخذ من الآية الكريمة ، إذا كان الكبر والعجب والغرور كل هذه تطمس على بصيرة العبد وتبعد به عن رؤية الحق فالدنيا والانغماس في شهواتها ليست بأقل خطراً من ذلك فهي عامل كبير في الخيلولة بين المرء وقلبه وهذا الذي وقع فيه أكثر المسلمين اليوم .

والثمرة الثالثة: الآية الكريمة تحذر المؤمن مخالفة أمر الله ذلك لأن امتثال أمر الله فيه الحياة ( استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ) وامتثال أمر الله دليل على الحياة وعدم

سلب الامتثال يؤدي إلى الموت وما يقدم عليه إلا من مات قلبه فليحذر المؤمن من مخالفة واحدة لأنها تؤدي إلى موت جزئي والمخالفة الأولى تسول للنفس الأمانة الوقوع بالمخالفة الثانية فإذا انغمس العبد في المخالفات مات قلبه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله (فتاوى ٨ : ١١٧) ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة مع قولهم : الله خالق كل شيء وربّه ومليكه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير وأنه هو الذي خلق العبد هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ونحو ذلك — إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة قال تعالى : « لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » وقال تعالى « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » وقال تعالى « كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هونزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو على قلبه وهو (الران) الذي ذكر الله في كتابه « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »

قال : هذا حديث حسن صحيح ، وكذا قال المفسرون هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ثم يذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه .

قال مجاهد هي مثل الآية التي في سورة البقرة : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وأحاطت به خطيئته أي غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة .

ونحوه عن الفراء قال : يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها .



أقول والآية الكريمة نص صريح بأن قلوب هؤلاء قد غشيت وطبع عليها وأصبحت لا تدرك حقاً ولا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً وكان ذلك بسبب الذنوب والآثام التي أحاطت بها فطمستها طمساً ومن هنا يعلم أن الذنوب إذا توالى على قلب العبد طمست نوره وأفسدت فطرته فلتد روي عن مجاهد أيضاً قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه فإذا أذنب العبد الذنب انقبض وضم إصبعه ، فإذا أذنب الذنب انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعها كلها حتى يطبع على قلبه قال وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ثم قرأ « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

يقول رشيد رضا في تفسيره وجملة القول أن من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل تضعف إرادته في سواه حتى تذوب وتفنى فيه فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرین والطبع على القلوب والصم والعمى والبكم كما جاء في سورة البقرة .  
ويقول أيضاً : « وما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع الفقه والهدى قوله تعالى : « أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فن يهديه بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبوراً عليه وأن الله لم يجرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يؤثره ويفضله أو يكرهه على اتباع الهوى وهو كاره له فإنه أسند إليه اتخاذ هواه إلهه وقد قال لنبيه داود عليه السلام ( ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

وهذا نص في أن اتباع الهوى سبب لضلال عن سبيل الله ، وقوله تعالى في آية الجاثية ( وأضله الله على علم ) ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالاً بل هو داخل في سنته تعالى في الأسباب والمسببات و يؤيده كون ضلاله على علم وهو أنه متعمد لاتباع الهوى مؤثر له على الهدى والله تعالى يسند الأمور إلى أسبابها تارة ولإليه تعالى تارة من حيث أنه خالق كل شيء وواضع سنن الأسباب والمسببات ... كقوله تعالى في الحث ( أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونهم أم نحن الزارعون ) فهل يقول عاقل أن الفلاح لا فعل له ولا اختيار في زرعه وأن الله يخلق له بدون إرادته ولا فعله ، أو أن فعله وتركه في أرضه سواء ، وتلقيحه نخله وعدمه بيان ؟

أقول ومن هذا الباب قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » وقوله تعالى :  
 « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » لم يقع الختم على قلوبهم ولا الحيلولة بينهم وبينها ،  
 لم يقع شيء من ذلك إلا نتيجة لأسباب أوقعوها وآثام ارتكبوها وذنوب جنوها ولذلك  
 ذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى وإنه إليه تحشرون وفيه محاسبة العبد على أعماله ومجازاته  
 عليه إما بالعذاب الأليم وإما بالنعيم المقيم .

قال تعالى :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

قال ابن كثير: قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر المؤمنين  
 ألا يقروا المنكر بين ظهرانهم فيعمهم الله بالعذاب وهذا تفسير حسن جدا ، ولهذا قال  
 مجاهد في قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » هي أيضا لكم  
 وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب وغير واحد وقال ابن مسعود ما منكم من أحد  
 إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » فأياكم  
 استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير والقول بأن هذا التحذير يعم  
الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح و يدل عليه الأحاديث الواردة في  
 التحذير من الفتن .

يقول القرطبي :

وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام فانه قاتل يوم الجمل وكان سنة ست وثلاثين ما  
 علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت .  
 روى أحمد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال قلنا للزبير « يا أبا عبد الله  
 ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة )  
 ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت وروى عنه جمهور مخرجي التفسير  
 المأثور: لقد قرأناها زمانا وما نرى أننا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها .

وقد روى أبو الشيخ عن مجاهد قال « اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة »  
 هي ( يحول بين المرء وقلبه ) حتى يتركه لا يعقل والذي أفهمه من هذا أن الفتنة إذا

عَمِتَ فِي مَجْتَمَعٍ وَطَفَتِ ثُمَّ اسْتَيْقِظَ النَّاسُ لِلْقِضَاءِ عَلَيْهَا وَجَدُوا الْأَمْرَ قَدْ خَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ  
وَأَلْفُوا الْخَرْقَ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرِّتْقِ وَهَنَا تَضِيْعُ حِكْمَةِ الْحُكَمَاءِ وَيَذْهَبُ تَدْبِيرُ الْعُقَلَاءِ وَتَغْلِبُ  
عَلَى الْعُقُولِ الْحَيْرَةُ وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الدَّهْشَةُ وَيَصْبِحُ ذَوُو الْعُقُولِ وَكَأَنَّمَا عَطَلَتْ عُقُولَهُمْ ، وَإِنَّا  
لَنَجِدُ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْحَاضِرَةِ .



## « فهرس »

### كتاب : من هدي سورة الأنفال

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة بقلم الأستاذ محمد العبدية .....
٧	تقدمة للسورة الكريمة .....
٨	نظرة إجمالية في أغراض السورة الكريمة .....
٩	النداءات الخمسة .....
١٧	موضع السورة من كتاب الله .....
١٧	قول الألوسي .....
٢٤	قول ابن كثير في النفل .....
٢٥	قول أبي عبيد في الانفال .....
٢٥	قول الراغب .....
٢٦	خلاصة الأقوال .....
٣٣	الرواية الراجحة في نظرنا .....
٣٧	خلاصة القول في الروايات .....
٤٠	هل الآية منسوخة .....
٤٥	قول ابن جرير الطبري .....
٤٦	الخلاصة .....
٤٦	متى شرع الخمس ؟ أحمست غنائم بدر .....
٤٨	هل النقل من أصل الغنيمة .....

٥٦	..... في تربية الآيات الكريمة
٥٩	..... قيمة التجارب في حياة الأمة
	..... قاعدة عامة في التربية القرآنية
٦١	..... الحرص على سلامة الجماعة
٦٣	..... التربية عملية ميدانية
٦٤	..... غوائل التصر
٦٦	..... ثناء عن طريق الاشارة
٧٠	..... التقوى جماع الخير كله
٧١	..... شأن المؤمن أن يتقي الله حق تقاته
٧٥	..... من صفات المتقين الايمان بالغيب
٧٨	..... ثمرة التقوى
٨٠	..... لا نسخ في الايتين
٩١	..... الخوف والرجاء مقترنان
٩٦	..... زيادة الايمان
١٠٠	..... قول القرطبي في زيادة الايمان
١٠٣	..... قول السيد رشيد رضا في زيادة الايمان
١٠٤	..... أبو حنيفة رحمه الله وزيادة الايمان
١١١	..... حقيقة الانسان مجهولة
١١٢	..... دراسة الاعتقاد دراسة نفسية
١١٣	..... المصطلحات الشرعية يحكم في معناها الشرع
١١٥	..... قولهم إن التصديق لا يكون إلا بالقلب مردود
١٢٩	..... الانحراف عن المعنى الصحيح للتوكل
١٣١	..... الصفات الخمس لتربية المؤمنين
١٤٤	..... ماهي العبادة
١٤٧	..... الانفاق

١٥٦	.....	القصد في الانفاق
١٥٩	.....	في الانفاق حياة المجتمع
١٦٤	.....	كلمة في الانفاق للغزالي
١٦٥	.....	الصلة بين الصفات الخمس والسؤال عن الانفال
١٨١	.....	معالجة الموقف
١٨١	.....	مغامرة في سبيل الله منظمة
١٨٦	.....	وحدة صف المؤمنين بعد المؤتمر
١٨٩	.....	روحهم المعنوية عالية
١٩٩	.....	الانفعال المترن يستشير الطاقات الكامنة
٢٠٠	.....	اعطاء كل مقام حقه
٢٠٣	.....	أقاتلت الملائكة يوم بدر ؟
٢٠٥	.....	دعوة باطلة
٢٠٨	.....	الهدوء في ساعات الشدة
٢١٥	.....	لا فرار يوم الزحف
٢١٩	.....	قول ابن العربي
٢٢٤	.....	الارتباط بالقيادة
٢٢٩	.....	تربية بيع النفس لدى أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم
٢٤٦	.....	الاية ذات غرضين
٢٧٥	.....	ما هي ثمرة الايمان بالاية الكريمة





ب  
بعمون الله  
وتوفيقه  
طبع هذا الكتاب  
بشركة النعيكان للطباعة والنشر  
الرياض/المملكة العربية السعودية  
ص ب . ٦٦٧٢ - ت . ٤٥٧٢٥٣٧



